www.kishk.fr



عبد الحميد كشك

قصة أيامي
مذكرات الشيخ كشك



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمدا رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد .. فإن الدهر مدرسة .. أساتذتها الأيام والليالى وعلى كل عاقل أن يكونابصيراً بزمانه !!

والأيام مطية ابن آدم . فهنيئاً لمن استعملها فى طاعة الله ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « **اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك** » .

وقال ﷺ : « **لا تزول قدما عبد من بين يدى الله عز وجل حتى يسأل عن أربع : شبابك فيم أبليته ؟ وعمرك فيم أفنيته ؟ ومالك من أين اكتسبته ؟ وفيم أنفقته ؟ وعملك ماذا صنعت فيه ؟! والكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت،والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى** » .

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون** ﴾ ، وإذ يقول : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ ؟!

فعلى أولى الأبصار أن يعتبروا ويعلموا أن الحياة أمل يخفيه أجل ، وأمل يحققه عمل ، وعمل ينهيه أجل ، وبعد ذلك يُجزى كل أمرىء بما فعل ، فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء ، وما الجيل فى الزمان إلا لبنة فى بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء !!

دقات قلب المرء قائلة لـه :
إن الحياة دقائق وثـوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمرٌ ثان
واصبر على نعم الحياة وبؤسها
نعم الحياة وبؤسها سيان

هذه قصة أيامى بحلوها ومرها ، وضحكها وعبوسها، وليلها ونهارها ، أقدمها إلى الذين يريدون أن يأخذوا من الأيام عبرة ؛ فهى تجربة نصف قرن من الزمان كان فيه العرق والدموع ، واليقظة والهجوع ، والحرية والسجون ، عسى الله أن ينفع به من أراد أن يأخذ من الأيام عبرة.

عبدالحميد كشك

قصة أيامى

أكتبها بما تيسر من التقدير، وتقدر من التيسير . وأمركز عناصرها الأساسية ، وأعنصر مراكزها الأصلية ، والله ولى التوفيق .

الاسم : عبدالحميد عبدالعزيز محمد كشك

المولد والنشأة

ولدت فى العاشر من مارس ١٩٣٣ فى بلدة شبراخيت إحدى مراكز محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية من أبوين ليسا من ذوى البسطة فى المال ، فالمال ظل زائل وعارية مستردة، وكان ترتيبى الثالث بين ستة من الأخوة، ولدت سليما معافى ، من الأمراض وما إن بلغت السادسة من عمرى حتى أصيبت عيناى برمد صديدى اختلفت بسببه إلى حلاق القرية ، ومازلت أذكر وأمى تحملنى إلى محل الحلاق حيث كان يعبث بمروده فى عينى مما أدى إلى ضياع العين اليسرى ، وبقيت اليمنى وبها ضعف كأنها تشكو ضياع أختها ، فظللت بها أصارع شدائد الحياة حيث ذهبت إلى جمعية تحفيظ القرآن الكريم لأعوض عن نور البصر بنور من كتاب الله الكريم ، كان والدى يعمل تاجراً فى محل صغير ، وأشهد أنه لم يكن من الذين يجدون ما ينفقون ، بل كان ممن يلهث وراء الحصول على لقمة العيش بشق الأنفس حيث أعباء الحياة ثقل بها كاهله . وقد كان جدى لأبى من الذين يحفظون القرآن لأبناء البلدة وتربى على يديه أناس تبوءوا مكانة كبيرة فى علوم الإسلام ويوم مات جدى لم يترك درهما ولا دينارا ، إنما ترك لنا تقوى الله ، فكانت الأسرة المكونة من الوالدين وستة من الأولاد وجدة لأبى تعيش قانعة راضية سعيدة، إذ ليست السعادة فى الانتشاء بالكئوس المترعة أو الاستمتاع بالغيد الأماليد ، إنما السعادة فى الرضى حيث يقول الصادق المعصوم ﷺ : «**ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس**» كنا جميعا فى مراحل التعليم مما ضاعف أعباء الحياة وتكاليفها حيث لم يكن أحد منا يستطيع أن يسعى لطلب الرزق .

وبعد أن حفظت القرآن فى البلدة التحقت بمعهد الإسكندرية الدينى ، وكان لهذا المعهد ميزة حيث كان الطلاب يلجئون إلى مسكن على حساب الأزهر ، وكان بين مبنى الدراسة

ومبنى يشكل مزرعة اكتست ثوب أخضر من زرع الشعير ، وأذكر أن هذا المعهد كان به نخبة من الأساتذة العلماء أذكر منهم شيخين جليلين كان لهما أثر طيب فى تكوين شخصيتى : الأستاذ أحمد الكومى وهو عالم غزير المعرفة فى الفقه والحديث والتفسير ، وقد عوضه الله عن نور البصر ذكاء القلب، وكان له موقف أذكره بالعرفان والشكر فى تحويل مجرى حياتى وسوف أعرض له فى حينه .

والأستاذ محمد مصطفى جاد وكان له باع طويل ، ومعرفة واسعة بعلوم العربية من النحو والصرف والأدب مما جعلنى أعشق هذه العلوم وأهواها وكأنها بالنسبة لى الماء والضياء والهواء .

عندما كنت فى السنة الثالثة الابتدائية وقد بلغت من العمر ستة عشر عاما لأننى التحقت بالمعهد بعد حفظ القرآن وكان عندى ما يقرب من ثلاثة عشر عاما .. أذكر بعدما أديت امتحان السنة الثالثة الابتدائية وعدت إلى بلدتى لقضاء عطلة الصيف جلست مع بعض الإخوة الزملاء بعد ما صلينا العصر وأخذنا بأطراف الأحاديث بينما طرح أحدنا سؤالا قال فيه : من منكم يستطيع أن يلقى درسا على المصلين فى أحد مساجد البلدة ؟ وجاءت الإجابة منى بأننى أستطيع ذلك بمشيئة الله تعالى : وكان ببلدتى ثلاثة مساجد : المسجد البحرى ، والمسجد « الوسطانى » ، ومسجد الجمعية واخترت المسجد البحرى لإلقاء أول موعظة ، وحددت الزمن بعد صلاة الفجر ، وسألت ربى أن يلهمنى ما أقول . وصلينا الفجر وما أن سلم الإمام التسليمتين حتى انتفضت واقفا دون ما تردد وكسرت حاجز الخوف الذى كان بينى وبين مخاطبة الناس ، لم يكن عندنا فى المعهد الابتدائى من الزاد العلمى ما يمكننا من إرشاد الناس ووعظهم فقد كانت العلوم تدور بين النحو والصرف والفقه والتاريخ والجغرفيا والقراءات السبع للقرآن الكريم ، لذا وقفت أجول بخاطرى فى أى علم أتكلم وما إن ذكرت المقدمة التى اشتملت على البسملة والشهادتين حتى حضر بذهنى هذا الحديث الجامع : « سبعة يظلهم الله تحت ظله » مع شيء من سيرة النبوية التى كنا ندرسها فى السنتين الأولى والثانية من القسم الإبتدائى .. واستغرقت الموعظة حوالى ثلث الساعة تلقيت بعدها التهانى الطيبة من المصلين ، والتشجيع وعبارات الثناء والقبول ، مما دفعنى إلى الأمام فعكفت على قراءة التفسير لبعض الآيات ، والشرح لبعض الأحاديث ، وبعد أن كنت أعظ الناس فى الفجر فى المسجد البحرى أضفت إلى ذلك درس العصر فى المسجد « الوسطانى » ، والشيء الذى لم أكن أتوقعه من الإخوة الزملاء أنهم سرعان ما ناصبونى العداء حسداً من عند أنفسهم ، لكنى استعنت بالله عليهم وتذكرت ما قاله العلامة ابن هشام فى أول كتابه : قطر الندى :

إن يحسدونى فإنى غير لائمهم غيرى من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لى ولهم ما بى وما بهم ومات أكثرنا غيظــاً بما يجد

صعود المنابر

كان عبدالملك بن مروان يقول : إنما شيبنا صعود المنابر ؛ ذلك لأن أمر مسئولية فخشبة المنبر لا تحتمل التمثيل لأن الواقف على درجة إنما يتأسّى بسيد الخلق وحبيب الحق .

كان عمى الشيخ عبدالفتاح كشك مأذون البلد يقوم بإلقاء خطبة الجمعة فى الجامع « الوسطانى » وذات يوم وبعد ما بلغه أننى أقوم بإلقاء الدروس فى المساجد كلفنى إلقاء خطبة الجمعة فى مسجده ، وكان هذا المسجد أكبر مساجد البلدة ويضم نوعيات مختلفة من البشر : ما بين تاجر وموظف ، وصانع ، واستعنت بالله ، وصعدت المنبر لأول مرة ودار موضوعها حول محاربة الفساد الإدارى فى البلدة ، وبدأت فى الكلام عن تحريم الرشوة فى نطاق قوله ﷺ : « **لعن الله الراشى والمرتشى والرائش** » وتناولت فيها ما يدور فى المستشفى من إهمال للمرضى وسوء معاملتهم مما دفع مديرها إلى أن يتقدم بشكوى ضدى من مأمور المركز . وبدأت المتاعب عندما هاجت عقارب الحقد فى قلوب الشانئين ، لولا انتهاء العطلة الصيفية وبدء العام الدراسى . مما أسدل ستارا مؤقتا على تلك المآسى ودخلت العام الدراسى : السنة الرابعة الابتدائية وهى شهادة . وأعلنت جمعية الشبان المسلمين عن مسابقة فى القرآن الكريم حفظاً وتجويدا .

وعكفت على قراءة القرآن العظيم ودراسة أحكامه ودخلت المسابقة . ثم أقبلت إجازة نصف العام وكنت قد شعرت بعينى اليمنى تأخذ فى الضعف وداخلنى شعور رهيب بألم دفين وكأننى كنت أنظر من وراء الحجب لأستشفّ ماذا ينتظرنى كمن يساق إلى الموت وهو ينظر ، فحياتى حياة علم ومدارسة وحاسة البصر بعد حاسة السمع فى تحصيل العلم ، فماذا أصنع لو فوجئت يوما بأننى فى حاجة إلى من يأخذ بيدى بعد أن كنت حراً طليقاً ؟ ثم ماذا أصنع عندما أكون فى حاجة ماسّة إلى من يقرأ لى علوما أدخل بها الامتحان وأحرص بها على ترتيبى فى النجاح ، وكان طوال السنين السابقة الأول ؟ ثم ماذا أصنع قبل هذا وبعده عندما أجدنى رهين المحبسين : « البيت والعمى » مقيد الحرية محدود الحركة؟ وبين علامات الاستفهام تتعاظم أمامى وتبدو كأنها الجبال الشوامخ إذا بوالدى يقطع علىّ هذا الصمت الرهيب ببشرى طيبة . قال لى : إن جمعية الشبان المسلمين أرسلت بطريق التليفون أنك قد حصلت على جائزة قدرها خمسة جنيهات . وكان لهذا النبأ وقع طيب على نفسى بل هامت عليه الهموم كأنها وكأنهن حمامة وصقور . ولكن سرعان ما انتشر خبر فى أنحاء بلدتى

وصارت الجنيهات الخمسة خمسمائة على ألسنة الناس . وتوقعت بعد ذلك أمرا : أن العين حق وأن الله أمرنا أن نستعيذ من شر حاسد إذا حسد

هى الأيام لا تُبقى عزيزا   وساعاتُ السرور بها قليلة
إذا نشر الضياءَ عليك نجم   وأشرق فارتقب يوما أفوله

وصحبنى والدى إلى الإسكندرية ليصرف الجائزة مستعينا بها على بعض شدائد الأيام بعد ما عضه الدهر بنابه وأناخ عليه بكلكله .

كان والدى يعطينى كل شهر خمسة وأربعين قرشا بالإضافة إلى بعض الخبز والجبن الذى كنت أحمله إلى الاسكندرية .

ومرت الأيام سريعة وكلما انشق فجر وأضاء نهار ازدادت الظلمة فى عينى وقبل الامتحان بشهر عدنا إلى بلدنا للتذكر وقد أوشكت الدنيا أن تحكم حلقاتها من حولى . وكأنى أمشى بخطى سريعة إلى سجن العمى . ولما عزمت على الرحيل لأداء الامتحان كانت تراودنى فكرة هزتنى من الأعماق هزا عنيفا : هل إذا ذهبت لأداء الامتحان وحدى سأستطيع أن أعود من هنالك وحدى؟ وتوكلت على الله وأديت امتحان الشهادة الإبتدائية وما أن فرغت من أداء الامتحان حتى كنت إذا أخرجت يدى لم أكد أراها وزملائى من الطلبة لم يدركوا أننى كف بصرى ؛ ذلك لأننى كنت أتنقل فى أماكن محدودة حفظتها أيام كنت بصيرا فكنت أتحسس الخطى بناء على عهد مضى . لكن الموقف الذى كنت منه فى حرج هو أننى كيف أعود؟ وكيف أسافر وحدى؟ هل أرسل إلى والدى؟ ولكن كيف؟ من الذى سيكتب لى الرسالة التى تخبره بحالى وأنا الذى لا أستطيع أن أكتب ؟! وأخيرا كان لابد أن أتصرف فقد أوشك الطلبة على الرحيل إلى بلادهم فهل سأظل وحدى ؟! وهدانى الله إلى أن أقصد زميلا عهدت فيه طيبة القلب أمليت عليه خطابا بحجة أننى متعب لا أستطيع الكتابة وقد كنت كذلك . ووصلت الرسالة إلى والدى وعلى جناح السرعة رأيته يأتى مهرولا . كنت قابعا فى ركن من أركان الغرفة كئيبا كاسف البال ، قليل الرجاء ، يعتصرنى الجوع ، ويعتصرنى البؤس . وقطع علىّ صمتى العميق صوت والدى يلقى علىّ سلامه . ومد يده مصافحا دون أن أراه . فأخطأت يدى الطريق إلى يده . وكان رحمه الله تعالى ذكيا سرعان ما أدرك أن فى الأمر شيئا . وبنبرة حزينة قال لى : ماذا حدث ؟ وعلى سبيل السرعة قلت له : لقد أصبحت لا أرى شيئا . فما كان منه إلا أن قال : لا تحزن ، وسوف نعمل على علاجك حتى ولو بعت ثوبى هذا ، وأخذنى من يدى وتوجهنا إلى بلدنا . وعقدت العزم على لزوم بيتى وألا ألقى أحدا .

ورغم أن والدى قد ناءت بكاهله الأعباء وأثقلته الأرزاء ؛ فالأولاد كُثر ، وجسده قد ضعف حيث أصيب بمرض صدرى ، إلا أنه أخذ يعمل على توفير شىء من المال للعلاج .

وذات يوم أخذنى إلى بلد مجاور حيث هناك طبيب قد ذاع صيته . وكان نصرانياً وبعد توقيع الكشف علىّ همس فى أذن والدى بكلمات جعلته يفقد اتزانه . ولكنه أتبعها بقوله : سأجرى له عملية ولا يأس مع الحياة . وأخذنى والدى عائدين إلى منزلنا . وعلى درج سلم العيادة أخذته إغماءة خفيفة فحسسنا حتى يفيق فأجرى الله على لسانى هذه الآية :

﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾

فقال بصوت خفيض فيه رنة حزن عميق : اللهم أنزل علينا الصبر ورضّنا بما رضيت . وعدت إلى البيت إلى أن أذن الله لنا بالرحيل للعلاج حيث ظللت عاما كاملاً أتردد على عيادة هذا الطبيب الذى جعل من عينى حقلا للتجارب ، وبحكم وجودى هذه المدة الطويلة تحت العلاج عرفت لماذا اشتهر هذا الطبيب . قد تصاب العين بما يسمى « الكتاركت » أى المياه البيضاء وهى لا تؤذى البصر لكن طبيب العيون لا يستطيع أن يجرى الجراحة للعين إلا بعد أن تفقد الإبصار تماما وعندئذ يقال إن المياه قد استوت فيدخل المريض ومعه قائد يقوده . وبعد إجراء العملية وكشف الضمادات عنه يرى أحسن مما كان يرى من قبل . عندئذ يقول الناس إن هذا الطبيب قد أبرأ الأكمه فقد ذهب إليه فلان وفلان وعاد البصر بعد فقده . أما ما أصبت به أنا فكان يسمى الجلوكوما « المياه الزرقاء » وهى أخطر ما تصاب به العيون إذ أنها تأكل البصر كما تأكل النار الحطب ، ودون جدوى رجعت كما أتيت . كل ذلك والأسرة فى حالة بؤس ، فالموارد قد ضعفت وأعباء الحياة فى ازدياد . وذات يوم نشرت إحدى المجلات المصرية صورة لطبيب فى القاهرة يجرى عملية ترقيع بقرنية ، وقالت عنه كلاماً يشعر القارىء بأنه « المسيح بن مريم » فى القرن العشرين . والكذب يهدى إلى الفجور . والفجور يهدى إلى النار .

وهكذا عودتنا الصحافة التى تلهث وراء المادة والإثارة ، والتى شعارها « أعذب الشعر أكذبه » وكما يقولون : إن الغريق يتشبث بالقشة . فقد عزمت على الذهاب إلى هذا الطبيب بالقاهرة ووقعنا الكشف ، وقال بعد توقيع الكشف إنه يلزمه عملية بالعين اليسرى ونسبة نجاحها خمسون فى المائة .. ويلزمنى خمسون جنيها تدفع قبل إجراء العملية . وكان للجنيه قيمة يومها فى عام ١٩٥١ وعبثا حاولنا إقناعه بأن يأخذ نصف الأجر مقدما والنصف الآخر بعد إجراء العملية وقال باللفظ الصريح « نحن لا نبيع ترمس » . وقال لى والدى ما دمنا بالقاهرة فما ضرّ لو ذهبنا إلى مستشفى قصر العينى . وفى الصباح توجهنا إلى هناك ولكن وجدنا قلوبا ونفوسا خلت من الرحمة ليس للفقراء موضع قدم هناك !!

فعدنا أدراجنا لتدبير المال الذى سنجرى به العملية عند هذا الطبيب . كانت شقيقتى الكبرى تملك بعض الحلى فصممت على بيعه وكان عندنا مذياع بعناه ثم توجهنا إلى الطبيب وصمم على إجراء العملية وقت صلاة الجمعة – على الرغم من أنه مسلم ، وعبثاً حاولت أن أؤخرها إلى ما بعد الصلاة ، ولكنه أصر وأجريت العملية ، وتمت على ظهرت خمسة عشر يوما ، وجاءت الساعة الرهيبة وهى ساعة حل الرباط ، وحلّ الرباط وحرّك يده أمامى هل ترى شيئا ؟ فأجبت بالنفى !! فردّ فى عصبية وعنف قائلا : إنك ترى ولكنك تنكر ، فأجبته : وم الإنكار، وأنا الذى أتمنى أن أرى؟! وكم خدعت فى الطبيب لأول خدعت فى هذا حيث قضيت عاما أتردد على عيادته وقد أقمت فى المسكن مع شقيقى الأكبر الذى كان طالبا بكلية الحقوق فقد استأجرنا غرفة فى شقة فى حى حدائق القبة ، ولما لم أجد فى العلاج فائدة فقلت أرجع إلى بلدى وقد انقطعت عن الدراسة حولين كاملين، فماذا حدث ؟ تحركت الأحداث حسب بسرعة عندما دخلت البيت عائدا من القاهرة وجدت جدار الغرفة التى كنا ننام بها قد سقط ، وأقيمت على أعمدة من خشب فبعث هذا فى نفسى ألما عميقا ، وانطويت على نفسى ، وذات ليلة كنا نجلس جميعا فقال لى الوالد فى صوت حنون : ما ضرّ لو وصلت التعليم وسأوصى عليك زملاءك أن يرعوك؟ وثارت فى نفسى ذكريات الألم !! من الذى سيأخذ بيدى ويقوم على خدمتى ويذاكر لى العلوم ؟! وتحركت علامات الاستفهام أمام ناظرى كأنها ألسنة اللهب لولا أن أطفأتها دموع غزار فأسدل الستار على هذا المشهد الكئيب !!

مرض الوالد

فى أصيل ذات يوم من أيام شهر أغسطس كنت أجلس على إحدى درجات السلم أستقبل النسمات فى حر الصيف إذ دخل الوالد قادماً من محل تجارى ولكنه دخل مسرعا حيث سمعته وقد ذرعه القيء فاستقاء ثم آوى إلى السرير فسمعت له أنيناً كأنين من ذبح وحيدها فى حجرها ، وكنت أظن أنها سحابة صيف ما تلبث أن تنقشع ، ولكن كان فى تقدير الله أمر قضاه وكانت المأساة التى ما زالت تحز فى نفسى أننا لم نجد ثمن الدواء ، ولم نجد القلوب التى تحمل مثقال ذرة من رحمة ، إنما وجدنا قلوبا كالحجارة أو أشد قسوة ، ونفوسا لها أنياب ومخالب ، والواقع أننى وجدت نفسى أمام هذه المأساة ، ولا حول لى ولا قوة . وجدتنى أغدو وأروح كطير يمشى من الألم وهو مذبوح ، فالأهل والأقرباء تنكروا لنا منذ ساءت أحوالنا المادية وهكذا الدنيا !!

إذا قلّ مالى فلا خل يصاحبنى   وفى الزيادة كل الناس خِلّانى
كم من عدو لأجل المال صادقنى   وكم من صديق لفقد المال عادانى

كنت ألازم والدى فى مرضه فقد أقعدته شدة المرض كما أقعدنى فقد البصر، وكان إذا جن عليه الليل يشتد أساه وكأنه كان ينتظر الموت كل ليلة أو كأن الليل كان سفير الموت إليه !!

وفاة الوالد

فى صبيحة يوم السبت السادس من سبتمبر ١٩٥٢ ولأمر ما انتقل الوالد من حجرة داخلية إلى حجرة تطل على الطريق، وكانت الأم مشغولة فى هذا اليوم بصناعة الخبز فى فرن البيت، و « يوم الخبيز » كما يسمونه ثقيل على نفسى، وكنت فى هذا اليوم– أيام الطفولة– أغادر البيت فلا أعود إلا ليلا، وعاودتنى أيام الطفولة فى يوم لم استطع فيه حراكاً حيث كنت رهين المحبسين. كنت أجلس بجانب والدى ومرت جنازة فى طريقها إلى المقابر وخلفها صبية صغار يبكون أباهم ، كان ذلك فى تمام العاشرة صباحاً وإذا بوالدى يهمس فى أذنى قائلا : إننى عما قليل سألحق بهذا الميت ! قالها وقد ملك الإعياء عليه كنه وكأنه كان يشعر بشبح الموت يرفرف من فوقه وقام لينام على السرير ، وفى الساعة الثانية نادى على أخى الأصغر وكان يلعب حيث كان طفلاً ، واستغاث به أن يذهب مسرعاً إلى الطبيب ليدركه ، ولكن كان ملك الموت أسرع من الطبيب إليه ، ومازالت هذه الكلمة ترن فى أذنى وهو يقول لى : « أسأل الله أن يغفر لى » وسرعان ما غُسّل وكُفّن ووُضِعَ فى سرير المنايا وودعته من البيت حيث سيق إلى مثواه الأخير وبانفضاض ليلة المأتم انفض الأهل والأصحاب !!

الواقع المر !!

لم يكن هناك بد من مواجهة الواقع فقد انهدم ذلك الجدار الذى كان يمثل فى حياتى حاجزاً منيعا ضد عوامل التعرية . وشعرت بالعواصف الهوج تثور من حولى ، وزمجرت الرياح القواصف تزعزع حياتى . فقد حضر إلينا أحد الأقرباء ، بل هو فى مقام الوالد. إنه خالى وشقيق أمى ، الذى سلبها حقها فى ميراث أبيها وقام بتوزيع الأدوار علينا : أشار على أخى الأكبر وكان يومها طالبا بالسنة الثالثة من كلية الحقوق . أشار عليه أن يترك التعليم ويعمل كاتبا فى إحدى المحاكم . كما أشار علىّ وكنت يومها أحمل شهادة الابتدائية الأزهرية . أشار

عليّ أن أعمل مؤذنا فى أحد المساجد مقابل ثلاثة جنيهات . كما أشار على أخى الذى يصغرنى، وكان يومها تلميذا فى المدرسة الثانوية أن يعمل فى محل البقالة الذى تركه والدى . وكان ذلك المحل يومها خاويا على عروشه ، فلم يبق فيه ما يسد الرمق وكأنه أصبح حزينا على موت صاحبه !! فالوفاء فى الأشياء قد يكون أكثر منه فى ابن آدم !!

مررت على المروءة وهى تبكى ... فقلت : علام تنتحب الفتاة
فقالت : كيف لا أبكى وأهلى ... جميعا دون خلق الله ماتوا

كما أشار على أصغرنا أن يلتحق بإحدى الصناعات يتعلم ويأكل لقمة عيشه . ولكن إرادة الله لا تتبع هوى أى إنسان، فإن فى السماء مملكة استوى ربها على العرش :

(عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد . فإن سلمت لى فيما أريد ، كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد) .

كان العام الدراسى الجديد قد أوشك أن يبدأ . وفى خلوة بينى وبين شقيقى الأكبر أشار عليّ أن ألتحق بمعهد القاهرة الدينى لأواصل مسيرة التعليم بالأزهر ، على أن يقوم بتحويل أوراقى من معهد الإسكندرية إلى هناك . وقد كان المعهد قد حسب العامين اللذين انقطعت فيهما عن التعليم للعلاج - قد احتسبهما رسوبا بحيث لم يبق لى سوى سنة استثنائية ، إذا رسبت فيها كان المصير فصلا من التعليم لا يقبل شفاعة الشافعين . وتصورت نفسى كأنى أضع قدمى على شفا جرف هار لو زلّت لكانت الهاوية . وما أدراك ما هى ؟!.

وفى يوم من أيام أكتوبر ١٩٥٢ وقبل أن تبرز الغزالة من خدرها وتطل علينا بقرنها والناس ما زالوا فى بيوتهم ، اصطحبنى شقيقى إلى القطار ، وخرجت من بلدى أتسلل تسلل القطا مستخفيا أتجنب أسئلة الفضوليين ، وما أكثرها !، وما أسوأ وقعها على النفس التى تناوشتها السهام من كل جانب، ومزقتها رياح الشدائد من كل اتجاه! ووصلنا إلى مدينة دمنهور، وتنفست الصعداء فقد جاوزت حدود البلد . وركبنا القطار إلى القاهرة حيث كان شقيقى قد استأجر غرفة يقيم بها وهو طالب . وأخذ يسعى جديا فى تحويل أوراقى قبل أن ينفرط عقد الأيام فتضيع السنة الاستثنائية . وكما أن المصغر لا يصغر . كذلك لا استثناء فى الاستثناء .

ولن أنسى موقف هذا الشيخ الجليل : الشيخ سيد الجراحى الذى كان يعمل أستاذا فى كلية الشريعة . والذى كانت تربطه بوالدى صداقة ، حيث كانا رفيقين فى كتّاب البلدة . فإن الناس لما تنكروا لنا ، بل وتنكر لنا الأهل والأقرباء ، ظلّ هذا الشيخ وفيّا ، فقد سعى سعيا حثيثا ، حتى قدّم الأوراق إلى معهد القاهرة وإن كان ذلك قد تمّ بعد أن انصرم نصف العام الدراسى . ولكن كان لابد مما ليس منه بد . فكان لزاما عليّ أن أحرص على الحضور

خاصة وأن فى السنة الأولى الثانوية علوما لم نكن قد درسناها فى القسم الابتدائى مثل : الحديث الشريف والبلاغة والمنطق والعَروض . فكيف أقرؤها من غير أن أفهمها ؟

بين المسكن والمعهد

كانت الغرفة التى أقطنها أنا وشقيقى فى حى شبين بدير الملاك، وكان المعهد الذى أختلف إليه بحى الدراسة بالقرب من الأزهر،وكان ذلك يمثل عبئا ثقيلا على نفسى ويكلف أخى الكثير من وقته وجهده . فكنا نركب من دير الملاك وننزل بالعتبة ثم نقطع شارع الأزهر والسير فيه صعب لازدحامه وطوله . كنا نقطعه مشيا على الأقدام . فأصل إلى قاعة الدرس وقد بلغ الإعياء منى مبلغه عندما أجمع أنفاسى المبعثرة ، ثم يأخذ أخى طريقه إلى كلية الحقوق بجامعة عين شمس على أن يعود إليّ بالمعهد ليصحبنى إلى المسكن . وكثيرا ما كنت أنتظره طويلا حيث كان مرتبطا بمواعيد الدراسة . وكم كان يحز فى نفسى أن ينصرف الطلاب فرحين بانقضاء يوم ملىء بالعلوم . فرحين لأنهم ذاهبون إلى مساكنهم ليأخذوا نصيبهم من الراحة . وأقف أنا وحدى تمر عليّ اللحظات كأنها سلسلة من الجبال ، وتساورنى الظنون وتشد الأوهام أذنىّ : لماذا تأخر أخى ؟.. وهكذا إلى أن يقطع هذا السكون الرهيب صوت أخى يلقى عليّ السلام فينزل سلامه على قلبى كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى فننزرع الطريق إيابا .

ورأيت بمشاعرى أن أوفر بعض الراحة لأخى حتى يتمكن من مذاكرة دروسه ، فأشرت عليه أن يأخذ بيدى إلى الحافلة « الاتوبيس » ويتركنى وحدى على أنزل محطة العتبة مستعينا بأحد الناس الذاهبين فى طريق المعهد . واستعنت بالله فقد كنت أملك عزيمة صلبة أواجه بها شدائد الأيام إذا عصفت ، وخطوبها إذا ادلهمت . فقد عزمت بعون من الله أن أواصل الطريق مهما تراكمت أمامى العقبات . فقد رأيته محفوفا بالأحراش والأشواك التى آوت إليها العقارب والحيات . إذا سلم السالك فيه من لدغة العقرب فقد لا يسلم من نهشة الثعبان .

مجىء الأم إلى القاهرة

كانت أمى تقيم بالبلدة مع بعض إخوتى ، ورأينا أن نجمع كلنا فى القاهرة حتى يكون فى ذلك نوع من الاستقرار، فجئنا ببقية الأسرة إلى القاهرة، بعد ما استعنا بالله وبعنا المحل الذى كان يعمل فيه أبى ، كما بعنا بعض الضروريات التى أردنا أن ننفق من ثمنها ولكن سرعان ما نفد ذلك المال القليل أمام مطارق الأيام الشديدة التى انهالت فوق رءوسنا . ثم صبر

أخى إلى أن يذهب إلى أحد الأقرباء ، وكان يملك المال الكثير . كان يملك ثمانين فدانا من الأرض الجيدة، وما أن علم ذلك الثرى بقدوم أخى حتى ولى هاربا مختبئا ، فكلم أخى زوجة ذلك الثرى وكانت على صلة القرابة بنا ، وأنه جاء ليقترض ثلاثين جنيها ، ويضع أوراق البيت الذى كنا نملكه فى بلدنا تحت يدى ذلك الثرى ليكون فى ذلك استيثاق برد الدين . ولكن جاء ذلك الكلام كله دون جدوى . وعجيب أمر هذه الدنيا ، إذا أقبلت على أحد خلعت عليه محاسن غيره فإذا أعرضت عنه سلبته محاسن نفسه !!

وعاد أخى إلى القاهرة والحزن يعتصره فقد عاد بخفىّ حنين وباتت الأسرة حزينة كئيبة كاسفة البال . فبعنا بعض ما تبقى من الأثاث ، ولم نجد بدأ من أن نبيع البيت الذى ورثناه عن أبينا وعرضناه للبيع ، وكانت المأساة بل الملهاة فى موقف الناس منا : إذا عُرض ثمن مشرف همس أهل الشر فى آذان المشترين بأنه لا يُساوى هذا الثمن حتى بعناه بيع المضطر بثمن بخس دراهم معدودة . وتلك طبيعة الناس إذا فقدوا المروءة والوفاء :

يمشى الفقير وكل شىء ضده   والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه ممقوتا وليس بمذنب   ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت رجل الغنى   حنّت إليه وحركت أذنابها
وإذا رأت يوما فقيرا ماشيا   نبحت عليه وكشرت أنيابها

وهكذا حكموا على الأشياء حكما باطلا ، فكل حسنة للفقير اعتبروها سيئة ، وكل سيئة للغنى اعتبروها حسنة ، فالفقير إذا كان فصيح اللسان قالوا : إنه ثرثار كثير الكلام ، وإذا كان كريما قالوا : إنه مسرف متلاف ، وإذا كان شجاعا فى الحق قالوا : إنه متهور سفيه والغنى إذا كان عيّى اللسان قالوا : إنه عاقل رزين ، وإذا كان بخيلاً وإذا كان جباناً . قالوا : إنه حكيم راجح العقل .

إن الغنى وإن تكلم بالخطأ   قالوا أصبت وصدقوا ما قالا
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم   أخطأت ياهذا وقلت ضلالا
إن الدراهم فى المجالس كلها   تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة   وهى السلاح لمن أراد قتالا

وما أجمل ما قاله أحد الحكماء :

رأيت الناس قد مالوا   إلى من عنده مال
ومن لا عنده مال   فعنه الناس قد مالوا
رأيت الناس قد ذهبوا   إلى من عنده ذهب
ومن لا عنده ذهب   فعنه الناس قد ذهبوا

رأيت الناس منفضة   إلى من عنده فضة
ومن لا عنده فضة   فعنه الناس منفضة

لم يكن تحت أيدينا سوى ثمن هذا البيت الذى مثّل الجولة الأخيرة فى حياتنا المادية ، وكنا حريصين على ثمنه لا ننفق منه إلا فى حدود **الضرورة** حرص السجين على طعامه . وقد صدق الصادق المعصوم حيث يقول : **« لن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء »** . وحيث يقول : **« ليس منا من بات شبعان وجاره جائع ، وهو يعلم »** .

وإذا تحول المجتمع إلى قوم يستحلبون الصخر ، وقوم تتمرغ النعمة فى أعتابهم ويشتهون إلا أن يدوسوها بأقدامهم ، تهب عليهم النسمات معطرة بالأريج . وغيرهم يلفحهم قيظ الهواجر من فيح جهنم . يوم يصير المجتمع هكذا فقد حقّ فيه قول الله تعالى : **﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة . فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾** . وحق قوله جلّ شأنه : **﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾** . وقوله جلّ جلاله : **﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾** .

على أبواب الامتحان

ذكرت فيما سبق أن هذا العام الدراسى كان عاما استثنائيا .. الرسوب فيه يؤدى إلى فصلى من المعهد . وكان عاما مليئا بالمشاكل مفعما بالأحداث الأليمة . وقد فاتنى شطره ، لكنى بيقينى فى الله وثقتى به قد عزمت على أن أخوض غمار هذه الشدائد حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . وجرت عادة الطلاب أن ينصرفوا قبل الامتحان بشهرين . يتفرغون فيهما استعدادا لدخول الامتحان ، وهنا لاحت أمامى أسئلة وعلامات استفهام كان لها وقع السهام على نفسى : من الذى سيذاكر لى هذه العلوم التى فاتتنى ؟ وإذا لم أجد من يذاكر لى فبأى شىء أدخل الامتحان ؟. وكنت أحمل ذاكرتى أكثر مما تحتمل إذ كنت أحرص على أن أظل ذاكرا ما يلقيه علىّ الأساتذة فى قاعات الدرس حتى لا أنساه فأحتاج إلى من يقرؤه لى . ورأيت من الحكمة أن أتفق مع أحد الطلبة لنذاكر سويا ، والاتفاق مع أحد الطلبة يمثل مشكلة يعانيها المكفوفون فليس ذلك بالأمر السهل إذ أن الذين يعملون الخير ابتغاء مرضاة الله قليلون . فما الذى يدفع البصير إلى أن يذاكر للكفيف إلا أن تكون المنفعة المتبادلة بينهما . فالكفيف ؛ وقد عوضه الله عن نور البصر ذكاء القلب ، حريص غالبا على حضور الدراسة ، مواظب على السماع من شفاه المدرسين . وتلك جوانب قد تفوت الطالب المبصر ، فيجد فى مذاكرته مع الكفيف ما فاته . مهما يكن من شىء فقد اتفقت مع أحد الطلبة على المذاكرة معا وتفقنا على ذلك وظننت أننى قد اجتزت هذه العقبة وما أدراك ما العقبة ؟ لقد ظلّ على

عهده معى بخمسة أيام بعدها افتقدته فلم أجده . وكنت لا أعرف عنوانا فقد كان يأتينى لنذهب سويا إلى أحد المساجد إذ كان ضيق المسكن لا يسمح لنا بالمذاكرة فيه . وبارك الله فى بيته ، فقد كانت وما زالت وستظل مهابط الرحمة ومنازل السكينة ومساكن الملائكة . فى رحابها تعقد مجالس العلم والذكر فتغشاهم الرحمة وتحفهم الملائكة وتنزل عليهم السكينة ويذكرهم الله فيمن عنده ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ .

مفاجـأة !!

فوجئت بعد خمسة أيام من مذاكرتى مع هذا الصديق بانقطاعه وقلت : لعله أمر عارض يعود بعده فنواصل ما بدأناه ، فإن الأمر جد وما هو بالهزل . ولكن مرت الأيام . واقتربت ساعة الامتحان دون أن يذاكر لى أحد ، ولم يعد ذلك الرفيق إلا أننى فوجئت منه برسالة يقول فيها : لقد سافرت إلى أهلى لأذاكر هناك ، وجاءت الرسالة متأخرة مما يدل على أن هناك ناسا لا يحترمون شعور الآخرين ولا يحسون بإحساساتهم ولا يقيمون للمسئولية وزنا. هؤلاء ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . وأخذت حلقات السلسلة تضيق وكأنى بقول أحد الحكماء :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادى فى غشاء من نبالى
فكنت إذا أصابتنى سهام ... تكسرت النصال على النصال

وقول آخر :

هامت على نفسى الهموم كأنها ... وكأنهن قريبة وصقور
ياليل أين النور إنى تائه ... هل تنقضى أم ليس بعدك نور

إن الفرج مع الضيق !!

صدقت ياربنا فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا . نعم لن يغلب عسر يسرين وبيان ذلك أن اليسر جاء فى الآية منكراً والنكرة إذا أعيدت نكرة كانت غير الأولى والعسر جاء معرفا بأل والمعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأولى . فلن يغلب عسر يسرين .

رأيتنى أمام باب اللجنة ، وكان الامتحان للمكفوفين شفويا وكان فى الغرفة لجنتان : إحداهما تشدد فى الامتحان وتطوى رقاب الممتحنين « بفتح الحاء » كما يطوى البرق مُعْصِرات الغمام والأخرى سهلة ميسورة . فكأن الطلبة يتحينون الفرصة التى تمكنهم من الامتحان أمام اللجنة التى ترفق بهم وفوجئت بمن يأخذ بيدى فيجلسنى أمام اللجنة المتشددة. وحاول أخى أن يخلصنى من يد هذا الذى أخذنى حتى يذهب بى إلى اللجنة الأخرى . ولكن دون جدوى .

مرت أمامى أشباح رهيبة قبل أن أجلس أمام اللجنة فقد فوجئت بهذا الطالب الذى غدر بالعهد وتركنى ، فوجئت به يقول لى على باب اللجنة : إن رسبت فسوف أقوم بالمذاكرة لك حتى لو نجحت أنا وسبقتك . وأنا من الذين يتفاءلون بالكلمة الطيبة ولا أحب أن أسمع الكلمة التى تجرح المشاعر ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى إلا بقول : « **إن الله معى** » وقلت له : إن وليىَّ الله الذى نزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين .

كما مرَّ بى شبح رهيب وأنا على وشك أن أتلقى سهام الأسئلة من اللجنة . قلت فى نفسى : لو لم أُوَفق فى الامتحان أمام لجنة شديدة المراس فماذا يكون المصير ؟ وكيف يكون الحال أمام متاعب الأيام ومصاعبها ؟. ولكن سرعان ما زال هذا الشبح أمام قول رسول الله ﷺ « **لا يقولنَّ أحدكم لو كان كذا لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان** » .

أمام اللجنة

ياصاحب الهم إن الهم منفرج ... أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه ... لا تيأسنَّ فإن الكافى الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة ... لا تجزعنَّ فإن الصانع الله
إذا بليت فثق بالله وارض به ... إن الذى يكشف البلوى هو الله
وَاللهِ مالك غير الله من أحد ... فحسبك الله فى كل لك الله

جرت على لسانى آيات ودعوات قبل أن أتلقى سهام الأسئلة من لجنة سبقتها سمعتها فى التشديد والصعوبة كنت أردد قوله تعالى : ﴿ **وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مُخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا** ﴾ . وقوله جلَّ شأنه : ﴿ **رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى** ﴾ . كما ردَّدت هذا الدعاء المأثور : « **ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث** » .

وجلست أمام اللجنة ورأيتني وأنا جالس على مفترق الطرق فإما نجاح يفتح الباب أمام مستقبل زاهر ترتوى فيه النفس بماء المعارف وإما إخفاق يؤدى إلى سلسلة متصلة الحلقات من الشدائد لا يعلم إلا الله وحده مداها . وبينما تتقاذفني تلك الأمواج العاصفة إذ تنبهت على صوت أحد العضوين سألني عن اسمي . وقلت في نفسي إن هذا الصوت ليس غريبا عليّ . ورجعت القهقرى ثلاث سنوات وعلمت أنه صوت الأستاذ الفاضل الشيخ « أحمد الكومي » وهو رجل معروف بالعلم فهو ذو قدم راسخة فيه . ولن أكون مبالغا إذا ما قلت : إنه رجل يتفجر العلم من جوانبه . وكان قد سبق أن تتلمذت عليه في القسم الابتدائي بمعهد الإسكندرية ، وجلست أمامه في لجان الامتحان ، وبحق كان صوته وهو الرجل الكفيف ، بمثابة الأمل الذي أضاء في ليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم . سألني الشيخ بصوت مليء بالرحمة : بأي العلوم تحب أن نبدأ الامتحان ؟ . وفهمت من هذا السؤال أنه يريد أن أختار علما أكون متمكنا فيه ليبعث في نفسي رباطة الجأش وفي قلبي برد اليقين . وطلبت أن نبدأ بعلم النحو لأنني والحمد لله أحبه . بل هو يمثل في نفسي متعة عقلية فقد تتلمذت فيه على يد عالم فاضل جعلت منه قدوة طيبة لي هو الشيخ محمد مصطفى جاد ، عليه سحائب الرحمة فقد كان شابا عالما أنار الله قلبه بمعرفته ، وانعكس ذلك النور من قلبه على وجهه ، فكنت تعرف في وجهه نضرة النعيم نعيم التقوى .

ليس الجمال بأثواب تزيننا إن الجمال جمال العلم والأدب

كان الرجل يؤدى عمله كرسالة بعيدا عن قيود الوظيفة . فكان العام الدراسي إذا أوشك أن ينقضي دعانا إلى الحضور ليلا لنتلقى على يديه من الدروس الإضافية ما شاء الله أن نتلقى حتى يكمل لنا المنهج وننصرف بعد الكمال والتمام . هذا رجل والرجال قليل . وهذا القليل فيه الخير والنفع العظيم .

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وديننا صحيح ودين الآخرين عليل

زارني محمد ابن الشيخ محمد مصطفى جاد وكان طالبا في كلية أصول الدين ، زارني بجامع المنشية وأنا إمام المسجد . وبعد أن عرفني بنفسه أخبرني أن والده قد توفي . وقد أوصاه أن يعود إليّ فيما اختلفوا في مسألة من المسائل أن يرجع إليّ في الخلاف وسألته أن يحدثني عن شيء من حياة أبيه فإني أحب الصالحين وأعلم أنه إذا ذكر الصالحون نزلت الرحمة . فقص عليّ منتشيا مهيبا : كان أبوه رحمه الله إذا فرغ من أداء واجبه ومن إلقاء الدروس بالمعهد انصرف لخدمة مسجد مجاور لبيته يقوم فيه بالإمامة وقراءة درس في التفسير والحديث والفقه . فإذا ما انصرف المصلون بعد صلاة العشاء قام بتنظيف المسجد بما في ذلك دورة

المياه . وذات يوم وقف على سلم متنقل فسقط من فوق درجة وانكسرت ذراعه اليمنى . ووُضع في الجبس وبات راضيا عن قضاء الله وقدره . فقضاء الله لا يقابل بغير التسليم وليس له عدة سوى الصبر الجميل . ولكنه وهو الراضي عن قضاء الله كان حزينا على كسر ذراعه حيث لن يتمكن من القيام بواجبه في تنظيف المسجد . ولكنه وهو الراضي الحزين ما أن غزا الكرى عينيه حتى رأى في المنام رسول الله ﷺ ورؤياه حق فقد أخبر : « **من رآني في المنام فقد رآني حقا . فإن الشيطان لا يتمثل بي** » . لقد مدّ الرسول يده إليه مصافحا وشدّ على ذراعه المكسور فقام من نومه وقد شفاه الله وعافاه . عكست شخصية هذا العالم انطباعا جيّاشا من حب العلم والاغتراف من حياضه مما جعلني أعتز به وبعلمه . فكان علم العربية حبيبا إلى نفسي .

مع الشيخ أحمد الكومي

بدأنا بعلم النحو والرجل لا يريد أن يعرفني بنفسه وكأنه لا يعرفني ولا أعرفه حتى لا يشعر العضو الآخر بذلك فيشدد عليّ في أسئلته وأنا أعلم أن الشيخ الكومي رجل لمّاح الذكاء . وفي الإشارة ما يغني عن العبارة ، وفي التلميح ما يغني عن التصريح . ودخلت في نقاش عنيف مع العضو الآخر في مسألة من مسائل النحو تقول : كل ما جاز أن يُعرب عطف بيان جاز أن يعرب بدلا إلا في مسألتين وتدخل الشيخ الكومي وهو يعلم أنني كنت على حق . تدخل بصوت خفيض وخاطبني بقوله : إن فضيلة الأستاذ يريد أن يحصر بمسألة طال فيها الخلاف بين النحاة ، فكن على بينة من ذلك . وعلمت أنه يريد أن ينهي هذا الجدال . ثم انتقلنا إلى المواد الأخرى وقلبناها على بساط البحث والأسئلة . وجاء موضوع الإنشاء وكنا على وشك الانتهاء من الامتحان فأراد الشيخ أن يعطيني إشارة أستدل بها على أنه يذكرني جيدا ويعرفني فقال لي : صف لنا ذلك المنظر البديع عندما تشرق الشمس فتبدد غياهب الظلمات وينطلق الناس سعيا وراء لقمة العيش والأمل يملأ نفوسهم وقد بدد غياهب اليأس فقال العضو الآخر وكان شيخا ضريرا : إن هذا الموضوع يحتاج إلى إنسان مبصر وهذا الطالب كفيف . فقال له الشيخ : لقد كان مبصرا وكُف بصره بعد سبعة عشر عاما ، وأنا أعلم عن حياته الكثير وتحدثت في موضوع الإنشاء ما شاء الله لي أن أتحدث ، وكان مسك الختام في الامتحان القرآن الكريم . وأراد الشيخ أن يعلمني بنتيجة الامتحان وذلك بسؤالي في القرآن الكريم بالآيات المبشرة . أراد أن يسلط أضواء الأمل على قلبي فقال لي : اقرأ من سورة الزمر : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾ . وختم الأسئلة في القرآن الكريم بسورة الضحى ووقف

لى عند قوله تعالى : ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ . وانصرفت وقلبى يلهج بالرضا ولسانى يردد الحمد لله . فقد كنت أشعره بنعمة لا تعادلها نعمة وهى أن الله تعالى سيجعلنى من حماة الإسلام وحراس العقيدة ..

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها .

وإذا رميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربك إنـــه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقرب

سبحانه وتعالى عزُّ كل ذليل وغنى، كل فقير وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف . من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه .

لا تضيقن بالأمور فقــد تكشف غماؤها بدون احتيال
ربما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقـــال

سبحانه لا ينقصه نائل ، ولا يشغله سائل واحد لا عدد ، قائم بلا عمد ، دائم بلا أمد :

دع المقادير تجرى فى أعنتها ولا تبيتن إلا خالى البـــال
ما بين طرفة عين وانتباهتهـــا يغير الله من حال إلى حـــال

البحث عن صديق

استقبلت العطلة الصيفية ولم يكن لى صديق أو رفيق فى وحدتى إلا كتاب الله أتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، فهو كما يقول الإمام الشاطبى

وخير جليس لا يُمل حديثه وترداده يزداد فيه تجملا
وحيث الفتى يرتاع فى ظلماته من القبر يلقاه سنا متهللا

فمن أراد مؤنسا فالله يكفيه ، ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه ومن أراد واعظا فالموت يكفيه ومن لم يكفه شىء من هذا فإن النار تكفيه .

ظهرت النتيجة وجاءنى شقيقى عبدالستار يحمل كشف الدرجات فرحا مسرورا فقد كانت النهايات الكبرى فى العلوم تزين الكشف كما تزين النجوم سماءها . وحمدت الله تعالى فقد كان الكشف بالنسبة إلىَّ ضوءا أخضر ينير لى الطريق ويضع معالمه على الجانبين مبشراً بمستقبل طيب كريم . لكن كان يعكر علىَّ صفوى ما سأعانيه من عدم وجود رفيق يلازمنى فى غدوى ورواحى إلى المعهد ، ويقرأ لى الدروس حتى تسير سفينة الحياة فى جو معتدل ، فكان لابد من البحث عن صديق وفىّ يصدق الوعد أقيم معه فى مسكن قريب من المعهد .

العام الجـــديد

انقضت العطلة الصيفية وأقبل العام الجديد وتحركت مواكب الأيام وكما قال القائل :

غدا سيصبح أمسى لا يعارضنى فى ذاك حىٌّ وأمسى لن يصير غدى

فأيامنا خمسة : يوم مفقود ، ويوم مورود ، ويوم مشهود ، ويوم موعود ، ويوم ممدود ، أما اليوم المفقود : فهو الذى مضى ولن يعود ، وأما اليوم المورود : فهو اليوم الذى يناديك فجره : ياابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فاغتنم منى فإنى لا أعود إلى يوم القيامة . وأما اليوم المشهود : فهو اليوم الذى لا يعلم ما فيه إلا علّام الغيوب فهو فى خمسة أمور من الغيب لا يعلمهن إلا الله .

رأى الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه ملك الموت فى المنام فسأله : كم بقى من عمرى فأشار له الملك بأصابعه الخمس فقال له الإمام : أخمس سنوات أم شهور أم أيام ؟ ولكن الإمام استيقظ قبل أن يجيبه الملك فذهب إلى من يعبر له الرؤيا فقال له يا إمام : ما أراد الملك بها سنوات ولا شهورا ولا أياما إنما أراد أن يقول لك : إن سؤالك هذا فى خمسة أمور من الغيب لا يعلمهن إلا الله . ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير** ﴾ .

واليوم الموعود : هو اليوم الذى يتم اللقاء فيه بين الروح وخالقها :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثـــوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرهـــا فالذكر للإنسان عمر ثان
واصبر على نعم الحياة وبؤسها نُعمى الحياة وبؤسها سياق

اليوم الممدود : هو اليوم الذى لا يوم بعده ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ ﴿ **يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء. لمن الملك اليوم. لله الواحد**

القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت . لا ظلم اليوم . إن الله سريع الحساب ﴾

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت	**أن السلامة فيها ترك ما فيها**
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها	**إلا التي كان قبل الموت يبنيها**
فإن بناها بخير طاب مسكنه	**وإن بناها بشر خاب بانيها**
أين الملوك التي كانت مسلطنة	**حتى سقاها بكأس الموت ساقيها**
أموالنا لذوي الميراث نجمعها	**ودورنا لخراب الدهر نبنيها**

هل من صديق ؟!

بذلت الجهد الجهيد بحثا عن صديق نعيش سويا سعيا وراء طلب العلم ، ورزقني الله إنسانا قضيت معه أربع سنوات حتى حصلت على الشهادة الثانوية الأزهرية وكانت المرحلة الثانوية يومها خمس سنوات . كان هذا الصديق هو الأخ محمد الصوخي . والحق أنه كان معي وفيّاً وبي حَفِيّاً . فقد استأجرنا غرفة في أحد الأحياء القريبة من الأزهر في بيت أكل الزمان عليه وشرب وأناخ عليه الدهر بكلكله فقد كان عريقا في القدم قد كاد يهدمه النسيم ، وكادت تذروه الأعاصير . وتراه من فرط الهزال تكاد تقلبه المواطر .

كان هذا الطالب قد مات أبوه في صغره وكفله جده لأبيه وكما يقولون « **وهَبَهُ للعلم** » وذات يوم زاره جده في تلك الغرفة التي كنا نقيم بها وسأله عني فقال له : إنه طالب أهل علم وأدب ، فسُرَّ الرجل إذ وجد من يلزم حفيده في طلب العلم فأوصاه بي خيرا . كما أوصاه أن يأتي بي معه عند انتهاء العام الدراسي قبل الامتحان لنستذكر معه . ووقعت هذه الكلمة من نفسي موقع الماء البارد في فم الظمآن ، فوجدت مكانا خاليا في القلب فتمكنت منه فضل تمكن . فقد كان في نفسي فراغ رهيب يحتاج إلى من يضع البسمات الصادقة، وذلك من حيث من يقوم معي باستذكار العلوم .

كثيرا ما كنت أعاني من فقد الصديق الصَّدُوق .

فما كل من تهواه يهواك قلبه	ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفوُ الوداد طبيعةً	فلا خير في ود يجيء تكلفا
ولا خير في خل يخون خليله	ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشا قد تقادم عهده	ويظهر سرا كان بالأمس في خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها	صديق وفي يصدق الوعد منصفا

أوشك العام الدراسي أن ينقضي ، وقد أخذ الطلاب ينصرفون إلى بلادهم ليذاكروا الدروس استعدادا لدخول الامتحان . وكنت في العام الماضي أعاني من هذه الأيام التي ينصرف فيها الطلاب فرحين مقبلين على الجد وتحصيل الدروس ، وأنا الحزين الذي أبحث عن صديق يلازمني في القراءة فلا أجد . لكني والحمد لله كما قال تعالى : ﴿ **فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا** ﴾ . لقد علمت أن هذا الأخ سيصحبني إلى بلده لنذاكر سويا ومن ثَمّ فإنني سأدخل الامتحان وقد اتخذت له عدته فيصير خوفي أمنا وقلقي طمأنينة ﴿ **إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا** ﴾ . وأنا من الذين يتحملون شظف العيش وقسوة الحياة في سبيل العلم . فمن أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم . ومن أراد هما معا فعليه بالعلم .

العلم فيه حياة للنفوس كما	**تحيا البلاد إذا ما مسها المطرُ**
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه	**كما يجلو سواد الظلمة القمرُ**

والعلماء ورثة الأنبياء . في سبيل هذه المبادىء هانت عليَّ شدائد الأيام . لم يكن سفري إلى بلد صديقي أمرا هَيِّنا على نفسي . ذلك والحق يقال أنني شديد الحساسية في منامي ويقظتي ومأكلي ومشربي وملبسي . فليس كل مأكل أقبل عليه متأدبا في ذلك بالحديث الشريف : « **ما عاب رسول الله ﷺ طعاما قط إن استشهاه أكله وإن كرهه تركه** » وفي منامي أحب الهدوء ويؤلمني الصخب . وفي ملبسي أحب النظافة ، والبساطة لا أطيق عرقة إذ أشعر عندها باختناق . أحب الماء لأنه يعطيني دفعة قوية . وقد صدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان** ﴾ أحبه وضوءاً واغتسالاً ، وأحبه شراباً بارداً وأحب سماعه خريراً متدفقاً . وقد جلّ جلاله الله إذ جعل من نعيم الجنة أنهاراً تنوعت حسناً وجمالاً ﴿ **مثل الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى** ﴾ .

فهل سأجد هناك حيث الإقامة التي ستستمر خمسة وأربعين يوما، هل سأجد هناك ما أنشده من هذه المطالب وتستريح له نفسي ؟ لكن كل هذه التساؤلات قد زالت في سبيل الهدف الأعلى .

﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾

ومن تكن العلياء همة نفسه	**فكل الذي يلقاه فيها محبب**
إذا أنا لم أعط المكارم حقها	**فلا عزني خال ولا ضمني أب**

وقال آخر :

وإذا كانت النفوس كبارا ۰ تعبت فى مرادها الأجسام

وقال ثالث :

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

وقال رابع :

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر

حقيقة أن الله تعالى يعوض عن نور البصر ذكاء القلب . ولما كُف بصر الإمام عبدالله بن عباس قال :

إن أذهب الله من عينى نورهما ففى فؤادى وعقل منهما نور
عقل ذكى وقلبى ماحوى دخلا وفى فمى صارم كالسيف مشهور

سافرنا إلى بلدة صديقى وكانت إحدى قرى محافظة القليوبية . وتمتاز قرى القليوبية بحدائقها الغنَّاء وأزهارها الفواحة الأريج وهوائها العليل . وكانت القرية التى يقيم بها صديقى تسمى « كفر الجمال » وتشتهر بزراعة الذهب الأصفر « حدائق البرتقال » ، فكنا نخرج فى نسيم الفجر إلى تلك الحدائق ونفتح كتب العلم ونقرأ ماشاء الله لنا أن نقرأ . وقد أذن لنا أن نأكل من تلك الثمار بين آونة وأخرى .

وبين الأشجار قد نبتت خضروات نسميها نحن « بالسريس والجعضيض » فحولت الأرض إلى بساط سندسى أخضر . أمامنا جداول الماء تنساب برقراقة وحولنا الهواء نظيفا نقيا غنيا بالأوكسيجين . خرير الماء وحفيف الأشجار وتغريد الأطيار وأطايب الثمار وجنى الجنان : كل هذه نعم أنعم الله بها علينا لا نستطيع أن نقوم لله بشكرها فالحمد لله على كل حال حمدا يوافى نعمه ويكافىء مزيده .

وكان لهذا الصديق عم كريم الخلق ، عندما انصرفنا إلى القاهرة لأداء الامتحان رأى الرجل أن يقدم لى هدية ، فعبر عن ذوق رفيع فقد كانت هديته قطعة من القماش أعطاها لخياط القرية فصارت ثوبا جميلا خفيفا فى حر الصيف ساعد مع ثوبى الذى كان يشكو ألم الوحدة كما أعطانى جنيها جديدا وكان الجنيه يومها ذا قيمة . كما كان لهذا الصديق جدة لأبيه . كانت سيدة صالحة . كان لسانها دائما رطبا من ذكر الله . عندما علمت بسفرى زودتنى بخيرات تشتهر بها القرية المصرية من خبز وزبد وجبن . وما من شك فى أن المعنى الكبير الذى اشتمل عليه ذلك الموقف كان بمثابة الدواء لداء طالما استعصى علاجه؛ إنه يحمل معنى الوفاء

والمروءة . فالماديات فى ذاتها لا تحتل حيزا كبيرا فى [illegible] ما تحمله من قيم ومثل ، قال ﷺ : « صاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكئا » وقال : « البر لا يبلى والذنب لا يُنسى والديَّان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان » وقال : « اصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله . فإن صادف أهله فهو أهله وإن لم يصادف أهله فأنت أهله » .

ازرع جميلا ولو فى غير موضعه فلن يضيع جميل أينما زُرعا
إن الجميل وإن طال الزمان به فليس يحصده إلا الذى زرعا

روى أن رجلا من بنى إسرائيل كان يتناول الطعام مع زوجته وكان أمامهما دجاجتان فطرق الباب مسكين فنهره الرجل وردَّه ردًّا غير جميل واستاءت زوجته لهذا التصرف السيىء ودارت الأيام دورتها وافتقر الرجل وطلق زوجته وتحرك الفلك ومضت الأيام وتزوجت تلك المرأة بغيره . وفى ذات يوم كانت تتناول الطعام مع زوجها وكان أمامهما دجاجتان وطرق الباب مسكين فأمرها أن تعطيه إحدى الدجاجتين ففعلت ولكنها عادت باكية فسألها أتبكين من أجل دجاجة تصدقنا بها ؟ قالت له لا . قال : فما يبكيك إذن ؟ قالت له : أتدرى من السائل ؟! أنه زوجى الأول !! قال لها : اتدرين من انا ؟!! وانا السائل الأول !!

﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ . (يابن آدم أنفق أنفق عليك) . (الأغنياء كلائى والفقراء عيالى . فإذا بخل وكلائى على عيالى أخذتهم ولا أبالى) . ومن أراد الله فليلتمسه فى الفقراء ، والأكباد الجائعة أولى بالصدقات من بيت الله الحرام .

لا تهن الفقير علك أن تركع يوما والله قدر رفعه

قال حكيم :

إذا جاءت الدنيا عليك فجد بها على الناس واعلم أنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هى أقبلت ولا البخل يبقيها إذا هى تذهب

وقال آخر :

هى الأيام لا تبقى عزيزا وساعات السرور بها قليلة
إذا نشر الضياء عليك نجم وأشرق فارتقب يوما أفوله

بحمد الله تعالى وبتوفيق منه جلَّ شأنه اجتزت الامتحان وكان ترتيبى فيه الأول . وكانوا يصرفون للأول مكافأة سنوية قدرها خمسة جنيهات ، وكنا نلاقى الأمرين فى صرفها والتسويف فيها ، وكان الموظف البائس إذا صرفها لابد أن يحيطها بكلمات مسمومة مثل : لماذا لم يكن على أيامنا مثل هذه المكافآت ؟ وماذا بذلتم من المتاعب حتى تستحقونها ؟ وكنا نلتمس له الأعذار فكلنا فى الهم شرق . إنه الآخر قد عضَّه الدهر بنابه وأناخ عليه بكلكله ،

حتى صار ممن تجوز عليهم الصدقة ، بل هو أولى بها من قوم احترفوا المسألة . أما هذا وضرباؤه فممن يقول الله تعالى فى شأنهم : ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا . وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم** ﴾ :

وجاءت السنة الثالثة

نجحت أنا وصديقى ولله مزيد الحمد والمنة . وقد كان نجاحه نجاحا لى . وتفاءل أهله بمرافقته لى . وليس ثمة أدنى شك فى أن الصاحب الطيب والجار الطيب والمرافق الطيب من النعم الكبرى التى ينعم الله بها على عباده . قال ﷺ : « **لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقى** » وقال : « **خير الأصحاب من إذا ذكرت الله أعانك وإذا نسيت ذكرك . وشر الأصحاب من إذا ذكرت الله لا يعينك وإذا نسيت لا يذكرك** » . لذلك أوصانا مولانا تبارك اسمه بالإحسان إلى هؤلاء قال تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا** ﴾ .

كان الإمام الغزالى رضى الله عنه يقول : إذا أثنى على الرجل جيرانه فى الحضر ومرافقوه فى السفر ومعاملوه فى الأسواق فلا تشكوا فى دينه .

ومن سعادة المؤمن الزوجة الطيبة والجار الطيب والدار الوسيعة والدابة السريعة ..

نعم :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى

فى السنة الثالثة من القسم الثانوى حصل تحول فى حياتى فقد أشار علىّ أحد الأصدقاء وهو الأخ عبدالعزيز ندا ، وكان شابا مستقيم الخلق ، هادىء الطباع . أشار علىّ أن نلتحق سويا بالجمعية الشرعية لنقوم بخطبة الجمعة فى مساجدها ووجدت هذه الفكرة صدى فى نفسى وسألت : هل لذلك من شروط ؟ وكانت الإجابة من أحد العاملين بها أن الشروط سهلة منها : حفظ القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية والقدرة على الخطابة . واصطحبنى الأخ عبدالعزيز بعد ما كتب كل منا طلب الالتحاق . وذهبنا إلى مقر الجمعية الرئيسية بحى المغربلين . ذهبنا وكانت السماء تمطر . وعند نزول الغيث يستجاب الدعاء . قال جلّ شأنه : ﴿ **وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد** ﴾ . كما يستجاب الدعاء عند إقامة الصلاة ورؤية الكعبة - شرفها الله - وعند التحام الصفوف

أى : وقت القتال فى سبيل الله .. وقبلت طلبات الالتحاق وحُدد لنا موعدٌ للاختبار وذهبنا لأداء الاختبار وكانت اللجنة مكونة من عضوين من علماء الجمعية وهما العالمان الجليلان : فضيلة الشيخ على حسن حلوة وفضيلة الشيخ أحمد عيسى عاشور . وسألنى الشيخ : هل سبق لك أن خطبت الجمعة ؟ قلت : نعم فى مساجد بلدتى . قال : كم كان سنك يومها ؟ قلت : ستة عشر عاما . قال : تصور نفسك على المنبر وقد اجتمع المسلمون لصلاة الجمعة وقمت فيهم خطيبا . فماذا عساك أن تقول؟ فحمدت الله وأثنيت عليه، ونطقت بالشهادتين، فانطلقت فى الحديث وقد فتح الله علىّ مغاليق المعانى وكان موضوع الخطبة الى مازلت معتزاً بها : « دعوة المسلمين إلى وحدة الصف والهدف والأخوة فى الله » انطلاقا من قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** ﴾ أما عن الأخوة فى الله فكانت انطلاقا من قوله جلّ شأنه :

﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ .

وانطلاقا من قوله صلى الله عليه وسلم : « **مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر** » . وقوله ﷺ « **المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى** » .

فى مساجد الجمعية الشرعية

مازلت أذكر وأنا ألقى خطبة الاختبار أمام العالمين الجليلين؛ مازلت أذكرهما وهما يبكيان بقلب مفعم بالخشوع والخشية أثناء سماعهما للخطبة مما جعل الشيخ على حلوة مفتى الجمعية يأخذ بيدى إلى السكرتير ويقول له : اعطه أكبر المساجد ليقوم فيه بخطبة الجمعة . وكن مطمئنا . وكانت هذه الكلمة فاتحة خير، فقد ظللت ثمانى سنوات أتنقل فيها من مسجد إلى مسجد ومن حى إلى حى داخل القاهرة وخارجها من المحافظات . ولقد كان عملى بتلك المساجد بمثابة تمحيص . فقد عاشرت الناس وخبرتهم وشاركتهم أفراحهم وأتراحهم . وزرتهم فى بيوتهم وزارونى فى بيتى . وكانت أعظم ثمرة من ثمار العمل بالمساجد - وما أكثرها - الأخوة فى الله ، فقد التفّ حولى مجموعة من الشباب المسلم آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا . كانت هذه المعرفة من أسمى أنواع المعارف لأنها فى الله وفى أشرف الأماكن ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون**

يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله . والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

إن رسالة المسجد هى الإسلام كله فيوم يصير المجتمع مسجديا والمسجد مجتمعا تُحل فيه المشاكل فى ظل الكتاب والسنة يومها سنخرج على الدنيا كالبحر الطهور الذى تنساب أمواجه تغسل وجه الأرض من أرجاسها وأنجاسها وأدناسها، يومها سنقول بملء الأفواه : سنطب المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائف فى رحابنا ، وسنتلو على الدنيا كتاب جهادنا . صمت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا . لقد كانوا قديما يفخرون بأن فلانا مسجدى إن تلقى علومه فى المسجد ، كما يفخر الناس فى عصرنا هذا بأن فلاناجامعى،ذلك لأن المساجد كانت حلقات دراسية لا تنقطع دروس العلم منها من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء . وقد ورد أن النبى ﷺ **دخل المسجد ذات يوم فوجد به حلقتين : وجد به قوما يذكرون الله وآخرين يقرءون العلم ويتدارسون كتاب الله فيما بينهم فجلس النبى ﷺ مع الذين يدرسون العلم فسألوه : أيهما خير يارسول الله ؟ فقال : هذا خير وهذا خير ولكنى بعثت معلما** . نعم

العلم كالغيث والأخلاق تربته — إن تفسد الأرض تذهب نعمة المطر
إبليس أعلم أهل الأرض قاطبة — والناس تلعنه فى البدو والحضر

إن المساجد منازل السكينة ومهابط الرحمة يعمرها المؤمنون الخاشعون الذين هم على صلواتهم يحافظون . انظر جلال الجُمَع وتأمل أثرها فى المجتمع . وكيف ساوت العلية بالزمع . وفى المساجد يتعارف الناس ، وبالتعارف يتبادلون التزاور فى الله ، طوبى لهم، أولئك مصابيح الهدى تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء . والناس فى مساجدهم والله فى حوائجهم . تُقضى حوائجهم لأنهم تآخوا فى ذات الله وفى أطهر الأماكن وأقدس الرحاب .

﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله . فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ وقال ﷺ : **« إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان »** وقال : **« بشر المشائين فى الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة »** .

﴿ يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه . نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم . يقولون ربنا أتمم لنا نورنا . واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾ .

قال ﷺ : **« المسجد بيت كل تقى »** وقال : **« إن للمساجد أوتادا جلساؤهم الملائكة »**

إخــوان كرام

إن أخاك الحق من كان معك — ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك — شتت فيك شمله ليجمعك

إن من أعظم النعم التى ينعم الله بها على عبده أن يرزقه إخوانا أصفياء القلوب . أنقياء السريرة . أنقياء الأفئدة . وهل الإيمان إلا الحب فى الله والبغض فى الله والشدائد مقياس الصداقة

جزى الله الشدائد كل خير — عرفت بها عدوى من صديقى

وهل قال رسول الله ﷺ : **« أبو بكر كالغيث أينما وقع نفع »** إلا لوفاء أبى بكر لله ولرسوله . لقد جاء بماله كله مما جعل المصطفى ﷺ يسأله : **ماذا تركت لأولادكم من بعدك يا أبا بكر ؟** على الفور ومن غير إعمال فكر أجاب أبو بكر بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : **« تركت لهم الله ورسوله »** فكان حريا أن ينزل الأمين جبريل على رسول الله ويقول له : **« السلام يقرئك السلام ويقول : أقرىء أبا بكر من ربه السلام وقل له : ربك راض عنك . فهل أنت راض عن الله ؟ قال أبو بكر يارسول الله كيف لا أرضى عن الله وأنا أبتغى رضاه ؟!»**

وخديجة .. ما خديجة ؟! وما أدراك ماهى ؟ حظها من الوفاء حظها ومكانتها من قلب الرسول مكانتها . كانت تأسو بحنانها جراحه وتريش بعطفها جناحه . فكانت جديرة أن يقرئها الله السلام من فوق سبع سماوات . لقد جاب سفير الأنبياء السماء وطوى بأجنحته السبع الطباق وهبط على الصادق المعصوم وقال له : **« أقرىء خديجة من ربها السلام »** .. فهما اثنان سلم الله عليهما من فوق سبع سماوات : نزل كبير أمناء وحى السماء بهذا السلام من رب العزة إلى أمين الأرض والسماء محمد خاتم الأنبياء . إذا ذكر الوفاء فهو خديجة . وإذا ذُكرت هى فهى الوفاء . أليست هى التى قالت للصادق المعصوم : « والله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث تحمل الكَلّ وتكسب المعدوم . وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر »؟!

لقد عرفت فى المساجد رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فكانوا معى أوفياء ، ولقد شعرت نفسى بدفء الأخوة وامتلأ قلبى بصفاء المودة ، فلقد كنت فى مسيس الحاجة إلى من

يأخذ بيدى ويقرأ لى ويملأ علىّ فراغى . فالنفس كالزجاجة إن لم يملأها شىء ملأها الهواء ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك :

دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثوانى
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها   فالذكر للإنسان عمر ثانى
واصبر على نعم الحياة وبؤسها   نعمى الحياة وبؤسها سيان

كان نظام الخطابة فى مساجد الجمعية الشرعية يقتضى التنقل فى كل أسبوع إلى مسجد مختلف مما أدى إلى كثرة التعرف على الإخوة . وكان فى ذلك خير كثير . قال تعالى : ﴿ **لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ . لقد كنت قبل الإلتحاق بالجمعية الشرعية أشكو ألم الفراغ . وقد قال ﷺ : « **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ** » فالفراغ نعمة إذا كان فى طاعة الله وابتغاء مرضاته وكذلك الصحة إذا استعملت فيما يرضى الله ورسوله . وقد يُغبن المرء ويضيع أجره عندما يصير فراغه لهوا ولعبا ، وتصير صحته اعتداء على الضعفاء . وقد صدق الإمام على – رضى الله عنه – إذ يقول : « **إذا غرتك قوتك على ظلم الناس فانظر إلى قدرة العزيز الجبار من فوقك** » . وجميل ما قاله الشاعر :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا   فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه   يدعو عليك وعين الله لم تنم

إن أغلى شىء فى هذه الحياة الأخوة فى الله . وهل الإيمان إلا الحب فى الله والبغض فى الله . قال الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه « **ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان** » ، وكل صداقة فى الدنيا تقوم على معصية الله عداوة يوم القيامة . وكل أخوة تقوم على الحب فى الله وابتغاء مرضاته أخوة كريمة يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ نعم إنهم على منابر من نور . إنهم ليسوا أنبياء ولا شهداء لكنهم يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانهم من الله تعالى . فوالله إنهم لعلى نور وإن وجوههم لنور . لا يخافون يوم يخاف الناس ولا يحزنون يوم يحزن الناس ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ .

دعوة مستجابة

لما أكرمنى الله بفقد البصر عوضنى عنه كثيرا من نعمه التى لا تعد ولا تحصى فلقد دعوت الله فى ساعة صفاء مع النفس وصدق مع القلب قلت « اللهم إن كنت استرجعت

منى موهبة البصر فاجعل أفئدة من الناس تهوى إلىّ » فكان فضل الله عظيما . فقد جعل أفئدة صالحة تهوى إلىّ ، تملأ علىّ فراغى وتشاركنى شدائد الأيام إذا صدمت ، وتداوى الجراح إذا التهبت . وحقّ ، ما قاله النبى ﷺ : « **فلينظر أحدكم من يخالل** » .

امتلأت العطلة الصيفية عملا ودرسا وتحصيلا . وإننى لا أنسى إحدى العطلات الصيفية التى قضيتها عاكفا على قراءة التفسير فى كتاب التفسير الواضح للمرحوم الشيخ حجازى . فقد كنت أقضى الليل كله حتى أصلى الفجر فى قراءة هذا الكتاب الذى امتاز باليسر والوضوح والبعد عن الغرائب ، فإن مما ينقص الدعاة إلى الله أنهم لا يقرءون تفسير القرآن كله ، مما يؤدى بهم إلى عدم الإلمام بمواطن الاستشهاد ومواقع الأدلة . أذكر أن الطالب الذى كان يقرأ معى التفسير سأل مدرس الدين فى المدرسة الثانوية عن معنى قوله تعالى : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه : فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ . قال الطالب لأستاذه : كيف يظن رسول من رسل الله أن الله لن يقدر عليه ؟! أليس هذا اتهاما بالعجز جلّ الله عن ذلك وتعالى علوا كبيرا ؟! قال الأستاذ فى الإجابة : ومن قال لك إن يونس كان رسولا ؟! وعلى الفور قال الطالب لأن الله تعالى قال : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين** ﴾ فسُقط فى يديه ولم يُحر الأستاذ جوابا ، فقال للطالب : هل سلطك أحد علىّ ؟ وانتهت المأساة !! إن المأساة التى نعيشها فى الأزهر أنه لا يعطى القدر الكبير من التفسير للطلبة ، فقد كنا ندرس نماذج من الآيات قد لا تتجاوز العشرين آية فى السنة الدراسية . ومازلت أذكر أن أحد الشيوخ فى كلية أصول الدين كان مقررا عليه أن يفسر لنا سورة المائدة ، فما فسَّر منها سوى آيتين من أولها ، وعندما بدأ فى تفسير الآية الثالثة – وهى قوله تعالى : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ماذكيتم ، وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق** ﴾ إلى آخر الآية ، ظل يتكلم عن الميتة حتى أوشك العام الدراسى أن ينصرم ، حتى قال له أحد الطلبة مداعبا : ياسيدى الشيخ أرجو أن تنتقل من تفسير الميتة إلى غيرها بسرعة ، قال الشيخ : ولم يافتى ؟ قال الطالب : لأننا لو ظللنا أكثر من ذلك فى تفسير الميتة لأكل الناس المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة لأنهم لم يعرفوها ولم يدركوا معناها . أما الجميع فإنه يعرف الميتة . فليست فى حاجة إلى مزيد بيان !!

إن قوله تعالى : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ سأل فيها أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان الإمام الجليل عبدالله بن عباس عليهم جميعا رضوان الله فقال : يابن عباس كنت أقرأ كتاب الله فعنتنى موجة فى بحر القرآن كادت تغرقنى ، قال ابن عباس : وما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ .

قال ابن عباس : هى من القدر « بفتح القاف وإسكان الدال » أى فظن أن لن نضيق عليه فلما ترك قومه مغاضبا كان جزاؤه أن التقمه الحوت وهو مكان ضيق « فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون » من ثمّ كان لزاما على الذين يضعون المناهج للأزهر أن يراعوا فى المقام الأول العناية البالغة بتفسير القرآن الكريم حتى يستطيع الدعاة أن يجدوا زاداً طيبا ورصيدا مباركا فالخير كله فى كتاب الله حفظا وتفسيرا .

أمنية تحققت !!

كنت أتمنى من الله أن يمنّ علىّ بالنجاح بنسبة مئة بالمائة فقد علمنا رسول الله ﷺ أن نسأل الله الفردوس الأعلى وأن الله يحب عبده الملحاح . وتحققت تلك الأمنية فى السنة الثالثة الثانوية فقد حصلت فيها بفضل من الله على تلك النسبة وانتقلت إلى السنة الرابعة .

وقد عودنا مولانا سبحانه وتعالى أن يهبنا النعم فنشكر ثم يختبرنا بالمحن لنصبر . وفى السنة الرابعة أصبت بمرض أدى إلى هزال شديد فى جسمى كاد يهزم العافية فى بدنى ، ووصف لى الطبيب الدواء ولكن لم أكن أملك يومها ثمنه ، والدهر مدرسة أساتذتها الأيام والليالى . كان لى صديق يحرص على حضور حلقات العلم . أعلم أنه ميسور الحال ، سألته أن يقرضنى جنيها ، على أن أقوم بسداده أول الشهر ، ولكنه بكل صراحة اعتذر ، وكان اعتذاره بمثابة سهم صُوّب إلى نفسى . وانصرفت كاسف البال . وإذا بى أسمع من ينادى علىّ . إنه أحد الذين يترددون على مجالس العلم بالمسجد : إنه الأخ عبدالقادر بائع الخضروات ، لقد ألقى علىّ السلام وصافحنى وسألنى على الفور : مالى أراك هكذا ؟ وكأنه قرأ ما بنفسى من أسى وأجبته عما أريده ، ودونما إعمال فكر أخرج حافظة نقوده وأقسم لآخذن ما يكفينى . كان ذلك الموقف على بساطته ذا دلالة ، فكم من صاحب يلقاك عناقا ويقسم أنه لا يطيق لك فراقا ، لكن حقيقته خلاف ذلك ، فقد يكون ملكا كريما فى مظهره ، شيطانا رجيما فى مخبره ، يلقاك بوجه أبى بكر وقلب أبى لهب .

﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ .

وما أجمل ما قاله الإمام الشافعى :

إذا المرء لا يلقاك إلا تكلفا ... فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففى الناس أبدال وفى الترك راحة ... وفى القلب صبر للحبيب ولو جفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه ... ولا كل من صافيته لك قد صفا

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة ... فلا خير فى ودٍ يجىء تكلفا
ولا خير فى خل يخون خليله ... ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشا قد تقادم عهده ... ويظهر سرا كان بالأمس فى خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها ... صديق وفى يصدق الوعد منصفا

عام حاسم

أقبل العام الدراسى الجديد ، وانتقلت إلى السنة الخامسة من القسم الثانوى بالأزهر ، وهو يمثل إتمام الدراسة الثانوية واستقبلته بقلب مفتوح ، وعقل يطلب المزيد من العلم ، ودعوت الله قائلا فى أول العام : « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى » ولقد تلقينا العلم فى هذا العام على أيدى أساتذة من أساطين الفكر والمعرفة ، كانوا جهابذة العلوم ، وعباقرة المعارف . وما زلت أذكر منهم الشيخ « مصطفى الحديدى » الذى كان يدرس لنا علم تفسير القرآن العظيم . الذى بدأ العام بتفسير قوله تعالى : **﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ﴾** وبدأ يطرح بعض الأسئلة التى كان لى نصيب كبير فى الإجابة عنها مما جعله يسألنى عن اسمى ، ومما أدى بعد ذلك إلى أن أقوم بإعادة الدرس بعد أن يلقيه . وكان بعد إلقائى للدرس يثنى علىَّ ثناءه الجميل الذى كان ينزل على قلبى كأنه هالات النور أو كنوز الدر المنثور ، ومازلت أذكر أستاذنا الفاضل « كامل شاهين » رحمه الله تعالى ، والذى كان يدرس لنا البلاغة والأدب ، ولقد تعرفت عليه عندما ألقى علينا درسا فى علم المعانى ، وفى باب الفصل والوصل ، وعندما طلب منا أن يقوم أحدنا فيلخص الدرس فأجمع الإخوة على أن أقوم أنا ، وكانت مفاجأة للأستاذ أن ينعقد هذا الإجماع على طالب ، ولكن زال العجب عندما ألقيت الدرس بتوفيق من الله مما جعله يسند إلىَّ أبوابا فى علم المعانى كنت ألقيها على الطلبة قبل أن يشرحها الأستاذ ، وكنت بعد إلقائها أترك له مقعد الأستاذية الذى كان يأبى إلا أن أجلس فيه ، تواضعا منه . وقد كان يخجلنى بهذا التواضع عندما يقول للطلبة مداعبا : أظنكم لستم فى حاجة إلى شرحى « وقد كانوا يجمعون على أنهم قد فهموا الدرس فهما جيدا . ولن أنسى فضيلة الشيخ « محمد يوسف » الذى كان يدرس لنا « النحو والصرف » دراسة جعلتنى أعشق علوم العربية وأعتز بها . فارحم اللهم مشايخنا ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين ، فقد أناروا لنا الطريق ، وسلكوا بنا مسالك المعرفة حتى صاروا جديرين بقوله ﷺ « العلماء ورثة الأنبياء » . وبقوله الكريم : **﴿ تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة وتواضعوا لمن تعلمون منه ﴾** .

قال الإمام الشافعى :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى   فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلـم نور   ونور الله لايهدى لعاصى

قال ﷺ عليه وسلم : « يؤتى بالعالم والعابد يوم القيامة فيقال للعابد ادخل الجنة ، ويُقال للعالم قف حتى تشفع فيمن أحسنت أدبهم » . وقال الصادق المعصوم : **« يشفع للناس ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء »** .

شدة أعقبها تيسير !!

لما أوشك العام الدراسى أن ينصرم ، وكنت مضطرا أن أبحث عمن يذاكر معى فى القاهرة ، وذلك لإلتزامى بأداء خطبة الجمعة فى مساجد القاهرة ، جاءنى طالب يسكن قريبا من مسكنى وسألنى هل ارتبطت مع أحد للمذاكرة ؟ قلت له : لا . قال : هل لديك مانع أن نذاكر معا فنحن متجاوران فى المسكن . قلت له : لا مانع . قلتها وأنا متخوف لأننى قد وضعته تحت التجربة يوما فلم يكن على مستوى المسئولية ، فقد قال لشقيقى ذات يوم سأصحب الشيخ ذهابا ومجيئا هذا اليوم ، فإن كان وراءك شىء فاقضه وصحبنى فى الذهاب إلى المعهد ، ولكنه فى العودة تركنى حتى انصرف الطلاب وظللت واقفا وحدى لا أتحرك خشية أن أصطدم بشىء ومرَّ وقت طويل وأنا واقف أمام باب المعهد ، وقد أمطرت السماء مطرا غزيرا . وسألت نفسى : أين المفر ؟ وساق الله إلىَّ أستاذا كريما كان يدرس لنا « علم العقائد » وسألنى برفق : ما أوقفك حتى الآن ؟ وأخبرته أن مرافقى لم يحضر ، وسألنى عن مسكنى ، وأصرَّ على أن يصحبنى حتى البيت ، جزاه الله خيرا فإن من مشى فى قضاء حاجة أخيه فكأنما اعتكف فى مسجد رسول الله ﷺ عشر سنوات ، واعتكاف يوم واحد فى مسجده الكريم يباعد الله به عن النار ثلاثة خنادق ، كل خندق أبعد مما بين السماء والأرض . هكذا كانت أخلاق علمائنا : أخذوا العلم مقرونا بالعمل فكانوا علماء عاملين ، وكانوا عابدين زاهدين ، وكانوا أوفياء مخلصين ، درسوا لنا العلم على أنه رسالة ، فأدوْا هذه الرسالة بعيدا عن قيود الوظيفة ، فكان خالصا لله . وقد تخلقوا بأخلاق الأنبياء عندما أعطوا الكثير ابتغاء ما عند الله من الخير الوفير . لقد صانوا العلم فصانهم الله ، وأعزوه فأعزهم الله ، وعملوا به فرفعهم الله .

لما عرض علىَّ ذلك الطالب أن يلازمنى فى المذاكرة ، تذكرت موقفه هذا عندما وعدنى بالحضور فأخلف ، ولم يكن له عذر فى ذلك الإخلاف فقد أخبرنى بعض من يعرفه بأنه كان جالسا على مقهى يلعب النرد وإن كان هو قد كذب علىَّ عندما قدم حجة واهية بأنه كان يشترى بعض الحاجات من الغورية . لكن ماذا أفعل وأنا كما يقول القائل :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا   فلا يسع المضطر إلا ركوبها

وكما يقول المتنبى :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدوا له ما من صداقته بد

اتفقت أنا وهو على أن نذاكر يوما بمسكننا فى دير الملاك ويوما فى مسكنه بمنشية الصدر . وبدأنا ننفذ الجدول الذى رسمناه ، فقال لى : إن لدى فكرة سأطرحها عليك . قلت خيرا إن شاء الله . قال : نقسم المواد قسمين : نبدأ القسم الأول بمذاكرة المواد التى تحتاج إلى شرح مثل : التفسير والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة . أما المواد التى تحتاج إلى قراءة فنؤخرها إلى حين الفراغ من تلك المواد ، وكان يقصد بهذه المواد الأخرى : الحديث والفقه والأدب والتاريخ وفهمت من عرضه هذا أن نبدأ بالمواد التى يحتاج فيها إلى شرح على أن يذاكر بعد ذلك المواد التى تحتاج إلى قراءته وحده وهذه المواد أحتاج إليها من حيث القراءة . لكننى غلبت حسن الظن بعد ما دعوت الله قائلا : « اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهتُ وجهى إليك وفوضت أمرى إليك » . وبدأنا فى مذاكرة المواد التى تحتاج إلى شرح . وفى الليلة التى فرغنا فيها من مذاكرتها وبينما هو يصحبنى من بيته إلى بيتى ، وعندما اقتربنا من البيت وبعد أن انقضى على مذاكرتنا شهر كامل ولم يبق على الامتحان سوى عشرين يوما . فاجأنى بقوله : « أحب أن أقول لك : أود أن أذاكر وحدى » . وحدث ما كنت أتوقعه ، لكن الذى زاد الجراح ألما أننى لما سألته : ولماذا قررت أن تذاكر وحدك أجاب بكل افتراء : لأننى لم أستفد من مذاكرتنا معا !! قلت وأنا المغيظ المحنق : وكيف طوعت لك نفسك أن تضيع شهرا والامتحان على الأبواب ؟ وكيف تقول هذا أو تدعيه وأنا الذى كلما ذاكرنا درسا سألتك فيه ، فتأتى إجابتك سديدة وصحيحة ؟! فلم يحر جوابا . وعلمت أنه لا جدوى فى الكلام . فقلت : حسبى الله ونعم الوكيل !! والحق أننى لم أكن نادما على ما حدث على الرغم أننى بذلت معه أقصى طاقتى فى شرح المواد وكيف أندم على خير فعلته ؟ والصادق المعصوم يقول : **« اصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله فإن صادف أهله فهو أهله وإن لم يصادف أهله فأنت أهله »** .

ازرع جميلا ولو فى غير موضعه   فلن يضيع جميل أينما زرع
إن الجميل وإن طال الزمان به   فليس يحصده إلا الذى زرع

أشهد أننى دخلت البيت حزينا أعدو ، وأروح كالطير يمشى من الألم وهو مذبوح ومضت هذه الليلة ثقيلة وئيدة ، لولا ما كان يكتنفها من دعوات نتوجه بها إلى الله أستغيث به فى كشف الضر ، فهو الذى وحده يجير المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . وطلع النهار فجلست فى فكر وحزن وسألتنى أمى : ما يحزنك ؟ وأخبرتها بما حدث ، فقالت لى بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : لا تحزن فإن الله سيزيل هذا الكرب ، ودعت لى بدعوات صادفت ساعة الإجابة ، وما هى إلا لحظات وطرق الباب طارق ، وقلت : من ؟ قال : أنا عبدالمنعم ، وكأنى عثرت على هدف الذى كنت أنشده . إن عبدالمنعم هذا كان زميلا لى وجلسنا سويا فى لحظة صمت قطعه بسؤال : هل أنت مرتبط بأحد فى المذاكرة ؟ قلت لا . قال : فهل لديك من مانع من مذاكرتنا معا ؟ قلت : لا . قال : على بركة الله . وقطعنا الأيام العشرين نصل الليل بالنهار حتى أدينا ما علينا والله لا يضيع أجر من أحسن عملا . وهكـــــذا مرت الشدة عندمــــــا جاء التـــــيسير :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

فى يوم الامتحان

فى صبيحة هذا اليوم صحبنى شقيقى عبدالستار إلى لجنة الامتحان بالمعهد ، وكان الامتحان شفويا للمكفوفين ، وكانت اللجنة مكونة من أعضاء ليسوا من العاملين بمعهد القاهرة إنما جاءوا من معاهد أخرى لأنها شهادة ، وبدأنا الامتحان بالتفسير فكانت فاتحة خير ، فقد أعجب الشيوخ بإجابتى فى تفسير كتاب الله حتى قام أحدهم يدعو أعضاء اللجان الأخرى ويقول لهم : تعالوا لتسمعوا العلم من منابعه الصافية ، كنت ساعتها قد أفاض الله علىّ فى آيات من سورة الملك .

وانتقلنا من التفسير إلى غيره من المواد وبينما نحن فى هذا الصفاء العلمى ، وذلك السمو الروحى ، وفى جو اتَّسَمَ بدفء اليقين ، بينما نحن كذلك . إذ دخل علينا شيخ المعهد ، وأراد أن يلقى طُرفة يمزح بها مع اللجنة لكنها باللأسف كانت فظاظة فى القول ، فقد جرحنى فى أمر لا يدى لى فيه . إذ قال : ماذا فعل هذا الأعمى معكم ؟ وعلى الفور رأيتنى كالطير الجريح بل الذبيح ، فإن هذه الكلمة لا أطيق سماعها وقد أمرنا الله تعالى أن نتأدب مع خلقه خاصة فيما خلق الله ، على سبيل الفور قلت له : وهل أنت الذى أبصرت نفسك ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . وحضرنى فى ذلك قول ابن عباس رضى الله عنه ، وقد كُفَّ بصره :

إن أذهب الله من عينى نورهما ففى فؤادى وعقلى منهما نور
عقل ذكى وقلبى ما حوى دخلا وفى فمى صارم كالسيف مشهور

نعم إن الإنسان لا يُقاس بالبصر ولا بسلامة الأعين ، وإلا فقد خلق الله الحمار أوسع المخلوقات عينا . لقد كان سعد بن أبى وقاص رجلا مجاب الدعوة ولكنه لما فقد بصره على كبر . قال له أبناؤه : سل الله أن يرد عليك بصرك فأنت مجاب الدعوة . فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أستحى من الله أن أسأله ذلك ولكنى أسأله أن يدخر لى ذلك عنده فى الآخرة . إن الله تعالى إذا ابتلى عبده بفقد حبيبتيه أى عينيه ، فصبر لم يجد له جزاءً إلا الجنة .

يعيرنى الأعداء والعيب فيهم وليس بعيب أن يُقال ضرير
إذا أبصر المرء المروءة والوفا فإن عمى العينين ليس يضير
رأيت العمى أجرا وذخرا وعصمة وإنى إلى تلك الثلاث فقير

﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم** ﴾ . وقد يكون الخير كامناً فى الشر . لقد سألنى أحد أعضاء اللجنة : لماذا استأت من هذه الكلمة ؟ وسألنى سؤالا عقب به على هذه الكلمة فقال : أتحب أن تكون مبصر العينين عاصيا لله ؟ أم مكفوف البصر طائعا لله ؟ وأجبت عن هذا السؤال إجابة ضافية وافية نابعة من يقين صادق وعقيدة راسخة قلت : إن قضاء الله لا يُقابل بغير التسليم وليس له عُدة سوى الصبر الجميل وإن طاعة الله لا يعدلها شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فالعز كل العز فى طاعته والذل كل الذل فى معصيته . واستشهدت بقوله جلَّ شأنه : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ ولم يقل تعالى : « يهديهم بأبصارهم » بل إن هناك قوما قال الله تعالى فى شأنهم ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون** ﴾ .

وذكرت فى ذلك المقام قول رسول الله ﷺ : « **اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس**» **وذكرت أيضا قول الحسن البصرى رضى الله عنه وقد سُئل أى الأيام عندك عيد ؟ فقال : « كل يوم لا أعصى الله فيه فهو عيد »**

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عُريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولاخير فيمن كان لله عاصيا

قال عضو اللجنة تعقيبا على هذا الكلام ، اكتفينا بهذا السؤال فى علم التوحيد . وتسلسلت الأسئلة بعد ذلك فى بقية العلوم وتبعتها الأجوبة ، وتحولت كلمة شيخ المعهد من

بِلُح أجاج إلى عذب فرات سلسبيل ومن ملوحة ملحة إلى شراب حلو لذيذ وفرغت من الامتحان ، وكانت ساعة طيبة يوم أخبرنى أخى بظهور النتيجة ، وقد أكرمنى ربى عندما منَّ علىَّ بالتفوق فكان ترتيبى الأول على طلبة الشهادة الثانوية ، حيث حصلت على نسبة مئوية تقدر بتسعة وتسعين .

فى كلية أصول الدين

استخرت الله تعالى وقدمت أوراق فى كلية أصول الدين ، فقد اقتنعت بها ، إذ أنها تحتوى على زاد عظيم لكل داعية إلى الله فقد اشتملت على التفسير والحديث والعقيدة والفلسفة وعلم النفس والتاريخ واللغة العربية وإحدى اللغات الأجنبية .

وأقبلت الدراسة وأقبلت عليها بقبول حسن ونفسى راضية ، لكن كان يكدر علىَّ هذا الصفو ، ذلك الشبح الرهيب الذى عانيت منه من قبل ، وهو البحث عن صديق أقيم معه فى الحى الذى به الكلية ، فإن الصديق « محمد الطوخى » الذى كنت أقيم معه حتى انتهاء المرحلة الثانوية ، قد التحق بكلية اللغة العربية ، وكان بين مسكنى بدير الملاك وكلية أصول الدين بالخازندار بشبرا مسافة بعيدة تستغرق منى ساعة ذهابا وساعة إيابا . فمن لى بهذا العمل المرير ، بالإضافة إلى مُرافق يذاكر لى . لقد أخذنا نجد فى البحث عن هذا الصديق الذى سألتزمه فى ذهابى وأيابى ومذاكرتى . وأذكر أننى رأيت وجوها كان لى بها سابق عهد فى « معهد الإسكندرية » منهم من قد سبقنى بعامين ومنهم من سبقنى بعام ، ومنهم من صار معى . كما أذكر أن الكثير منهم كأن لم يكن بينى وبينه مودة من قبل .

مهما يكن من أمر فقد عثرت على زميل بعد جهد جهيد ، واتفق معه شقيقى على أن نقيم سويا بغرفة بحى شبرا قريبة من الكلية . وتنفست الصعداء ، وذهبنا نتفقد حال الغرفة ومهما كان فيها من سوء فقد كان يشترك معنا ثلاث أسر فى ثلاث غرف أخرى ، بالإضافة إلى دورة المياه وما تعانيه من ضغوط سحيقة . لكن كل هذا يهون أمام صعاب أخرى ولابد من دون الشهد من إبر النحل :

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذى يلقاه فيها محبب

لكن كانت المفاجأة من هذا الزميل مريرة مرارة تفوق الحنظل ، لقد افترشت الأرض بفراش يحول بينى وبين برودة بلاطها وذهب الزميل فأحضر الغداء ، وعندما أرخى الليل سدوله ، قال لى الزميل : أريد أن اشترط عليك وأبين لك كيف تكون معاملتى لك . قلت له : قل ما تشاء أسمع . قال : **أولا** : أن تشترى الكتب على حسابك مقابل قراءتى لك . قلت له : موافق - وذلك على الرغم من ضيق ذات اليد - **ثانيا** : لا ترتبط بوجودى معك فى الغرفة طول الوقت . فقد أخرج ولا أعود إلا منتصف الليل . قلت له : ثم ماذا ؟ وكانت ثالثة الأسافى أنه قال : ولا ترتبط بى فى الذهاب إلى الكلية . قلت : ما معنى هذا ؟ وأنا ما جئت معك إلا من أجل الذهاب إلى الكلية ؟ قال : إن شئت فاذهب وحدك أو استعن بأحد غيرى . وذكرنى كلامه هذا وخاصة الشرط الثالث ذكرنى بطرفة :

قال القائد للجندى : لماذا لم تطلق النار على العدو عندما مرَّ بك ؟ قال : منعنى من ذلك واحد وعشرون سببا . قال : اذكرها قال : أما السبب الأول : فهو أننى لم يكن معى ذخيرة . قال له القائد : كفى . فماذا بعد ذلك من أسباب تذكر ؟ كفى بهذا السبب وهذا الزميل يكفى أنه قال لى : إن شئت فأذهب إلى الكلية وحدك أو استعن بغيرى ... مكثت مع هذا الزميل من يوم الاثنين إلى يوم الخميس . مرت ساعات هذه الأيام وئيدة ثقيلة بطيئة ، كأنها سلسلة من الجبال الرواسخ . فقد نفَّذ مخططه فكان يتركنى وحدى أعانى ألم الوحدة وعدم المذاكرة بالإضافة إلى شريط من ذكريات مضت . كان يخرج من بعد انتهاء اليوم الدراسى فلا يعود إلا فى الهزيع الأخير من الليل وهكذا حتى كنت أسأل الله أن يحول بينى وبينه ولو كانت الدراسة فى هذه الكلية سترفعنى إلى ما فوق قبة الفلك ، وجاءنى شقيقى « عبدالستار » يوم الخميس ليصحبنى إلى مسكننا بدير الملاك حيث كنت أقضى ليلتى الجمعة والسبت وأذهب فى صبيحة يوم السبت إلى الكلية ، فكنت أصلى المغرب والعشاء يوم الخميس فى أحد مساجد الجمعية الشرعية حيث ألقى الدرس بعد المغرب ثم أخطب الجمعة ، ثم أذهب يوم السبت إلى الكلية . وسألنى أخى : كيف الحال مع هذا الزميل ؟! وأخبرته بأن الاستمرار معه ضرب من ضروب المحال . فكان لابد من البحث عن زميل آخر . لكننى أذكر أن هذه الأيام الأربعة التى قضيتها معه لقنتنى درسا فى الحياة لا أنساه وأعطتنى موضوعا لخطبة الجمعة أذكر أننى ما خطبت خطبة أشد تأثيرا من تلك الخطبة . كان موضوعها : « قد يكون الطلاق نعمة » فقد افترضت لو أن ما كان بينى وبينه عقد زواج مؤبد لا طلاق فيه . كيف سيكون العيش ؟ وإلى أى نهاية تنتهى الحياة ؟ وبينت حكمة الله فى مشروعية الطلاق فى الإسلام وإن كان أبغض الحلال ، وبينت عظمة الله فى تشريع الأحكام ، وكيف قال سبحانه : ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم**﴾ وكيف جاء هذا القول الكريم فى آية من آيات الطلاق قال الله فيها : ﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . ولا تتخذوا آيات الله هزوا . واذكروا نعمة الله عليكم** ﴾ .

نعم : ما من شيء شرعه الله إلا وله حكمة بالغة وإن خفيت عن بعض الناس . إلا أنها كامنة فى أحكام الله .

كم من نعمة لا يُستقل بشكرها   لله فى طى المكاره كامنة

نعم :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت   ويبتلى الله بعض الناس بالنعم

حقا إن هذه الأيام الأربعة التى قضيتها مع هذا الزميل لقنتنى درسا فى الإسلام مفاده أن الله تعالى شرع الطلاق ليكون دواءً لداء استعصى علاجه ، واستعمال الدواء فى غير الداء خطأ وترك الداء بلا دواء خطيئة . فما أعظم الإسلام إذا شخص الداء !! وما أروعه إذا وصف الدواء !!

صديق آخـر

ليس من السهل العثور على صديق صدوق ، فإذا رُزقته فقد اصطفاك مقسم الأرزاق . قيل لحكيم : أيهما أفضل لديك أخوك أم صديقك؟ فقال : أخى إذا كان صديقى .

نعم : إن المعيار الحقيقى للصداقة الشدائد حتى قال أحدهم :

إن أخاك الحق من كان معـك   ومن يضر نفسـه لينفعـك
ومن إذا ريب الزمان صدعك   شتت فيك شمله ليجمعك

وصديقك هو من يَصْدُقُك لا من يُصَدِّقُك ، كما أن صديقك من يبصرك بعيبك . كان عمر رضى الله عنه يقول : « رحم الله امرأ أهدى إلىَّ عيوبى » وكان عمر بن عبدالعزيز يقول لصديق له اسمه عمر بن مهاجر : « ياعمر إذا رأيتنى ضللت الطريق فخذ بمجامع ثوبى وهزنى وقل لى : اتق الله ياعمر فإنك ستموت » . ولن تستقيم الحياة بدون صديق ، فقد قال علماء الاجتماع : الإنسان مدنى بطبعه .

سمع رسول الله ﷺ على بن أبى طالب يدعو الله ويقول : **اللهم أغننى عن خلقك فقال له : بل قل : اللهم أغننى عن شرار خلقك. أتدرى ما شرار الخلق ؟ قال : لا يارسول الله . قال : الذين إذا أعطوا منوا وإذا منعوا سخطوا** . تلك ملامح لشخصية الصديق ولقد رزقنى الله بعد البحث الطويل بأخ كان زميلا لى فى المرحلة الثانوية واتفقنا على أن نقيم سويا فى مسكن كان قد استأجره قريب من الكلية . كان هذا الصديق ثريا لذا كان يهتم كثيرا بمأكله وملبسه ولو أدى ذلك إلى ضياع الوقت الذى كنت فى مسيس الحاجة

إلى أن أقضيه فى المذاكرة ، فكنا مثلاً نخرج من الكلية فى الواحدة والنصف بعد الظهر فيضيع منا نصف ساعة فى شراء طعام الغداء ، ثم يبدأ فى طهى الطعام فينتهى منه بعد العصر ثم نفرغ من تناول الطعام وقد أوشك المغرب فى يوم الشتاء أن يؤذن ، فماذا بعد الأكل الذى يمتاز بالدسم إلا أن يغزو النوم الجفون .

ومضت الحال على هذا المنوال : أكل فنوم فيقظة لنتناول أكوابا من الشاى ثم نفتح الكتب نتذكر فيستأذن صاحبنا لقضاء بعض حوائجه فلا ينتظم عقد المذاكرة أكثر من نصف ساعة ثم يحضر صاحبنا وقد حمل طعام العشاء ، وبعد العشاء يأتى النوم فى ليالى الشتاء الباردة عندما يسرى الدفء فى الأوصال .

وانتصف العام الدراسى وسألت الله أن ينقذ الموقف فما جئت وما سعيت إلى هذه السكنى آكلا أو نائما ، إنما كان الهدف الرئيسى : المذاكرة وتحصيل العلم . فانضم إلينا صديق آخر كان من أقصى الصعيد وكان محبا للعلم . فكان سرورى به عظيما فقد تجاوبت نفوسنا وعكفنا على تحصيل العلم . وكانت النتيجة خيراً ، ظللت مع هذا الصديق حتى السنة النهائية فى كلية أصول الدين فاضطررت أن أبحث عن صديق يكون أكثر مذاكرة فقد فارقنا الطالب الصعيدى إلى زملاء آخرين .. أذكر وأنا فى السنة الثالثة أن كان يدرس لنا الفلسفة الشيخ « عبدالحليم محمود » رحمه الله تعالى ، وكان مقررا علينا الفلسفة الهندية وفيها باب عن تناسخ الأرواح وعقيدة الهنود فى التناسخ ، وحدث أن الشيخ طرح علينا هذا السؤال : من منكم يستطيع فى الحصة القادمة أن يشرح باب التناسخ ؟ وكان ذلك من قبل أن يتحدث فيه . وأشار الطلاب عليه أن أقوم أنا بشرح هذا الباب . ولم تكن تلك المهمة سهلة ، وكان بينى وبين إلقاء تلك المحاضرة ثلاثة أيام ، حاولت خلالها أن أستعين بأحد الشيوخ فى شرح بعض الغوامض ، وذهبت إليه فى بيته ، فلم يكن موجودا ، أيقنت وقتها أنه لا مناص من أن أقرأ الموضوع مرة ومرة مستعينا بالله تعالى وحده ، فهو الذى دعاه نبيه موسى بتلك الدعوة : **﴿ رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ﴾** . ومن المعلوم الثبوت أن العبد إذا عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يكن يعلم وأن طاعة الله تورث العبد معرفة ونورا وفرقانا يهديه سواء السبيل .. ذكر العلامة « ابن سينا » أنه كان يقرأ مسألة فى إحدى كتب الرياضة فأعجزته وتعسَّر عليه حلها فطوى الكتاب قال : وذهبت إلى المسجد لأصلى العصر ، فلما فرغت من الصلاة وجدت بباب المسجد ورّاقا يبيع الكتب ، فقدم لى كتابا يبيعنى إيَّاه ولم أكن فى حاجة إلى شرائه ، ولكنه قال لى : ياسيدى إنى فى حاجة إلى ثمن هذا الكتاب لأشترى به طعاما فاشتريته لا بقصد قراءته ، إنما لسد حاجة بائعه ، ولما جلست أمام الكتب فتحت هذا الكتاب فإذا هو نفس الكتاب الذى أعجزتنى مسألته الرياضية . لكننى لما قرأته . فتح الله علىَّ كل ما فيه مما كان مستعصيا علىَّ من قبل فعلمت أن

أفعال الخير تفتح كنوز المعرفة ، فما أجمل ما قاله رب العزة ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ وما أعظم ما قاله مولانا جلّ ذكره : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ .

لقد استعنت بالله تعالى وألقيت المحاضرة التى كانت تدور حول تناسخ الأرواح فى الفلسفة الهندية وأثبت بطلانها فى ضوء الشريعة الإسلامية ، كما أثبت بطلان تحضير الأرواح مستندا إلى قوله جلّ شأنه متحدثا عن الروح : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ .

هذا أسلوب عربى مبين يتحدى الله تعالى به البشرية جمعاء أن ترجع الروح بعد خروجها ، فكيف يدعى بعض المفترين على الله كذباً أنهم يستطيعون تحضيرها فى سلة من السلال والله جلّ ذكره فصل منازلها بعد خروجها فقال : ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم ﴾ .. ثم أكد هذا كله بقوله : ﴿ إن هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم ﴾ . وكيف يستطيع أحد أن يحضرها من عالم البرزخ والله تعالى يقول : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ والبرزخ هنا هو الحاجز الزمنى ، وقد جعله الله هكذا إلى يوم البعث . وكيف يستطيع أحد أن يخرجها من نعيمها والله تعالى يقول : ﴿ لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾ وكيف يستطيع أحد أن يخرجها من عذابها والله جلّ شأنه يقول : ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ لقد ضلت الفلسفة الهندية ضلالا بعيدا عندما اعتقدت بتناسخ الأرواح وخاضت غمار معركة لا تملك سلاحها . وهل هناك أزمة فى الأرواح حتى تحل الروح التى خرجت من إنسان فى جسد طفل وليد؟! وهل بلغ من العبث بالأمور الغيبية أن الروح إذا كان صاحبها شقيا حلت فى جسد كلب أو حيوان شقى؟! سبحانك ربى يامن قلت ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ وهل اطلعوا على الغيب فعلموا أن عدد الموتى يساوى عدد المواليد حتى تخرج الأرواح من أجسام فتحل فى أجسام أخرى مساوية لها فى العدد ، ثم ماذا يقولون فى الحروب وقد يبلغ عدد القتلى مئات الألوف بل عشرات الملايين كما حدث فى الحربين العالميتين أين تذهب هذه الأرواح إذا لم تجد أجساما مساوية لها فى العدد ؟! إن هذا هو الفرق بين الفيلسوف وعالم الدين ، فالفيلسوف يتبع فى بحثه عقله وهواه . ورجل الدين يتبع فى بحثه وحى الله وهداه . إن محيط ما وراء الطبيعة أعنف من أن يمخر عبابه سباح ماهر . لذا أرادوا أن يضربوا مثلا للفيلسوف وعالم الدين فجاء المثل فى صورة بحر خضمّ فيه معترك من الأمواج

تمزقه رياح هوج والفيلسوف يعبره على بحر من الخشب وعالم الدين يعبره فى سفينة منيعة . فأى الفريقين أحق بالأمن ؟.

لقد ذكرت كل هذا الكلام فى محاضرتى التى ألقيتها على إخوانى الطلبة ، وكان يقف بجانبى الشيخ « عبدالحليم محمود » رحمه الله . وما أن فرغت من إلقائها حتى كان ثناء الرجل علىّ قد أخجل تواضعى .

موقف عجيب

حدث هذا الموقف وأنا فى السنة الثالثة من كلية أصول الدين ومع ذلك الصديق الذى كان كريم الأخلاق قليل المذاكرة . فقد انصرف الطلاب كعادتهم قبل الامتحان بشهر ونصف أو يزيد ، كل إلى بلده ليعكف على مذاكرة المواد التى سيدخل فيها الامتحان . وانصرف صديقى هذا إلى بلده ولم أكن معه وذلك لأنه لم يوجه إلىّ الدعوة بالذهاب معه كما كان يفعل الأخ « محمد الطوخى » ، كما أننى لم أكن راغبا فى ذلك نظرا لقلة مذاكرته . ثم لأنى مرتبط بخطبة الجمعة فى مساجد القاهرة التابعة للجمعية الشرعية . كل هذه الأسباب جعلتنى لا أفكر فى السفر ، وقد تعجب إذا ما قلت لك إن الذى كان يذاكر معى شاب يعمل بائعا للخضروات فى سوق قريب من المسجد الذى كنت ألقى فيه دروس المساء يوم الخميس من كل أسبوع . وكان يصحبنى من بيتى إلى المسجد بصفة منتظمة . لكننى فوجئت بصديقى هذا قبل الامتحان بعشرين يوما قد مرّ بى فى مسكنى بدير الملاك وعرض علىّ أن نذهب معا إلى المسكن الذى كان يجاور الكلية بشبرا حتى نذاكر سويا إلى أن يأتى الامتحان ووافقت لكن على وجل ، فإن الامتحان يوشك أن يطرق الأبواب وأخشى ألا نذاكر كما هى العادة بل أنسى ما ذاكرت . وأنا دائما فى أمورى أسلم الأمر لله وأنا واثق من أن الله تعالى يفعل ما يشاء ويختار وكل فعله خير .

ما مسنى قدر بكُرهٍ أو رضاً إلا اهتديت به إليك طريقا
امض القضاء على الرضا منى بما إلى عرفتك فى البلاء رفيقا

وكان ما توقعته ، ففى طريقنا إلى شبرا مر صديقى بأحد المطاعم فاشترى ما يسمى بعجينة الطعمية ، ثم ذهبنا إلى المسكن فقام بتخريط بصل كثيف أضافه إلى العجينة ثم أضاف إليها بعض البيض وصنع من ذلك الخليط أقراصا من أكل منها قرصا لا يفيق يومه . وشعرت كأنى دخلت فى دوامة عنيفة وتناولنا طعام الغداء من هذه الأقراص وغزا النوم الجفون فنام كل منا فى مكانه لا يبدى حراكا . وما أن استيقظت حتى شعرت بضياع الوقت فاستأذنته أن

يعيدنى إلى مسكنى بدير الملاك ، وعدت إلى مسكنى هناك ، واستأذن هو ليذاكر بقية الأيام وحده وأرسلت إلى « عبدالعظيم » بائع الخضار ، وكان شابا صالحا يحفظ القرآن عن ظهر قلب وشعرت كأن القرآن بالنسبة إلىّ فى حاجة إلى مذاكرة ومدارسة كما أخبر الرسول ﷺ فى قوله : « **مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المُعَقَّلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت** » ، وكما أخبر فى قوله : « **تعاهدوا القرآن فإنه وحشى** » .

وكأنى كنت أنظر من بعيد لأرى ماذا كان سيحدث لو لم أتفرغ فى هذه الأيام لقراءة القرآن حفظا وتسميعا . وقد كان ما أراده الله خيرا فكنا نقضى الساعات فى حفظ القرآن حفظا جيدا . وجاء الامتحان وجلست أمام لجنة كان على رأسها عالم صالح هو الشيخ « إبراهيم زيدان » رحمه الله تعالى . وبعد أن سألنى عن اسمى قال لى : أتحفظ القرآن؟ قلت نعم. قال: إن كنت تحفظه حفظا جيدا فإنه سيشفع لك فى كل العلوم التى سأمتحنك فيها ، وإن كنت لا تحفظه فلن تشفع لك المواد بعد ذلك . ونزلت هذه الكلمات على نفسى منزل السكينة.وبدأ الشيخ يسأل أسئلة فى حفظ القرآن لا يجيب عنها إلا ذو حفظ عظيم . وكثيرا ما سأل فى سورة الأعراف والتوبة ويونس وهود ، وكان من فضل الله تعالى علىّ أن شرح صدرى ويسر أمرى وحل عقدة من لسانى ، فانسابت آيات القرآن كما ينساب الماء من قمم الجبال ، فسُر الشيخ بذلك سرورا عظيما ، فمرَّ بالمواد بعد ذلك مرور النسيم وقت السحر ، فقد أخبرنى بعد ذلك قائلا ، لقد شفع لك القرآن فى امتحان الدنيا وأرجو أن يشفع لك فى امتحان الآخرة .

شهر رمضان

كان لرمضان ولا يزال وسيظل له وقع طيب فى نفسى ونفس كل مسلم إلا أننى أذكر هنا ما كان لرمضان فى نفسى من أثر وأنا طالب : كنت أخرج من مسكنى بدير الملاك فى الثامنة صباحا متجها مع مرافقى إلى أصول الدين بشبرا سيرا على الأقدام ، فأصل فى التاسعة إلا ربعا حيث تبدأ الدراسة فى التاسعة . وفى الواحدة والنصف من بعد الظهر كنت أعود لا إلى مسكنى إنما إلى بيت الله تعالى فى حى الشرابية فى مسجد يسمى المتولى .

ولهذا المسجد ذكريات طيبة فى نفسى، فقد كنت فيه أدعو إلى الله تعالى على بصيرة من عام ١٩٥٤ إلى أن عُينت بوزارة الأوقاف بعد تخرجى فى عام ١٩٦٢ . وما زلت أذكر أننى قضيت فى هذا الحى سنين كانت أفضل أيام حياتى فى الدعوة فقد كان أهله رجالا والرجال قليل ، كانوا كراما طيبين . ومازلت أذكر من جمعة خطبتها فى هذا المسجد المبارك وكانت فى موسم الحج ، ومن عادتى فى الخطابة أننى أبدء بمقدمة تشد السامع شدا قويا مؤثرا

حتى أوقظ الوسنان وأنبه الغافل ، ويكون ذلك بمثابة استحضار للشعور فإن هناك من يجلس معى بجسمه وقلبه هناك كما قال شوقى :

لقد أنلتك أذنا غير واعية ورب مستمع والقلب فى صمم

أذكر أننى بدأت هذه الخطبة وكانت فى موسم الحج . بدأتها بأعرابى سأل رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ وإذا بسفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء يجوب الآفاق ويطوى بأجنحته السبع الطباق بقوله جلّ شأنه ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ . ثم أخذت فى تفسير هذه الآية وبينت ما فيها من أسرار بلاغية وقضايا تتعلق بالعقيدة لا أجد بأسا من الإشارة إليها : فهذه الآية « آية الدعاء » جاءت بين آيات الصيام لما لها من ضياء يشع فى هذا المجال ، فإن للصائم دعوة ما تُرد . ولله تعالى حكمة بالغة فى أن يقول ﴿ **فإنى قريب** ﴾ بينما نحن إذا استعرضنا الأسئلة الموجهة إلى رسول الله ﷺ وجدنا أن الله تعالى يلقنه الإجابة فيقول له : ﴿ **قل** ﴾ وإليك هذه النماذج من الأسئلة : قال تعالى : ﴿ **يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين** ﴾ إلخ الآية ، ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير** ﴾ الآية . ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير** ﴾ الآية ، ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ..** ﴾ الآية .. ﴿ **ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ..** ﴾ الآية . ﴿ **ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ..** ﴾ الآية ، ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا** ﴾ الآية ، ﴿ **يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله** ﴾ الآية .

فهذه الأسئلة التى وُجهت إلى الصادق المعصوم جاءت الإجابة عنها مقترنة بلفظ قل ، أما هذه الآية الكريمة « آية الدعاء » ، فقد تجردت من لفظ قل وجاءت الإجابة مباشرة من الله تعالى بلفظ ﴿ **فإنى قريب** ﴾ وهذا باب عظيم من أبواب العقيدة يفيد يقينا أنه لا واسطة بين العبد وربه ، بل كما قال جلّ شأنه ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ وكما أخبر مبعوث العناية الإلهية « **إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله** » .

ياصاحب الهم إن الهم منفرج — أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه — لا تيأسن فإن الكافى الله
إذا بليت فثق بالله وارض به — إن الذى يكشف البلوى هو الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة — لا تجزعن فإن الصانع الله
والله مالك غير الله من أحد — فحسبك الله فى كل لك الله

ثم تحدثت بعد ذلك عن السر فى قوله تعالى : ﴿ **إذا دعان** ﴾ فالمعلوم أن قوله تعالى : ﴿ **أجيب دعوة الداع** ﴾ يفيد أنه سيدعو ، فما السر فى ﴿ **إذا دعان** ﴾ نعم إن هناك سرا عظيما فى التعقيب بهذه العبارة ذلك أن قوله تعالى : ﴿ **إذا دعان** ﴾ يفيد إذا دعانى أنا لا غيرى ولولا ذلك لقال : « إذا دعا » . ثم إن قوله تعالى : ﴿ **إذا دعان** ﴾ يفيد معنى قوله جلّ شأنه فى الحديث القدسى الجليل (**أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غير تركته وشريكه**) .

وفى قوله تعالى : ﴿ **إذا دعان** ﴾ يفيد معنى الظرفية الزمنية فى « إذا » أى أنه سبحانه يستجيب الدعاء وقت الدعاء . ثم إن التعقيب بقوله جلّ شأنه ﴿ **فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى** ﴾ جاء فى غاية الدقة لمناسبته لقوله جلّ شأنه ﴿ **فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ أى كما أجبتهم فليستجيبوا لى » .

وبعد أن فرغت من إلقاء هذه الخطبة ، كانت حفاوة المصلين لى قد أخجلت تواضعى فهذا أول لقاء لى بهم ، وأشهد أننى قضيت فى المسجد سنين عددا ، وكانت فيه نفحات مباركة ، وكان من فضل الله على أن هذا المسجد لما ضاق بالرواد بنيناه أربعة أدوار ، وكان لاغنى عن الصلاة فى الشوارع المحيطة به يوم الجمعة ، وكانت نفحات هذا المسجد تتجلى أكثر وأكثر فى رمضان . فكنت إذا فرغت من الدراسة فى الكلية أعود إلى هذا المسجد قبيل العصر فى رمضان وبعد صلاة العصر أجلس بين المصلين فألقى الدرس اليومى من بعد صلاة العصر إلى اصفرار الشمس، وأذكر ذات يوم فى رمضان أن تكاثرت أسئلة المصلين أثناء الدرس فاستمعت إليهم جميعا وكانت تزيد عن العشرين سؤالا . ومن بركات هذا المسجد أننى أجبت عنها جميعا سؤالا سؤالا وبالترتيب كأنى أمام إحدى لجان الامتحان . ثم نذهب بعد الدرس نتناول طعام الإفطار على موائد الكرم عند إخوان امتلأت قلوبهم بحب الله ورسوله . وهل الإيمان إلا الحب فى الله؟ وبعد أن أصلى المغرب أتوجه إلى كوبرى القبة لأدرك صلاة العشاء فى مسجد هناك كانت تغشانا فيه الرحمات وتتنزل علينا السكينة وتحفنا الملائكة عسى الله تعالى أن يذكرنا فى ملأ خير منا ..

كنت أصلى العشاء والقيام وأقرأ فى القيام جزءاً كاملا كل ليلة ويتخلل صلاة القيام درس من العلم يستمر نصف ساعة . كان يؤم هذا المسجد شباب طاهر من طلبة الجامعة ومراحل التعليم المختلفة إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً . كما كان يحفه شيوخ بررة تعرف فى وجوههم نضرة النعيم . لقد أسس هذا المسجد على تقوى من الله ورضوان . قام على تأسيسه رجل طيب القلب هو « الحاج على سلامة » ، وحمل هذا المسجد اسمه أسأل الله أن يثيبه عليه ويسكنه فسيح جنته .

كنت أعود بعد صلاة القيام إلى مسكنى بدير الملاك وقد أوشك ليل القاهرة أن ينتصف . وما هى إلا سويعات ويأتى وقت السحور فصلاة الفجر فشروق الشمس فيوم جديد ينادى فيه المنادى : ياابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فاغتنم منى فإنى لا أعود إلى يوم القيامة .

غدى سيصبح أمسى لا يعارضنى ... فى ذاك حى وأمسى لن يصير غدى

ياابن آدم :

دنياك ساعات سراع الزوال ... وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا غافلا ... وتشترى دنيا المنى والضلال
عش راضيا واترك دواعى الألم ... واعدل مع الظالم مهما ظلم
نهاية الدنيا فناء فعش ... فيها كريما واعتبرها عدم
ويافؤادى تلك دنيا الخيال ... فلا تنؤ تحت الهموم الثقال
سلم له الأمر فمَحْوُ الذى ... خطت يد الأقدار أمر محال

ذات صيف

حدث ذات صيف وأنا طالب بالمرحلة النهائية أن صحبنى بعض الإخوة الذين عرفتهم فى المساجد إلى قريتهم لقضاء بعض الوقت . وذهبنا إلى هناك . وعند صلاة العصر ذهبنا إلى مسجد القرية وكان به إمام قد نيّف على الستين من عمره . ومن الذين تلقَّوْا علومهم أيام كان الأزهر يدرس لأبنائه فى كتب صفر قد امتلأت بالفناقل والفناظر والفهفهات . والفناقل هى ما تراه فى كتب الأصول فإن قيل كذا قلنا كذا . والفناظر ما تراه فى الكتب من قولهم « فيه نظر » والفهفهات قولهم « وفيه ما فيه » . لقد كانوا يقرءون المبسوط من الكتب فيخلصون منه إلى الوسيط ، ويقرأون الوسيط فيخلصون إلى الوجيز فأصبح الأزهر اليوم وقد تحوّل إلى ملازم أنيقة ورشيقة ومغلفة بغلاف برّاق . أصبح أبناؤه يدرسون القشور ويقرءون الوجيز فلا يخلصون منه إلى شىء .. صليت العصر وراء هذا الإمام ؛ وما إن شعر المصلون بحضورى حتى طلبوا منى أن ألقى عليهم درسا فى العلم ، فاستأذنت الإمام فأذن لى مشكوراً . وكنت قد تعودت إذا وُجدت فى مكان لأول مرة وأردت الحديث أن أشرح لهم حديث جبريل الذى وجه فيه أربعة أسئلة إلى النبى ﷺ : سأله فيه عن الإسلام والإيمان والإحسان ومتى الساعة ؟ فقد اشتمل هذا الحديث على أصول العقائد وشعائر العبادات ومبادىء الأحكام ومناهج السلوك وقواعد النظام .

وما أن بدأت أشرح الحديث الشريف حتى بادرنى إمام المسجد بسؤال قال فيه : إن فى القرآن الكريم آية اشتملت على أمرين، وخبرين ونهيين ، وبشارتين . فخبرنى ماهى ؟ ووقع السؤال على نفسى وقعا عجيبا لأنه لم يكن له أىُّ مناسبة بما أقوله فى شرح الحديث ، لكنه فى نفس الوقت نزل من نفسى منزل الرضا إذ كنت أعرف الإجابة عنه فقد حدث ذات يوم أن ذهب صديقى لشراء بعض الأطعمة وبعد أن فتح الورقة التى لُفت فيها الأطعمة قال لى : أتدرى ماذا كُتِبَ فى هذه الورقة ؟ وبدأ يقرأ : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم . ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾ ثم قرأ بعد ذلك عبارة تعقب على الآية الكريمة فتقول : « ومن عجيب الأمر أن هذه الآية اشتملت على أمرين وخبرين ونهيين وبشارتين » فالأمران هما : أرضعيه وألقيه . والخبران هما : أوحينا وخفت . والنهيان هما : لا تخافى ولا تحزنى والبشارتان هما : إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين .

لكننى لما سألنى الشيخ هذا السؤال على مسمع من الناس لم يكن على شىء من أدب الإسلام، فلو لم أقرأ تلك الورقة لكان فى ذلك إحراج وأى إحراج وقد نهى الإسلام عن تصغير الوجوه فقد قالوا حتى فى النصيحة : من نصحك بينك وبينه فقد نصحك . ومن نصحك على ملأ من الناس فقد فضحك . فماذا كان يقصد السائل من سؤاله هذا ؟ لو كان يطلب الفهم بهذا السؤال لكان ذلك بينى وبينه بعد انقضاء الدرس . علما بأنه يعلم الإجابة عنه . لكننى لست بالخِبِّ ولكن الخب لا يغلبنى (أى لست لئيما ولا أسمح للئيم أن يغلبنى). فقلت له : أرجو تأخير الإجابة إلى آخر الدرس إذ لو أجبت على الفور لظنَّ بعض الجالسين أن هذا الأمر متفق عليه بينى وبينه . يسألنى فأجيب على الفور دون إعمال روية أو نظر وصمت الناس للاستماع إلى الدرس . لكنهم شغلوا بالإجابة : هل سأستطيع أن أجيب أم أنه تسويف للهروب . وما أن أوشك الدرس أن ينتهى حتى ناديت على الشيخ قائلاً : أين السائل ؟ أسمع الإجابة : وقرأت عليه الآية الكريمة : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى** .. ﴾ الآية ، وما أن فرغت من شرحها على ضوء ما سأل حتى تنفس الناس الصعداء وسمعت منهم صيحة الإعجاب عالية بالإضافة إلى دعوات لى بالتوفيق والسداد .

السنة النهائية بكلية أصول الدين

السنوات النهائية لأى مرحلة من مراحل التعليم تعتبر سنوات حاسمة فى حياة طالب العلم وهى من أجل ذلك سميت بالشهادات . ولقد كانت السنة الرابعة فى كلية أصول الدين بالنسبة إلىَّ سنة أكثر من حاسمة ؛ ذلك لأنها سيكون لها ما بعدها . فقد كنت أرغب أن

أعمل بالتدريس فى الأزهر ، وكانوا لا يأخذون فى التدريس إلا المتفوقين خاصة بالنسبة إلى المكفوفين . لذا كان لابد أن أبحث عن زميل يكون مثالا فى الجد وتحصيل الدروس ، فقد سئمت هذا الصنف من الطلبة الذى يظل طول العام لاهيا ، حتى إذا ما اقترب الامتحان ودقت ساعة الخطر ابتدأ يفتح الكتب فيكون التحصيل ضئيلا لا يكاد يشفى غلة ولا ينقع أوارا . ولما كنت فى مسيس الحاجة إلى من يعكف أيام دراسته من أول العام على الدرس والتحصيل . فقد عثرت على زميل آنست منه الجد والاجتهاد . فاستأجرنا غرفة قريبة من الكلية . وبدأنا عامنا نقرأ ونحصل ، ودخلنا امتحان النصف الأول من العام الدراسى وكانت النتيجة بحمد من الله وتوفيقه أكثر من ممتازة . فقد كان لهذا الامتحان طابع جديد . ذلك لأنه كان لأول مرة امتحانا تحريريا وقد اعتدنا من أول دراستنا بالأزهر أن يكون امتحاننا نحن المكفوفين شفويا . وقد اشترطوا فيمن يكتب لنا فى الامتحان ألا يكون من أصحاب الشهادات التى تمكنه أن يساعدنا فى الامتحان وأن يكون صغيرا فى السن ، وكانوا واهمين فى ذلك . فلو أن أحدنا كُلِّف بأن يؤدى امتحان العام الماضى ما استطاع أن يجيب إجابة تؤهله للنجاح . ذلك لأن أسئلة الامتحانات ليست معلومات عامة بما هى أسئلة تخصصية فيها ... مهما يكن من شىء فقد اخترت لكتابة الامتحان أخا كان من الذين يترددون على دروسى فى المساجد ، وكان عاملا فى أحد مصانع الغزل والنسيج لكن الله تعالى قد وهبه جمالا فى الخط وحسنا فى الكتابة . وهذا ما كنت أتمناه . وبدأ النصف الثانى من السنة الرابعة . وفوجئت ذات يوم فى محاضرة التفسير أن الشيخ الذى كان يحاضرنا فى التفسير وفى سورة النحل قال : أعتذر اليوم عن المحاضرة وقد اخترت فلانا ، وكان يقصدنى ، لكى يقرأ علينا درس التفسير اليوم . وكانت الآية التى يريد تفسيرها قول الله تعالى : ﴿ **وهو الذى سخَّر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها . وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ واستعنت بالله تعالى ففسرت الآية . قدر طاقتى وذكرت فيها ستة مباحث تتعلق بسباقها وسياقها ولحاقها ، ثم بينت وجوه البلاغة فيها . لما فى ذلك البحث من جلال القرآن وروعته وإعجازه ثم بينت البحوث النحوية والصرفية ثم ذكرت الحكمة من ختم الآية بقوله تعالى : ﴿ **ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ وبهذا انتهيت من تفسير الآية وكنت بهذا التفسير راضيا عن نفسى مقتنعا بما قلت . وبعد ذلك جاءت المحاضرة الثانية وبدأ الشيخ يسأل الطلبة عن رأيهم بما فسَّرت . والحقيقة أنهم جميعا بلا استثناء أثنوا خيرا. ومازلت أذكر شهادة الأخ « محمد فتح الرحمن » وهو الآن يحمل شهادة الدكتوراه ويعمل أستاذاً فى الجامعة الإسلامية وهو من أبناء السودان الشقيق . قال فى شهادته أمام الشيخ : إن التفسير الذى سمعناه فى هذه الآية لم نسمع مثله قط . ثم أضاف قائلا : « أعترف أنه بتفسيره هذا قد فاق كثيراً من الأساتذة » ، فأثارت هذه العبارة حفيظة الشيخ فاشتد غضبه وتكهرب الجو ، فقد أخذ الشيخ يزمجر زمجرة الضياغم فى

بطون الغاب ، فقد أخذت منه هذه الكلمة التى قالها الزميل مأخذاً أليما مما جعله يزأر زئير الأسود إذا ديس عرينها ، فطلبت الكلمة لأهدىء من روع الشيخ وقلت : إن التلميذ امتداد لظل شيخه وهو ثمرة من ثمار علمه وإن مثل التلميذ مع شيخه كما قال القائل :

كالبحر يمطره السحاب وماله فضل عليه لأنه من مائه

ونزلت هذه الكلمات منزل الرضا من نفس الشيخ وأخذ الزملاء بعد انتهاء المحاضرة وبعد انصراف الشيخ يحيوننى بكلمات طيبة وكان بعضهم يقوى فىَّ روح الأمل ألا يكون كلام الشيخ قد ترك أثرا فى نفسى .

كان الأخ الذى يكتب لى الامتحان يلازمنى فى إلقاء الدروس بالمساجد ، وكان امتحان الحديث الشريف يوم السبت ، وطلب منى الإخوة الذين كانوا يذاكرون معى ألا أخطب الجمعة السابقة على هذا اليوم حتى أتفرغ للمذاكرة معهم لكنه عزّ على نفسى أن أترك خطبة الجمعة ، فقد كانت الدروس والخطب تعطينى تثبيتا للمذاكرة ، فقد كنت ألقى أكثر الدروس والخطب مما أتلقاه من علوم كالتفسير والحديث والتوحيد والتاريخ والأدب والفلسفة الإسلامية حتى علم النفس . كنت أصوغ العلاج من الإسلام للأمراض النفسية والعقد والانفعالات والعواطف وتكوين الشخصية إلى غير ذلك ففى الإسلام ما يفى بعلاج النفوس علاجا ربانيا ، ويكفى فى ذلك قول الله تبارك اسمه ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ وكنت كثيرا ما أركز على هذا المعنى الذى يتعلق بالسعادة ، وكثيرا ما كنت أردد هذه العبارة التى تقول : ليست السعادة فى الانتشاء بالكئوس المترعة ولا فى الاستمتاع بالغيد الأماليد أو سكنى ناطحات السحاب ، إنما السعادة الحقيقية فى رضا الله عن العبد ورضاه عن ربه قال تعالى : ﴿ **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم** ﴾ .

سمع مالك بن دينار رجلا فى مجلس علمه يقول : اللهم ارض عنى فقال له : لو رضيت عن الله لرضى الله عنك . فقال الرجل : فكيف أرضى عن الله ؟ قال له مالك رضى الله عنه : يوم تُسر بالنقمة سرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله .

وكنت كثيرا ما أركز على أن السعادة فى تلك الممسكة التى أقامها الرسول ﷺ فى قوله : « **ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس** » . لقد كان بعضهم ينام على الطوى ولكن لرضاه بما قضى الله كان يقول : « نحن فى سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف » وكان أحدهم يقول : « حفر بئرين بإبرتين ونزح بحرين بغربالين وغسل عبدين

أسودين حتى يصيرا كأبيضين ، وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين خير لى أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عينى » !!

وخطبت الجمعة ودخلت امتحان الحديث يوم السبت وفوجئت بالكاتب الذى يلازمنى يقول لى : تصور أن امتحان الحديث هو نفس الخطبة التى ألقيتها بالأمس!! فقد كان الحديث الذى خطبت فيه قوله ﷺ : « **إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث . ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا** » . كما جاءت الأسئلة الأخرى فى علم الحديث من واقع ما كنت ألقيه دروسا مما أضفى على الامتحان نور المسجد وقدسيته وجلاله . وهذا مصداق قول الله تبارك اسمه : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شىء قدرا** ﴾ .

رؤيا ليلة امتحان العقائد

مازلت أذكر أنه لما قرر المسئولون فى الأزهر امتحان المكفوفين تحريرا كانت تراودنى أفكار تهزنى من الأعماق ، فبعد ما أفرغ من المذاكرة تسائلنى نفسى : هل سيستطيع الكاتب أن يوصل هذه المعلومات جيدا ؟ هل سيكون خطه حسناً ؟ هل سيكون على علم بالقواعد الإملائية التى تريح الأستاذ المصحح ؟ .. إلى غير ذلك من الأسئلة التى كانت تثقل كاهلى وتلقى بظلها الثقيل على نفسى ، ثم أفيق بعد ذلك على نداء الواقع وعلى صوت الزملاء أن : هلمَّ إلى المذاكرة . وأراد ربك سبحانه وتعالى أن ينزل السكينة فى قلبى حتى أدخل الامتحان وفى قلبى سراج يضىء لى الطريق . لقد كنا ندرس علم التوحيد فى كتاب يسمى « العقائد النسفية » وهو منسوب إلى الإمام النسفى وكنت أعتبر هذا الكتاب تمرينات عضلية للعقل كحمل الأثقال لعضلات البدن . من ذلك قوله عن صفات الله تعالى : « **وهى لا هو ولا غيره** » فمن يستطيع أن يصل إلى معنى هذه العبارة إلا أن يكون قد سبق له دراستها والوقوف على معناها . ومن ثمَّ فإننى لست من الذين يؤيدون التعقيد فى العقائد . إنما أدعو إلى تبسيطها وتيسيرها وأن تُستقى من القرآن والسنة ففيهما حقيقة الأشياء ثابتة واضحة وإذا تحدثنا عن الله فإن خير من يخبرنا عن الله هو الله ثم رسوله . والتوجيه فى القرآن واضح كالشمس فى ضحاها . وفى السنة مُنير كالقمر إذا تلاها فمن اتبع ذلك سار فى ضوء النهار إذا جلاها .

مهما يكن من أمر فمن فضل الله علينا وعلى الناس أننى رأيت ليلة امتحان العقائد رؤيا مفادها كأنى فى لجنة الامتحان وأمامى سبورة وقد كُتب عليها : أجب عن ثلاثة أسئلة وقد كُتب فيها أربعة أسئلة . وقرأت الأسئلة كأنها واقع فى يقظة . وما تداخلت الأسئلة وما التبس بعضها ببعض ، واستيقظنا عند آذان الفجر ، وكان معى من الإخوة ثلاثة غيرى : اثنان من

دمياط وثالث من محافظة الشرقية . وبعد ما فرغنا من الصلاة وعدنا إلى المذاكرة، قلت للزملاء : أحضروا كتاب العقائد الذى سنؤدى فيه الامتحان اليوم لنراجع تلك المواضع وسألوا لماذا هذه المواضع بالذات ؟ قلت : قد يكون الامتحان فى أكثرها وقد لا يتجاوزها . ولم أشأ أن أذكر الرؤيا فقد خشيت أن أرمى بادعاء الصلاح أو التقوى ، فكثيرا ما تتبادر الظنون إلى النفوس وقد جرت عادة الناس أنهم يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة وأنهم لا يلتمسون لغيرهم الأعذار بقدر ما يقيمون عليهم أدلة الاتهام .

تحركت عقارب الساعة ببطء كأنها سلسلة من الجبال ، وأخذنا مقاعدنا فى اللجنة أحطنا علما بالأسئلة قبل مجيئها وقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول فى الحديث الصحيح : **« لم يبق بعدى من النبوة إلا المبشرات ، قالوا : وما المبشرات يارسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة » . ولا أدعى لنفسى صلاحا بل لا أظن ذلك . فاللهم اجعلنى خيرا مما يظنون ولا تؤاخذنى بما يقولون واغفر لى ما لا يعلمون »** .

والرؤيا علم احتل جانبا كبيرا ومساحة عريضة فى علوم الإسلام حتى عُرف به بعض العلماء ومنهم العلامة « ابن سيرين » . وله كتب ضخمة وفى القرآن الكريم رؤى لها شأنها . وهل أتاك نبأ الرؤيا التى رآها ملك مصر ولم يدرك الملأ حقيقتها عندما قصها عليهم الملك فقالوا : أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . ولما قُصّت على يوسف فى السجن كان له فى تفسيرها تخطيط اقتصادى لمصر لمدة طالت إلى خمسة عشر عاما كان آخرها عام فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون حتى قال الملك : ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا اليوم مكين أمين .

ليلة التفسير

لم تكن الرؤيا التى رأيتها ليلة امتحان العقائد النسفية توحى إلىَّ بمعنى التواكل إنما كانت تفيد معنى التوكل والفرق بينهما شاسع والبون بعيد ، فالتوكل مطلوب والتواكل منبوذ غير مرغوب **التوكل** : هو الأخذ بالأسباب مع تفويض عواقب الأمور إلى الله تعالى . قال تعالى : **﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾** وقال جل شأنه : **﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾** وقال تبارك اسمه : **﴿ قل حسبى الله عليه توكلت ﴾** .

أما التواكل : فهو إهمال الأسباب وعدم الأخذ بها كسلا وإهمالا . وهذا يأباه الشرع ويرفضه . ولقد كنا من الذين يأخذون بالأسباب ويفوضون عواقب الأمور إلى الله . كنا ندمج فى المذاكرة اندماجا ينسينا كم الساعة ، ولا نجد ما نرفه به عن أنفسنا إلا أن نذاكر علم

التاريخ . ولقد كنا نصلى العشاء ثم نبدأ المذاكرة فنفاجأ بأذان الفجر . وكم كان يُطوى الزمان بين العشاء والفجر ، تطويه المذاكرة حتى نظن أذان الفجر أذانا للعشاء فلا يَظُنَّنَّ قارىء أن الرؤيا التى رأيتها ليلة امتحان العقائد توحى من قريب أو بعيد بأى معنى يفيد التواكل ، ذلك لأن الأخذ بالأسباب واجب فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . وهل أجرى الله ماء زمزم لهاجر إلا بعد أن سعت بين « **الصفا والمروة** » سبع مرات طلبا للماء . وهل قال المسيح لأمه أجلسى تحت النخلة تساقط عليك رطبا جنيا أم قال لها : وهزى إليك بجذع النخلة . فهذا كله أخذ بالأسباب .

إن الرؤى إنما كانت من باب قوله تعالى : **﴿ فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾** أما ما رأيته ليلة امتحان التفسير : فقد رأيت كأننى أقف على محطة القطار فركب الراكب وتركنى وحدى . وصحت الدنيا على صوت الفجر يؤذن وقمنا وصلينا الفجر وبدأنا نذاكر التفسير استعدادا لدخول الامتحان حتى إذا لم يبق إلا نصف ساعة حضر إلىَّ الكاتب وسألته ولأول مرة : هل أحضرت تحقيق الشخصية فوضع يده فى ملابسه بحثا عنها فلم يجدها ، ولا يسمح له بدخول الامتحان معى إلا بعد أن يقدم للمراقبين فى اللجنة تحقيق الشخصية ، فقلت له : أرجو أن تذهب سريعا فتحضره . وكانت المسافة بين بيته وبين الكلية فى الزاوية الحمراء بعيدة . وسألت الله أن يطوى له الأرض لأننى لو دخلت اللجنة ووُزعت الأسئلة قبل أن يحضر لكان فى دخوله بعد ذلك حرج شديد . وذهبت إلى اللجنة والألم يعتصرنى اعتصارا . فلو أن هذا الامتحان فاتنى لضاعت علىَّ السنة الرابعة فأضطر أن أعيدها وأعانى فى البحث عن رفيق ما أعانى . ولكن لله تعالى له فى خلقه شئون وله فى كل نفس مائة ألف فرج ، وله سبحانه رجالٌ كأنهم يحملون الجنة فى صدورهم لقد جلست فى المكان المخصص لى ، ومكان المرافق شاغر تعلونى ساحبة دكناء ونجم محترق . لكن قطع علىَّ ذلك الصمت الرهيب صوت أستاذ جليل كان يدرس لنا علم العقائد سألنى : أين مرافقك ؟ قلت : يأتى الله به . فقال فى إيجابية وصرامة : فمالى أراك حزينا؟ قلت : لتخلف المرافق . فأقسم بالله : لو لم يحضر لجلس بجانبى وكتب لى ما أملى عليه . ثم أردف قائلا : إن الجميع هنا يعلم أنك طالب مجد ولا يتصور أحد منا أنك فى حاجة إلى من يلقنك الإجابة . وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث إذ حضر الكاتب وقُضى الأمر .

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تفرج

وجميل أن يقول آخر :

لا تضيقن بالأمور فقد ... تكشف غماؤها بدون احتيال
ربما تكره النفوس من الأمر ... له فرجة كحل العقال

من فضل الله تعالى عليَّ أنني حصلت فى مادة التفسير تحريريا على أربعين درجة من أربعين وشفويا على عشرين من عشرين وحفظا للقرآن على ثلاثين درجة من ثلاثين . فكان المجموع الكلى تسعين درجة من تسعين .

امتحان اللغة الإنجليزية

كان على الطالب فى كلية أصول الدين أن يختار إحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية ، وقد اخترت اللغة الانجليزية وكان العجب أن نؤدى نحن المكفوفين الامتحان فيها تحريريا إذ أن ذلك يتطلب أن يكون مع الطالب من يكتب له . فكيف يكتب له اللغة الإنجليزية من لا يعرفها . وإذن لابد أن يكون الكاتب المرافق عارفا باللغة وملما بها . وبناء على ذلك فإنه من الجائز أن يساعد الطالب فيها فكيف فات عليهم ذلك الأمر ؟ وقد وفقنى الله تعالى إلى أخ كان يجيد الإنجليزية كأحد أبنائها ، ودخل معى الامتحان ، لكننى بفضل الله كنت قد أعددت للأمر عدته من المذاكرة ، فحصلت فى هذه المادة على تسعة عشر درجة ونصف من عشرين .

امتحان الفلسفة

كان مقررا علينا فى السنة النهائية من أقسام الفلسفة « الفلسفة الإسلامية » كفلسفة ابن سينا والفارابى والكندى وابن رشد . وكذلك كتاب تهافت الفلاسفة لحجة الإسلام الغزالى رحمه الله تعالى . وحدث ليلة امتحان الفلسفة أن جفانى النوم فظللت فى أرق دائم ودخلت الامتحان وأنا بين النائم واليقظان ، وأنا من الذين يؤمنون أن النوم ليلة الامتحان وأخذ قسط وافر من راحة البدن ، أهم من السهر والمذاكرة .. مهما يكن من أمر فقد دخلت الامتحان وأنا شبه نائم . واستمعت إلى الأسئلة من كاتبى وخيل إلىَّ أنها لم تخطر لى على بال من قبل ، وتوقفت برهة عن الإجابة ، ومددت أكف الضراعة إلى الله أستغيثه وأستعينه وأستهديه أطلب منه العون المدد ، فهو لا يضيع أجر من أحسن عملا . وبدأ القلم يكتب واللسان يملى ، والقلب يضرع ، وانتهى الامتحان ولكن لم أشعر فيه بالطمأنينة إلى النجاح الذى أكنت أنشده . وذهبت إلى المسكن كاسف البال حزينا فقد كان شبح الرسوب يحوِّم على رأسى ، كأنه سحابة دكناء ، أو نجم محرق . ولم أجد مفرا من هذا الشبح الرهيب الذى يطاردنى إلا أن ألجأ إلى الفراش لأنام ، فقد يكون فى النوم راحة . وغفوت غفوة فرأيت رؤيا كانت هى النتيجة فقد رأيتنى وسط جمعة من الأصدقاء فى جوّ طيب قمت

فيه بتوزيع قطع الحلوى عليهم ، وقد جرت عادة الناس فى اليقظة أن يوزعوا مثل هذه الحلوى فى مناسبات السرور والفرح . واعتبرت هذه الرؤيا السكينة التى يلقيها الله فى القلوب لتطمئن وتهدأ . وقمت فعلا مطمئنا واثقا من أن الله تعالى لن يخزينى . وكان ذلك دافعاً لى لمذاكرة المادة التى سأمتحن فيها غدا ، ولولا هذه الرؤيا التى رأيتها ونزلت على قلبى كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى . لولا ذلك لطاردتنى الأشباح السود التى يزينها الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون، وقد منحنى الله فى الفلسفة درجة لا بأس بها ، وانفض سوق الامتحان كما بدأ والدنيا كلها سوق قام ثم انفض ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الرابحين .. وذات يوم كنت أؤدى خطبة الجمعة فى حى التوفيقية ، ولم يكن هذا الحى به مسجد كبير يتسع للأعداد الغفيرة فكانوا ينصبون الخيام اتقاء حر الشمس اللافح عندما يقوم قائم الظهيرة وعندما تضرب الشمس بسياطها الحامية وجه الأرض . وقبل أن أصعد المنبر جاء من يبشرنى بنتيجة الامتحان ، فسجدت لله شكرا على ما أنعم به علىَّ من نعمة النجاح ، فالنجاح كلمة طيبة ، طالما اهتزت لها قلوب الناس ووصل رنينها إلى أعماق الأفئدة .

الترشيح للعمل بالأوقاف

التحقت بقسم تخصص التدريس وكان هذا القسم عبارة عن دراسة لعلوم تربوية كسيكولوجية الطفولة والمراهقة ، وأساسيات التربية ، وطرق التدريس ، والصحة النفسية وخلال هذه الدراسة أعلنوا عن تكريم الأوائل فى الشهادات العليا ، وحُدد لذلك يوم الثامن عشر من شهر ديسمبر بقاعة المحاضرات الكبرى بجامعة القاهرة، وكان هذا على مستوى الدولة بجميع جامعاتها وأقسام الدراسات العليا ، وذكروا أن رئيس الجمهورية سيقوم بتوزيع الجوائز على الأوائل ، وتبادر إلى أذهاننا أننا سننال جانبا من الجوائز المادية يعيننا الله بها على أعباء الحياة القاسية ، وهنا ظلّت أحلام اليقظة تراودنا ، فمن قائل إنه بعد الحصول على هذه المكافأة المالية سيشرع فى الزواج ، ومن قائل إنه سيقوم بتكوين مكتبة فخمة تعينه على القراءة والاطلاع ، ومن قائل إنه سيوسع على أهله الفقراء .. وهكذا أخذ الخيال الخصيب سبيله إلى النفوس الظامئة إلى أن جاء الموعد المشهود ، وأخذ الأوائل مقاعدهم وتربع على المنصة رجال الحكم ونودى على الأوائل بأسمائهم ، وقام رئيس الجمهورية بتوزيع الجوائز ، وكانت عبارة عن عمود وعلبة وظنّ بعضنا أن هذا العمود به شيك ، يصرف من البنك ، وبعد أن انتهى الحفل قام كل منا بفتح العمود والعلبة فإذا العمود شهادة امتياز تقديرية وفى العلبة ميدالية برونزية . وانصرفنا راضين بما قضى الله تعالى ، فعلى المرء العاقل أن يضع نصب عينيه

قول الله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وقول رسوله الكريم : « **ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس** » .

النفس تجزع أن تكون فقيرة والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت فجميع ما فى الارض لا يكفيها

اعلان من مكتب العمل :

أعلن مكتب العمل عن وظائف للخريجين وعلى كل خريج أن يشترى الا الاستمارة ويقوم بكتابة الرغبات ، وكنت أرغب أن أعمل مدرسا بالأزهر أو معيدا بكلية أصول الدين فقد كان ترتيبى الأول ولكن أراد الله - والخير كل الخير فى إرادته، فقد علمنا سبحانه أنه صاحب الإنعام والفضل - أراد أن أعمل إماما وخطيبا « **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار** » .

واستقبلت هذا الأمر وهو تعيينى إماما بمساجد الأوقاف ، استقبلته بقبول حسن ونفسى راضية ؛ فأن يعمل المسلم إماما يقف خمس مرات أمام المصلين متوجها إلى مالك الملك وملك الملوك معتقدا أن الكعبة ، أمامه والموت وراءه ، والجنة عن يمينه ، والنار عن شماله ، والصراط تحت قدميه ، والله تبارك وتعالى مطلع عليه ، هذا شرف لا يدانيه شرف ، ومكانة لا تسامى ، ولا يُلْحَقُ بها ولا يُشق لها غبار .

بل إنى اعتبره اصطفاء من المولى الذى قال : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ وجاء وقت استلام الكتاب الخاص بالتعيين فى الجهة التى ستحددها الوزارة ، وذهبنا إلى مدير عام الدعوة بمبنى وزارة الأوقاف ، وكنت حريصا على أن يكون تعيينى بالقاهرة حيث تقتضى الأمور ذلك ، فإن ارتباطى بالأسرة كان حتما مقضيا لكننى فوجئت بأن كل خريج يدخل على مدير الدعوة يسأله المدير قائلا : من أى المحافظات أنت ؟ فيعينه فى عاصمة محافظته . هذا من الشرقية فيعين بالزقازيق وهذا من الغربية فيعين بطنطا .. الخ . وبناء على ذلك فسوف أُعين بدمنهور عاصمة البحيرة . وظللت واقفا لم أدخل على المدير حتى أعد للأمر عدته بعون من الله ، وسألنى السكرتير الخاص بالمدير : فى أى الأماكن تريد أن تعمل ؟ قلت : بالقاهرة . فعجب وقال لى هذه الكلمة التى مازلت أذكرها ، قال : أرأيت كفك هذا ؟ قلت : نعم قال : لو نبت فيه شعر فسوف تعين بالقاهرة . وكأنه بذلك علق الأمر على مستحيل كما فى قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط** ﴾ .

وقلت له : بإذن من الله وتوفيقه سوف أُعين بالقاهرة . وذلك دائما يقينى فى الله الذى يقول فى الحديث القدسى الجليل : (**عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد**) . وانصرفت لأعود فى الغد إلى مدير الدعوة لكنى انصرفت كاسف البال لما قاله لى ذلك الذى لم يُوَفق إلى كلمة يأسو بها الجراح وأثناء انصرافى سمعت من ينادى علىَّ، إنه رجل بسيط يعمل ساعيا بالوزارة أخبرنى عن اسمه وأنه مواظب على الصلاة معى يوم الجمعة بالمسجد الذى أخطب فيه بحى الشرابية ، وأخبرنى بأنه سيعمل قصارى جهده فى أن يلبى رغبته ، وأوصانى أن أقرأ الليلة يسّ وأن أمر عليه بالغد قبل أن أدخل على المدير وأراد ربك أن يجرى الخير على يديه ، ومررت به فإذا هو يقول لى بتعبيره البسيط « اطمئن كل شيء تمام » ودخلت على المدير وكان مهندسا زراعيا فقال لى مداعبا : لماذا تصر على تعيينك بالقاهرة ؟ فشرحت له الأسباب بالإضافة إلى أن ترتيبى يسمح لى بذلك . فقال : لقد عُينت بمسجد الطيبى بالقرب من مسجد السيدة زينب رضى الله عنها وأحب أن أسمع عنك خيرا . ولم أُرد أن أتكلم بعد ذلك واعتبرت هذا شيئا جليلا ، وأخذت كتاب التعيين ، ونادى علىَّ السكرتير وسألنى : أين عُينت فقلت له بلسان اليقين : بعون من الله عُينت بالقاهرة ولم ينبت فى كفى شعر .

كان بين مسكنى وبين مسجد الطيبى مسافة بعيدة ، فقد كنت أقيم بحى دير الملاك بحدائق القبة وكان المسجد يقع قريبا من حى زين العابدين إلا أن ذلك هان بإزاء العزيمة القوية والحافز الذى كان يدفعنى إلى الإقدام بخطى ثابتة ورباطة جأش قوية . لقد كنت أذهب كل يوم بعد ما وزعت الأيام على نخبة من الشباب الصالح لأعود بعد صلاة العشاء . وأذكر أن أول جمعة أديتها فى هذا المسجد لم يكن به أكثر من صفين اثنين من المصلين وقد كان المسجد يقع فى حى معروف بكثرة - المقاهى ذات اليمين وذات الشمال وكان أكثر رواده من العاملين بالجزارة أو بيع الأسماك ، وكانوا مذاهب شتى فهذا صوفى ، وذاك وهّابى ، وذلك لا هذا ولا ذاك ، مما ضاعف الأعباء علىَّ فى الدعوة ؛ فقد كان لزاما علىَّ أن أوحد الكلمة أولا وأجمع القلوب على كلمة التوحيد كنت أُلقى دروسا بين المغرب والعشاء كل يوم انتظمت علوم الإسلام : التفسير يوم السبت ، والحديث يوم الأحد ، والفقه يوم الاثنين ، والسيرة النبوية يوم الثلاثاء ، وعلم التوحيد والعقائد يوم الأربعاء ، والأخلاق يوم الخميس ، والخطبة يوم الجمعة ، يليها درس بعد الصلاة .. لم يكن بالمسجد مكبر للصوت ، وكان الحصير قد أصابه البلى فأصبحت أرضه عارية .

أخذ الإقبال على المسجد يزيد شيئا فشيئا ؛ فى دروس المساء فقد هجر الناس المقاهى وأقبلوا على بيت الله تائبين مستغفرين وبدأنا نقوم بعمارة المسجد ؛ فتبرع أحد المصلين بمكبر

للصوت ، وقام بعضهم بشراء الحصير ، وازداد الإقبال يوم الجمعة حتى ضاقت الشوارع المحيطة بالمسجد بجموع المصلين . ومازلت أذكر « المعلم حنفى » الذى كان يدور يوم الجمعة أيام الصيف بالماء المثلج يسقى الظمأى » كما مازلت أذكر دور إحدى المسلمات التى كانت تقوم بفرش الحصير خارج المسجد .

جلست ذات يوم فدخل علىَّ « المعلم عطية » قبل المغرب عندما أوشكت الشمس أن تودع الكون ، وجلس بجانبى حزينا وسألته عن حزنه فقال لى : أنت السبب!! وسألته: خيرا . فقال : لقد وصيتنا بأداء صلاة الفجر ولما عدت وجدت القفل قد كُسر وقد أخذ اللص كل محتويات الغرفة ، وهذه أول مرة أُصاب بمثل هذا ! أبعد ما تُبت إلى الله يصيبنى هذا الذى أصابنى؟! وكان هذا الرجل يعمل بائعا للسمك ويقيم فى الغرفة وحده . ولابد أن يكون الجواب منطقيا ومقنعا فقلت له : وهل هذا يدعو إلى أن تحزن ؟ إن الإنسان عندما يتقدم للعمل بإحدى الوظائف لا يستلم عمله إلا بعد أن يقدم مسوغات التعيين ، وأنت اليوم قد تقدمت للعمل فى ساحة الرحمن جلَّ جلاله فلابد من مسوغات التعيين وهاأنت ذا قد قدمتها بصبرك على البلاء ، فكن قرير العين ، مطمئن القلب فقد قال ﷺ : « **ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يُشاكها وصبر عليها إلا كفَّر الله بها من خطاياه** » . ورضى الرجل بقضاء الله بعد ما أنزل الله برد السكينة على قلبه وأصبح من أوتاد المسجد الذين ما أذَّن المؤذن للصلاة إلا وهم داخلها لا تفوتهم تكبيرة الإحرام وراء الإمام « **إن للمساجد أوتادا جلساؤهم الملائكة إن غابوا افتقدوهم ، إن كانوا مرضى عادوهم وإن كانوا فى سفر دعوا الله لهم** » صدق رسول الله ﷺ .

إن العمل فى مجال الدعوة إما أن يكون وظيفة أو رسالة ، فما أيسره إذا كان وظيفة تعتمد على التوقيع فى دفتر الحضور والانصراف : وما أعظمه إذا كان رسالة تقوم على الصدق والصبر والشجاعة .

إن الداعية إلى الله يجب أن يكون قدوة صالحة بصيرا بزمانه شجاعا فى الحق لا يمارى ولا يوارى ، صبورا على تحمل الشدائد متفانيا فى قضاء حوائج العباد واسع الصدر كريم الخلق ، لا يمل ولا يضجر ولا يضيق صدرا بمشاكل العباد وعليه أن يعتقد أن الله تعالى لا يضيع له أجراً ، فهو من عباد الله الذين اختصهم لقضاء حوائج الناس .

خطبة موجهة

تؤدى خطبة الجمعة رسالتها المنشودة إذا كانت مُوَجِّهة (بكسر الجيم) . ولكنها تصاب بالعرج والعقم إذا كانت مُوَجَّهة (بفتح الجيم) . والفرق شاسع بين كسر الجيم وفتحها . فالخطبة الناجحة هى التى تنبع من مناهل الإسلام العذبة ، لا تعكرها شائبة من رياء أو نفاق أو مجاملة على حساب الدين . يبين الخطيب فيها أحكام الله وتوجيهاته وإرشاداته على لسان رسوله ، يعالج فيها المشاكل المحلية والعالمية فى ظلال الإسلام الوارفة ومنابعه الصافية . وعلى الخطيب أن يكون بصيرا بزمانه مدركا لأحداث الأيام فيعالج أولا بأول ليضرب والحديد ساخن لأن الأحداث إذا بردت وذبلت بطول الأيام أصبح الكلام فيها أوعنها كلاما تموت ألفاظه على الشفاه . وإذا كانت التربية فى الإسلام تقوم على القدوة والموعظة والقصة والعقوبة ، فإن الأحداث لها نصيب موفور فى مناهج التربية . وهل كانت قصة الذين خُلفُوا وهم الثلاثة الذين ورد ذكرهم فى سورة التوبة ، هل كانت هذه القصة إلا ضربا فى الحديد وهو ساخن ، ودرسا للأمة الإسلامية يفيد أن الصدق منجاة وأن الإيمان أن تُؤثِر الصِّدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك؟ إن الثلاثة هم : هلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك. لقد تاب الله عليهم لما علم فيهم الصدق ، وجاءت نتيجة الدرس بعد ذلك مركوزة فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ .

نعم . ما أعظم الخطبة إذا كانت ذات هدف ومغزى وقيمة وما أجلها إذا كانت كالمائدة التى يستفيد منها الصحيح والمريض ، كل يأخذ من الطعام ما يلائم صحته ولا يضر بها . كذلك الخطيب الناجح يراعى فى خطبته الحال التى عليها المستمعون فيقدم للخاصة وللعامة وأصحاب الثقافات العالية والمتوسطة يقدم لهم من العلوم والمعارف ما يناسب عقولهم . إنه إن فعل ذلك فقد احترم مستمعيه وإن أنس لا أنسى يوم توجهت إلى مسجد الطيبى لأؤدى خطبة الجمعة بعد أن مضى على تعيينى ثلاثة أشهر . وقبل أن أصعد درج المنبر فوجئت بأحد العاملين فى المسجد يتقدم إلىَّ بمنشور من وزارة الأوقاف فدفعته إلى مرافقى فإذا هو فيه « يُنبه على خطيب الجمعة أن يكون موضوع خطبته اليوم حث المصلين على العناية بتنقية دودة القطن حيث القطن ثروة ذات عطاء اقتصادى للأمة » وأشهد أننى أصبت يومها بوجوم لا من أجل المفاجأة وأن الموضوع جاء متأخرا إذ كان ذلك قبل صعود المنبر بنصف الساعة ليس إلا. لم يكن الوجوم دافعه هذا، إنما كان دافعه أشد عمقا. إن دافع الوجوم هو

التفكير فى حقيقة هذه العقليات التى تُصر على أن تكون الخطبة مُوَجَّهة وأن يصير الخطباء أدوات مُوَجَّهة ، وأن يتحولوا إلى أسْرى لدى أصحاب المكاتب . فكيف أخطب فى موضوع يحث المصلين على تنقية دودة القطن وجمهور المسجد الذى أخطب فيه أحد رجلين : إما تاجر أسماك وإما جزّار والأقلية من متوسطى الثقافة؟! فهل أتخلى عن عقلى وإدراكى وأخطب لأتهم من المستمعين بعد ذلك بالجنون ؟ عافانا الله منه وعفا عنا . ولكن ماذا أصنع ؟ وهذه الخطبة يكتب عنها تقرير يترتب عليه أمور تتعلق بصلاحيتى فى الخطابة . والرجل الأريب العاقل هو الذى يقول كلمة الحق دون أن يسمح للآخرين أن يتسلقوا على كتفيه . وليست الشجاعة تهوراً ، إنما الشجاعة حكمة وقوة إيمان وبعد نظر . فكيف تصرفت لأكسب الجولة؟ إن البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ولكل مقام مقال فالرجل الذكى يُخاطب بغير ما يخاطب به غيره . وفى الإشارة ما يغنى عن العبارة وفى التلميح ما يغنى عن التصريح ، وكان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ،رضى الله عنه،كلمة يقول فيها : « **لا تبغضوا الله تعالى إلى عباده** » . وما أشد حاجة الدعاة إلى الله أن يتفهموا معنى هذه الكلمة الفاروقية ، فالحالة النفسية للمستمع يجب أن يكون لها أعماق وجذور فى كلام الناصح الفصيح .

فعلى وجه المثال : إذ دُعيت لإحياء ليلة زفاف بكلمة دينية فليكن حديثك مناسبا للموضوع الذى يدور فيه الحفل ، فتختار من النصوص ما يلائم ذلك كقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ .. هذه هى البلاغة . فإذا ما تركت هذا النص وبدأت تفسر قوله تعالى : ﴿ **فإن طلقها فلا تحل له من بعد** ﴾ فقد بغضت الناس فى كلام الله لأنك لم تطابق مقتضى الحال . وإذا ما دُعيت لإلقاء كلمة فى مناسبة صلح بين متخاصمين فليكن كلامك فيما يقتضيه الحال كقوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ . فإذا ما تركت الكلام فى مثل هذا النص ودار حديثك فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا جاءنا قال : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين** ﴾ . فقد جانبك التوفيق وقد بعدت عن الهدف المنشود .. وإذا ما دُعيت لافتتاح مسجد فعليك أن تختار من النصوص ما يناسب المقام كقوله تعالى : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ أما إذا عدلت عن هذا النص وجعلت موضوع حديثك ما جاء بشأن مسجد الضرار والذى قال الله تعالى فيه : ﴿ **والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون لا تقم فيه أبدا** ﴾ إنك إن فعلت ذلك فقد بغضت الله تعالى إلى عباده .

بعد سألت ربى أن يلهمنى التوفيق فيما أقول . وكان ربى بى رحيما فوفقنى إلى أن أتكلم فى تفسير سورة النحل وهى سورة تعتبر مؤسسة اقتصادية اشتملت على مصادر الإنتاج فى شتى أنواع الثروات بدأها العلى الحكيم بخلق الإنسان بعد أن أمر بالتوحيد والتقوى . فقال سبحانه : ﴿ **خلق الإنسان من نطفة** ﴾ ثم انتقل النظم الكريم إلى الثروة الحيوانية فقال تعالى : ﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون** ﴾ إلى قوله جلّ شأنه ﴿ **ويخلق ما لا تعلمون** ﴾ . ثم انتقل النظم الكريم إلى الثروة النباتية فقال جلّ ذكره : ﴿ **هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ .

وهنا تحدث عن الزرع والثمرات وأنهما من نعم الله تعالى . ومن الزرع والثمرات القمح والشعير والأرز والذرة والقطن وواجب المسلم أن يحافظ على تلك النعم فلا يتركها كلأ مباحا للحشرات وأمراض النبات . ولما كان القطن ثروة من أغلى الثروات ، كان على المسلمين أن يحموه من هذه الحشرة التى تفتك به ، ثم انتقل النظم الكريم إلى عالم الفلك فقال تعالى : ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار . والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره** ﴾ ثم انتقل إلى ما فى باطن الأرض من معادن وكنوز فقال جلّ شأنه : ﴿ **وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه** ﴾ وقال الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه : « **التمسوا الرزق فى خبايا الأرض** » ثم ينتقل النظم الكريم إلى عالم البحار فيقول جلّ شأنه : ﴿ **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون** ﴾ . وهكذا إلى أن تنتقل بنا الآيات إلى مدينة قرآنية قامت فيها صناعات شامخة : فهذه مصانع الألبان تنطق بلسان الوحدانية ﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة** ﴾ وتلك مصانع الحلوى ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا** ﴾ . وهذه مصانع العسل ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا . ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذُللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ . وقد سمى الله تعالى هذه السورة بسورة النحل لأن النحل أكبر عالم من علماء الاقتصاد ، فهى تعطى أكثر مما تأخذ ، تمتص رحيق الزهر فتخرجه لنا شهدا فيه الشفاء والدواء والغذاء وهكذا أديت خطبة الجمعة التى أرادوها مُوجَّهة (بفتح الجيم) وأرادها الله مُوجِّهة (بكسر الجيم) والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

سياحة فى بيوت الله

أثناء عملي بمسجد « الطيبي » كنت أنتدب لإلقاء خطبة الجمعة ودروس المساء فى عدد من المساجد، ومن هذه المساجد مسجد صلاح الدين بالمنيل ومسجد « الحبيبي » بحى السيدة ومسجد « السيدة زينب » حيث كنت أقوم بإلقاء دروس بعد صلاة التراويح فى رمضان . وفى الانتقال خير كثير حيث إن معرفة الناس كنز ، والاتصال بهم قوة والوقوف على مشاكلهم وإبداء الحلول لها سعادة . وإن كان الحنين دائما يشدنى إلى مسجد « الطيبي » حيث لا أنسى هذه الأوقات الطيبة التى كنت أقضيها مع إخوة فقراء تتخلل مجالسهم أذكار وصلوات على النبى المختار ، لا يحدثون بلغة البنوك أو تشييد القصور أو أنواع السيارات الفارهة، إنهم الذين قال الله فيهم لرسوله : **﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾** لقد كان الصادق المعصوم يبسط لهم رداءه ويجلسهم عليه ويقول لهم : « مرحبا بمن أوصانى ربى بهم خيرا » ، وهم الذين قال الله فيهم لرسوله الكريم : **﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه . ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾** إن الجلوس مع الفقراء دواء للنفس، فيه الشفاء ، إذا ما تمردت النفس على قضاء الله وقدره . **يقول تعالى فى حديثه القدسى الجليل : (ابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك ، لا بقليل تقنع ولا من كثير تشبع إذا كنت معافى فى بدنك ، آمنا فى سربك عندك قوت يومك ، فعلى الدنيا العفاء)** . صدقت ربنا وبلغ رسولك . وصدق رسولك إذ يقول : **« من أصبح وهمه الدنيا فرّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولا ينال من الدنيا إلا ما كتب الله له . ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة »** .

وإذ يقول :

« من أصبح حزينا على الدنيا فقد أصبح ساخطا على الله ، ومن شكا مصيبة نزلت فكأنما يشكو الله عز وجل . ومن قعد إلى غنى لينال من ماله فقد ذهب ثلثا دينه » وصدقت يارسول الله إذ قلت فى خطبتك الجامعة : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب

الناس . طوبى لمن عاشر أهل العلم والحكمة وخالط أهل الذل والمسكنة » ، وصدق صاحب البردة إذ يقول فيك :

وراودته الجبال الشم من ذهب   عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته   إن الضرورة لا تعدو على العصم

مرحلة أخرى من الدعوة

كنت قد حصلت على تخصص التدريس وهو إحدى الشهادات الأزهرية التى تسمى « العالمية مع تخصص التدريس » . وهى شهادة تخول لحاملها أن يعمل مدرسا بالأزهر . وكان حصولى عليها أثناء عملى بمسجد الطيبي . لكنى قد أخذت طريقى إلى الله بالدعوة فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وما ترددت يوما فى سلوك هذا الصراط المستقيم . وبعد انقضاء عامين فى مسجد الطيبي قامت الوزارة بتوزيع استمارات على الأئمة لمن يرغب فى الانتقال إلى مسجد آخر والحق أقول : ما كنت أود الانتقال من مسجد الطيبي لولا بعد المسافة وزحام المركبات وكثرة ما أعانيه مع مرافقى فى هذا المضمار . لقد ألفت هؤلاء الناس وألفونى ، وأحببتهم وأظنهم قد بادلونى الشعور فأحبونى . وما زلت أذكر هذه اللحظات الطيبة التى كنت أتناول فيها طعام الإفطار فى رمضان مع لفيف من الإخوة الفقراء الكرماء ، فكان كل يجود بما عنده ، ويتصدر المائدة طبق الفول، والفول فى الأحياء الشعبية تنبعث له رائحة زكية يسيل لها لعاب الجائع ويقوم « عم أحمد » خادم المسجد بعمل الشاى بعد تناول الإفطار حيث تدور الأكواب وكأنها الماء الزلال للظمآى . وللشاى عند الفقراء رائحته وطعمه الجميل وكنت أظل معهم حتى أصلى بهم صلاة القيام ، فكانت ساعات مباركة وأماكن طيبة تذكرنى بقول شوقى :

قد يهون العمر إلا ساعة   وتهون الأرض إلا موضعا

نعم كان عزيزا على نفسى أن أفارق تلك القلوب ذوات الشفافية ، وشوق إليها يتجدد كل يوم . وكما يقول أبو الطيب المتنبى :

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا   لودعت شيبى موجع القلب باكيا

وكتبت رغبتى فى الانتقال إلى « جامع الملك » بحى حدائق القبة وبشارع مصر والسودان ، وذلك لقربه الشديد من مسكنى ويعتبر أكبر مسجد فى الحى وكان بينه وبين مسكنى مسافة لا تزيد عن خمس دقائق مشيا على الأقدام بحيث كنت أسمع أذانه وأنا بالبيت فكان ذلك دافعا لى إلى الانتقال ، ففيه توفير للوقت الضائع فى المواصلات ، والوقت للداعية

لا يُقدر بمال ، وقد قالوا فى الحكمة : الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك . وقالوا : « الوقت من ذهب » .

وكفاك الله شر انتظار المواصلات . إن انتظارها فى حاجة إلى رصيد من صبر، وقد جعلت وزارة الأوقاف للمساجد رجالا سمتهم بالمفتشين . فقد تخونك المواصلات أو يصيبها العطل فى الطريق ، ثم تذهب إلى المسجد متأخرا فيخبرك خادم المسجد بأن فضيلة المفتش قد مرَّ ، وقد ترك تأشيرة فى دفتر الأحوال فتقرأ التأشيرة فإذا هو قد كتب فيها : « مررت بعد العصر والإمام غير موجود ولم يعتذر وعليه الحضور إلى الإدارة للتحقيق معه » . التوقيع فلان الفلانى مفتش المساجد .. إلى غير ذلك من المآسى . وقد شاء الله تعالى أن ييسر هذا الأمر ، فكان بجامع الملك خطيب قبل طلب نقله إلى شبرا قريبا من مسكنه وأصبح المكان شاغرا . فانتقلت دونما عناء أو بذل جهد والله إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون .

فى مسجد الملك

فى اليوم الخامس من شهر مايو ١٩٦٤ بدأت العمل خطيبا ومدرسا وإماما فى هذا المسجد . ويقع هذا المسجد فى منطقة حدائق القبة فى شارع مصر والسودان وفى حى دير الملاك تحيط به مجموعات كثيرة من النصارى . المسجد فى بنائه فخم ضخم ، فُرشت أرضه بسجاد فاخر ، ونُقش سقفه نقشا فنيا بديعا وجهاز الصوت فيه قوى ، وأجهزة التهوية والنوافذ تنعش النفوس . وذكرنى هذا بحال المساجد فى فجر الإسلام ، وحالها فى أيامنا هذه . ففى فجر الإسلام كانت المساجد فى غاية البساطة والتواضع . ومسجد الصادق المعصوم خير شاهد على هذا ، فقد كان سقفه الجريد وكانت أرضه الحصباء ، ولكنه خرَّج العمالقة . فقد تخرج فيه المصلح العظيم كأبى بكر والزعيم الملهم كعمر ، والحيىّ الكريم كعثمان ، والعبقرى الفذ كعلى ، والقائد الجبَّار كخالد والمفتى الخبير كابن عباس ، والمحدث الجليل كأبى هريرة ، وأستاذ الزهد كأبى ذر ، والفيلسوف البارع كسلمان الفارسى . فاسألوا التاريخ فى أى الجامعات تخرج هؤلاء ؟ لم يتخرجوا فى جامعات الشرق أو الغرب إنما تخرجوا فى جامعة عميدها المصطفى محمد ﷺ . وعلى امتداد العصور والدهور خرَّجت المساجد عباقرة البشر وأساطين الفكر وجهابذة العلوم وأساتذة الأخلاق والحضارة والثقافة فابن سينا والفارابى وابن البيطار والحسن بن الهيثم وجابر بن حيان والخوارزمى وثابت بن قرة والجاحظ والبتانى . هذه نجوم لمعت وسطعت فى سماء الدنيا فى الكيمياء والفيزياء والأحياء والطب والرياضة والفلسفة والفلك ، ونقل الغرب عنها وأقام حضارته على ما أبدعت وأنجزت . عبرت تلك العلوم وهذه الحضارات والثقافات إلى الغرب عن طريق الأندلس

والحروب الصليبية والقسطنطينية ، فسطعت فى سماوات باريس ولندن وواشنطن وغيرها من العواصم ثم نظرت إلى حال المساجد فى عصرنا هذا وكيف صارت عملاقة شامخة البناء ولكن بناء القلوب والنفوس يمثل النزر اليسير . فماذا حدث ؟ لقد حذَّر الرسول ﷺ من زخرفة المساجد حتى لا يكون ذلك على حساب الجوهر الأصيل فقال : « **إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم** » . ذلك لأن كثيرا من الناس قد يشغله الظاهر فينصرف إليه عن الباطن وتشغله القشرة عن اللب فيغفل عن رسالة المساجد التى قال الله تعالى فيها : ﴿ **فى بيوت أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾ . لقد كانوا يفخرون قديما بالذين يتلقون علومهم فى ساحات المساجد فيطلقون على الواحد منهم لقب « هذا مسجدى » كما نقول نحن اليوم « هذا جامعى » .

كان الجمع الذى يصلى فى جامع الملك غير كثير ولقد كنت أتردد على هذا المسجد وأنا طالب بالأزهر قبل أن أعمل بالمساجد الأهلية فكان الحاضرون فى صلاة الجمعة يقفون فى صفوف متباعدة بحيث يكون بين الصفين مكان يتسع لصفين آخرين . وكانت النوعية التى تؤم هذا المسجد من الطبقة المثقفة ففيه من السجاد والنظافة ما يغرى هؤلاء بالذهاب إليه ، وكان بالمسجد حديقة غنَّاء ملحقة به ، وقد اعتمدت على الله تبارك وتعالى ودعوت إليه على بصيرة ، وأقبل الناس على الدروس والخطب ، وأخذ العدد يزداد فى دروس المساء التى كانت تمتد من المغرب إلى ما بعد العشاء كل يوم . وقد تنوعت مواد الدراسة فيها من تفسير إلى حديث إلى فقه إلى تاريخ إلى عقيدة إلى أخلاق بالإضافة إلى خطبة الجمعة ودرس بعدها وخصصت الوقت من بعد صلاة العصر إلى آذان المغرب للإجابة عن الأسئلة والفتاوى وحل المشكلات ، كما قمت بالإشراف على المدرسة المخصصة لتحفيظ القرآن الكريم والملحقة بالمسجد فآتت أكلها فى خير وبركة . ولما كان الكثير من الطلبة فى حاجة إلى دروس التقوية فى المواد ولا يجدون ما ينفقون فقد دعوت إلى التدريس للكبار والصغار فى دروس التقوية وفى مختلف المراحل الدراسية حتى الشهادة الثانوية واشترطت أن يكون ذلك بالمجان .

وقد اخترت لذلك إخوة نذروا نفوسهم لله . وكنت أقوم بتدريس اللغة العربية لطلبة الثانوية . ويقوم أخى الفاضل « عبدالرحمن الزينى » بتدريس اللغة الانجليزية ويقوم إخوة آخرون بتدريس بقية المواد . وسارت الأمور فى جو معتدل بجد وحزم واجتهاد ، كما سارت أمور المسجد بنظام وجد . وضاق المسجد بالمصلين يوم الجمعة ، فتبرع أحد رواد المسجد بتشييد بناء على أرض الحديقة يقى المصلين شدة الحر والبرد والمطر . وضاق البناء بالمصلين ولم يبق هناك موضع قدم فى أرض الحديقة ، فقمنا بشراء كميات هائلة من الحصير حيث فرشنا بها الشوارع المحيطة بالمسجد حتى ضاقت هى الأخرى مما كان يؤدى

إلى تحويل مرور السيارات من شارع الملك إلى شارع آخر . ورأيت أن أجعل رسالة المسجد رسالة عامة تنتظم أنشطة المجتمع ، فجعلته يمثل خمس وزارات الثقافة ، والإرشاد فى خطبة الجمعة ، ودروس المساء ، التربية والتعليم* فى التدريس للطلبة ، **الصحة** وذلك عندما دعوت الأطباء لعلاج الفقراء بالمجان فلبّى عدد كثير منهم النداء فأرسلوا إلينا بتذاكر العلاج فى مختلف التخصصات الطبية فكان الفقير يأخذ التذكرة الخاصة بمرضه ويذهب بها إلى عيادة الطبيب مرفوع الرأس موفور الكرامة دون أن يكون هناك عوائد مالية لكنه كان المقصود به وجه الله تعالى : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق . ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ . ولقد تقدم بعض الصيادلة لصرف الدواء مجانا ، وكان المسجد أيضا يمثل **وزارة العدل** . فقد كُونت لجنة للمصالحات وفض المنازعات والفصل فى الخصومات . وكم من مشاكل حُلّت بإذن الله وقد كادت تدمر بيوتا وتقوض نفوسا . كذلك قامت بالمسجد لجنة تمثل **الشئون الاجتماعية** تبحث أحوال الأسر الفقيرة ، فتجرى عليها المعونات الشهرية والكسوة فى الشتاء والصيف ، بالإضافة إلى المواد تموينية فى الأعياد والمواسم وتوزيع اللحوم فى عيد الأضحى فقد يكون هناك بيوت لا ترى اللحم إلا قليلا يقول فيها شاعر النيل حافظ إبراهيم :

عزّت السلعة الذليلة حتى ... بات مسح الحذاء خطبا جُساما
وغدا القوت فى يدى الناس كالياقوت ... حتى نوى الفقير الصيام
ويخال الرغيف فى البعد بدرا ... ويظن اللحوم صيدا حراما
إن أصاب الرغيف من بعد كد ... صاح من لى بأن أصيب الإدام
أيها المصلحون رفقا بقوم ... قيد العجز شيخهم والغلام
وأغيثوا من النفوس غلاً ... قد تمت مع الغلاء الحِمام
أنقذوا أنفسا أضرّ بها الفقر ... وأحيا بموتها الآثام

الحاقدون يتحركون

ما من عمل ناجح فى الحياة إلا وتكتنفه شدائد ومحن ، فالحاسدون فى الدنيا كُثُر ، والنفوس المريضة تملأ جنبات الحياة وتعربد فى عرصات الدنيا وتنفث سمومها الناقعات . وخفافيش الظلام تعمى عن رؤية الأجسام البينة لنا فى ضوء الشمس . وقد جعلت شعارى دائما فى الحياة قول الله جلّ شأنه : ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ فعلى كل إنسان يعمل فى ميدان الدعوة أن يتحلى بالصدق والأمانة والصبر والشجاعة وأن يقول الحق ولو كان مرا ولا يخشى فى الله لومة لائم :

اصبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

وعلى الداعية ألا يضيق صدرا بالأمور فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، وكلما اشتد الكرب هان ، والعظائم كفؤها العظماء ، فلا يكن فى صدره حرج من قول الأعداء وتقوّل الشامتين :

ولا تجزع لحادثة الليالى ... فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلا على الأهوال جلدا ... وشيمتك السماحة والوفاء
يغطى بالسماحة كل عيب ... وكم عيب يغطيه الحياء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع ... فأنت ومالك الدنيا سواء
ومن نزلت بساحته المنايا ... فلا أرض تقيه ولا سماء
وأرض الله واسعة ولكن ... إذا نزل القضا ضاق الفضاء

وليعلم الدعاة إلى الله أن طريق الدعوة ليس مفروشا بالورود والأزهار ، إنما الطريق صعب تحفة الشدائد والمحن ، فماذا تتوقع لعمل نجح النجاح المرجو منه فى كل المجالات وشتى الميادين . ضاق المسجد برواده ، وضاقت الأماكن والطرق التى تحيط به . وأدت المدرسة دورها كاملا غير منقوص ، ونجحت لجانه الخمس . والذى أراه جديرا بالذكر فى هذا المقام أن أعدادا كثيرة من النصارى أعلنت إسلامها وجاءت إلى المسجد تسعى بوجوه مُسْفرة ضاحكة مستبشرة . وكان للمسجد حفلات يقيمها على امتداد العام يبدؤها بالاحتفال بذكرى الهجرة النبوية الشريفة يلى ذلك الاحتفال بذكرى المولد النبوى الكريم ، يليه الاحتفال بذكرى الإسراء والمعراج ثم يأتى شهر رمضان فتقام فيه الاحتفالات بغزوة بدر وفتح مكة وليلة القدر . كل هذا النجاح كان دافعا قويا وحافزا ضاغطا لنفوس مريضة أن تتحرك فى الظلام تريد أن تطفىء نور الله بأفواهها ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . لقد أقمنا للنصارى الذين أسلموا حفلا إسلاميا ما زالت ذكراه ترن فى الآذان وتسرى سريان الكهرباء فى أسلاك البلاتين . لقد هاجت عقارب البغضاء وتحركت ثعابين الحقد فى قلوب أصيبت بداء الحسد وكفى به فأخذت تخبط خبط عشواء ، وأخذت الشكاوى الكيدية تتوالى والأحقاد تزحف . فبدأت الاستدعاءات إلى جهات الداخل فيها مفقود والخارج منها مولود .

الأحداث تتتابع

وإنما قلت «الأحداث تتتابع» ولم أقل «الأحداث تبدأ» لأن الأحداث قد بدأت منذ زمن غير قريب . أذكر وأنا أعمل فى مساجد إحدى الجمعيات الإسلامية كنت ألقى درس المساء يوم الجمعة من المغرب للعشاء وكان هذا المسجد يسمى «مسجد المنوفى» ويقع فى حى الشرابية . وأشهد أن هذا المسجد كانت له نفحات وبركات وكان رواده من ذوى النفوس المطمئنة وأصحاب القلوب الطيبة الراضية النقية . كان يقع بالقرب من هذا المسجد مسجد يتردد عليه كثير من رجال الوعظ . وكان يشرف على هذا المسجد القريب من «مسجد المنوفى» رجل يعمل بالوعظ . لكنه كان يدعو كبار الوعاظ ليلقوا الدروس فى هذا المسجد الذى يقوم بالإشراف عليه . وقد تحركت نفسه بما لا أحب أن أذكره من غيرة وحسد علىّ وعلى الرواد الذين تكاثر عددهم يوما بعد يوم حتى بلغ من حسده أنه بغى وطغى . والرسول ﷺ كان يقول : «**إذا حسد أحدكم فلا يبغى**» ومن هنا جاء قوله جل شأنه ﴿**ومن شرّ حاسد إذا حسد**﴾ فقد قيّد الله تعالى الحاسد هنا بالحسد مع أنه حاسد ذلك لأن المقصود (إذا حسد) أى بغى وانتقل من مرحلة زوال النعمة إلى مرحلة الأذى والبغى والطغيان وإلا فإن الحسد والطيرة والظن لا يسلم منها أحد ، لكن طبيب القلوب ﷺ بعد ما شخّص الداء وصف الدواء فى قوله : «**فإذا حسد أحدكم فلا يبغى وإذا تطيّر فلا يرجع وإذا ظنّ فلا يحقق**» أى ظنه جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا**» .

بلغ من بغى هذا الرجل علىّ أنه كان كثيرا ما يقدم الشكاوى الكيدية إلى جهات قد يكون ضررها فادحا ، وكان كثيرا ما يكتب فى شكواه أننى لا أدعو للحاكم من فوق المنبر ... إلى غير ذلك من المكايد والمصايد والشباك والشراك ، وهو يعلم أننى طالب أسأل الله العافية والعفو ... حدث أنه أراد أن يوقع بينى وبين أحد الشيوخ بحيث يظهرنى أمام هذا الشيخ (وكان من كبار الوعاظ) أننى بالنسبة إليه قليل العلم . فدعا إلى حفلة تقام بمناسبة الهجرة النبوية الشريفة وقال إن هذا الحفل سيقتصر على شيخين اثنين كنت أنا أحدهما وكان الآخر هو الشيخ «عبداللطيف مشتهرى» وأراد أن يضرب كلا منا بالآخر ، ولم يكن قد استأذننى قبل أن يعلن اسمى ، لكنه بذلك قد وضعنى فى وضع حرج : فإما أن أعتذر عن الحضور فتكون الصورة غير كريمة لأنه حفل يتعنى بذكرى من أعظم الذكريات لأعظم

الرجال فكيف أعتذر ؟ وإن أنا أجبت الدعوة فقد يحدث مالا تُحمد عقباه من هذا الرجل ، فالحفل سيقام فى مسجد يشرف هو عليه وله أعوانه وأنصاره وبطانته ، لكن من كان الله معه فمن عليه ؟! ومن وجد الله فماذا فقد ؟ فمن اعتمد على ماله قلّ ومن اعتمد على الناس ملّ ، ومن اعتمد على جاهه ذلّ ومن اعتمد على علمه زلّ ، ومن اعتمد على عقله ضلّ ومن اعتمد على نفسه اختلّ ومن اعتمد على الله فلا قلّ ولا ملّ ولا ذلّ ولا زلّ ولا ضلّ ولا اختلّ .

قال تعالى : ﴿ **فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلّا إن معى ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثمّ الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين**﴾ . وجلّ جناب الحق إذ يقول عن الحبيب وصاحبه : ﴿ **إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا** ﴾ .. وقد قالوا فى الحكمة : خير علاج للشدائد اقتحامها » .

فكان أسلم طريق للخروج من هذا المأزق أن ألبى الدعوة معتمدا على الله وحده . وأعلنت على المصلين استجابتى للدعوة كما أعلنت الزمان والمكان الذى سنلتقى فيه وذهبت إلى المسجد الذى سيقام فيه الحفل ، فجمُع الناس لميقات يوم معلوم ، وازدحم المسجد بالمصلين حتى درج السلم ، وكان حفلا شاغا ، وكان أكبر ظنى أن كثيراً من الحضور ما جاءوا ليسمعوا درسا أو علما بقدر ما جاءوا ليشهدوا مباراة بين ناديين ، وحضر الشيخ «مشتهرى» وحضرت قبل المغرب وكان فى سن والدى ، وأُذن للصلاة ثم قمنا فصلينا ركعتين قبل المغرب قال عنهما الصادق المعصوم ﷺ : «**صلوا قبل المغرب « لمن شاء »**» **وأقيمت الصلاة . فأقسم الشيخ لأصلينّ إماما فكانت هذه الخطوة بمثابة نصر من الله وفتح قريب ، فما كان أحد من الذين جاءوا بقصد رؤية نصر مادى بمفهومهم المتواضع يتوقع هذا . وبعد الفراغ من الصلاة وختامها ساد المسجد صمت عميق ، فالكل يتساءل فى نفسه : من الذى سيتحدث أولا ؟ فإذا تحدثت أولا وتحدث الشيخ بعدى فقد يستطيع بعلمه أن ينسى الناس ما سمعوه منى ، وإذا تحدث هو أولا فقد يحيط بجميع العناصر المتعلقة بموضوع الحديث فى ذكرى الهجرة : فإما أن أعيد ما قال فأضرب فى حديد بارد وإما أن أتحدث فى موضوع غير الموضوع المخصص للحفل فيكون هذا هروبا مبنيا على إفلاس علمى وتلك ثالثة الأثافىّ . وهذا ما كان يبغيه أنصار هذا الذى دعا إلى الحفل . لكن فوق تدبيرنا لله تدبير ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .**

أوشك الحفل أن يبدأ وإذا الشيخ يصمم على أن أكون أنا المتكلم الأول وبدأت الحديث بهذا القنوت الجليل : « **اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثنى عليكْ الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك . اللهم إيَّاك نعبد ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد . نرجو رحمتك ونخشى عذابك . إنا عذابك الجد بالكفار ملحق وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، ثم ذكرت هذا الشعار الحبيب إلى نفسى ، هنا مدرسة محمد ﷺ الجالس معنا فيها يجب أن يقدم التحية العاطرة المباركة للحبيب محمد . وتحيتنا إليك ياسيدى ياأبا القاسم يارسول الله هى الصلاة والسلام عليك** » .

صلَّت عليك ملائك الرحمن	وسرى الضياء بسائر الأكوان
لما طلعت الوجود مزودا	بحمى الإله وراية القرآن

وساد الحفل خشوع للرحمن وخضوع بإيمان ، وسرت صيحة الحق مسرى النور ، يحى الموات ويضيء غياهب الظلمات ، ورأيتنى أستطيع أن أقول من العلم مارزقنى الله به فقد شعرت بتجاوب تام بينى وبين المستمعين ، وكانت تلك النفوس التى تجاوبت إنما اندمجت فى حب رسول الله ﷺ ، كما كانت القاعدة التى أنطلق منها فى أحاديثى أن يكون بينى وبين المستمع لغة فريدة هى لغة لاسلكى القلوب . وانطلقت فى حديثى مسترسلا بفضل من الله ، فلا أسمع من الجالسين إلا عبارات الإعجاب والرضا مما كان يمدنى بطاقة قوية وزاد طيب . وإذا أذان العشاء يهز القلوب من الأعماق . وكنت أود أن أختم الدرس بعد العشاء لأترك المجال لفضيلة الشيخ « مشتهرى » ولكنى شعرت بالرجل يهمس فى أذنى طالبا منى أن أصل الحديث ، فكانت هذه العبارة أيضا بمثابة طاقة دافعة ، فقد مضت الفترة من المغرب إلى العشاء كأنها نسيم الأسحار أو أريج الأزهار أو تغريد الأطيار ، أو حفيف أوراق الأشجار ، مضت وكأن القلوب قد هبت عليها نسمات عاطرة وظننت أن الشيخ سيتحدث ، لكنه آثر أن نصلى العشاء أولا ، وقدَّ منى إماما ، وبعد الصلاة أخذ مكانه للحديث ، وصمت الجالسون ، وخشعت الأصوات وصمت الكل فى انتظار ماذا يقول الشيخ عنى ، وكيف تكون الحال لو أنه نقدنى؟ هل سأرد أم سألتزم الصمت والسكوت دليل الرضى؟ وعلى أى كيفية سينتهى الحفل؟ وهل سيحقق الغرض الذى من أجله أقيم؟ وهل ستنجح تلك المؤامرة؟ لقد أوشك الحفل أن ينتهى . وأوشك الستار أن يُسدل والكلمة الفصلة سيقولها الشيخ . وإذا الشيخ يقول كلاما لم يكن فى الحسبان . بعد ما حمد الله وأثنى عليه قال : والله الذى لا إله غيره لو كان عندى متسع من الوقت لسرت وراء هذا الرجل ملتزما مجالس علمه فقد عبر البحر الذى لم يصل الكثير إلى شاطئه ، ثم قال الشيخ : أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ودعوت الله تعالى بما دعاه به

عباده الصالحون فى فى مثل هذه المواقف : « **اللهم خيرا مما يظنون ولا تؤاخذنى بما يقولون واغفر لى ما لا يعلمون** » .

واقعة أخرى

أيام كنت طالبا بأصول الدين وكنت أعمل فى مجال الدعوة إلى الله بالمساجد أرسل إلىَّ مجلس إدارة أحد المصانع لإلقاء بعض الدروس على عمال المصنع وكان ذلك نزولا على رغبات العمال ، وحُدِّد لى لقاء بينى وبين مجلس الإدارة لوضع البرنامج الذى نسير عليه ، ووجد ذلك المنصب رضا فى نفسى ، فأى موقع يستطيع الداعية أن يقول فيه كلمة فى سبيل الله فهو على ثغر من ثغور الإسلام . والمجالات للدعوة كثيرة متنوعة فى المساجد والمدارس والمصانع والمعسكرات والمنتديات . بل لقد كان أحد رجال الدعوة وهو من الأفذاذ العباقرة كان يقتحم على الناس فى المقاهى مجالسهم ويقدم لهم الدروس والمواعظ ، فكانت دعوته تجد آذانا صاغية وقلوبا واعية فتتمكن من النفوس فضل تمكن ، فيهدى الله على يديه الكثير . فسبحانك اللهم قطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريًّا ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا . أنت القائل وقولك الحق : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ . أسألك اللهم علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل داء . ذهبت فى الموعد الذى حُدِّد لى للالتقاء بمجلس إدارة المصنع والله وحده يعلم أننى ماكنت أبغى إلا الخير وشكرت الله على حسن ظنهم بى وعلى أنهم قوم يريدون الخير لعمالهم عن طريق الإصلاح الدينى :

فمن قصد الحياة بغير دين	فقد جعل الفناء لها قرينا

وما أن جلست مع أحد العمال تأهبا للقاء – وكنت أعرفه من المساجد – حتى أخبرنى أن الموعد قد ألغى وسَنَه : ولماذا ؟ فقال : لقد حضر الشيخ الفلانى عندما علم بالموضوع وأخاف القائمين على شأن المصنع قائلا لهم : إنه لا يجب أن يدعو لمحاكم ولا يتجاوب مع أهداف الثورة . والناس دائما يؤثرون السلام .. وأنا أعلم أن فلانا هذا يملك من المال ومصادر الثروة الكثير والكثير . وأكبر ظنى أنه إنما فعل ذلك لدافع ما ذى فقد ظنَّ أنى سيعود علىَّ من هذه الدروس مغنم ومكافآت مالية علما بأننى من الذين يرددون قول القائل :

لا تخضعن لمخلوق على طمع	فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة	إلا بإذن الذى سوَّاك من طين
فلا تصاحب غنيا تستعزُّ به	وكن عفيفا وعظِّم حرمة الدين

واسترزق الله مما فى خزائنه — فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك — كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

كما يعجبنى قول القائل :

النفس تجزع أن تكون فقيرة — والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن — أبت فجميع ما فى الأرض لا يكفيها

نزح بحرين بغربالين وحفر بئرين بإبرتين وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين خير لى من أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عيني .

هى القناعة فاحفظها تكن ملكا — لو لم تكن لك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها — هل راح منها بغير القطن والكفن
ولست أرى السعادة جمع مال — ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا — وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب — ولكن الذى يمضى بعيد

ليست السعادة فى الانتشاء بالكئوس المترعة ، ولا فى الاستمتاع بزخارف الحياة ، إنما السعادة مملكة يقيمها الله تعالى فى القلب يتربع على عرشها الرضا قال ﷺ : **« ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس »** فتأمل معى الحقد كيف يفعل ، واعجب معى للحسود ماذا يصنع . كيف تحرك إنسان لمنع الخير عن أخيه المسلم . سبحانك يامن قلت : **﴿ولا تطع كل حلاف مهين . همّاز مشّاء بنميم . منّاع للخير معتد أثيم﴾** . وصلى الله وسلم على سيد البشرية ومعلم الإنسانية الذى قال : **« ألا أخبركم بشراركم ؟ قلنا : بلى قال : من أكل وحده ، ومنع رفده وضرب عبده . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ قلنا : بلى . قال : من لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة ولا يغفر ذنبا . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ قلنا : بلى . قال : من يبغض الناس ويبغضونه »** .

شدائد ومحن

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله — فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

ادلهمت الخطوب واحتدمت المحن وكشرت قوى الشر عن أنيابها تحاول اقتلاع شجرة طيبة من مكان طيب ، إنها شجرة الدعوة إلى الله فى جامع الملك . فوجئت فى شتاء ١٩٦٥

باستدعاء إلى أحد جهات الأمن ، ولأول مرة فى حياتى أدخل مثل هذه الأماكن ؛ وإذا المقصود من هذا الاستدعاء إنذار شديد اللهجة بمنع الصوت الخارجى للمسجد أثناء إلقائى دروس المساء ، وقلت فى نفسى لا مانع ، وليقتصر الدرس على الجالسين داخل المسجد لأننى قد فهمت من هذا الاستدعاء أن المسألة ليست مسألة صوت داخلى أو خارجى فليس ذلك من الأهمية بمكان ، فالصوت الخارجى فى جامع الملك لا يمثل أى قلق لأحد من القاطنين حول المسجد ، فشارع الست ذاته لا تكف السيارات عن ذرعه جيئة وذهابا ، ليلا ونهارا ، ولها أصوات مفزعة . فلم يكن الدافع إذن قلقا أو فزعا لأحد إنما كان من باب قول الذئب للحمل : « لقد عكرت على الماء » لذلك تلقيت المسألة بحكمة وصبر ، فليست الشجاعة تهورا ، إنما الشجاعة أن تقول الحق دون أن تسمح للآخرين أن يتسلقوا على كتفيك . ومُنع الصوت الخارجى ، وجاء كثير من القاطنين حول المسجد يطلبون إعادته فقد كانوا يستمعون إلى الدروس وهم فى بيوتهم بين أن تؤذن العشاء . وتقدموا بكثير من الشكاوى إلى الجهات المختصة يطالبون بذلك فإن الدين للنفوس كالماء والهواء والضياء .

إذا الإيمان ضاع فلا أمان — ولا دنيا لمن لم يحيى دينا
ومن رضى الحياة بغير دين — فقد جعل الفناء لها قرينا

ولكن شكواهم ذهبت أدراج الرياح ، وكانت كما قال شوقى :

لقد أسمعت أذنا غير واعية — ورب مستمع والقلب فى صمم

وبعد عام من منع الصوت ، جاءنى استدعاء آخر من نفس الجهة ، وذهبت إلى هناك عملا بقول الله جل شأنه : **﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله . ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾** .

وسئلت فى هذا الاستدعاء : لماذا لم تمنع الصوت الخارجى ؟ فأجبت : لقد منعته فقال : لم يحدث هذا . قلت : لقد حدث ولست بكذّاب . واحتدم النقاش ، وكان لابد أن يحدث لأن النيات لم تكن خالصة من الطرف الآخر .. وتطورت الأمور من سيىء إلى أسوأ !!

دعوة إلى الجامعة

فى عام ١٩٥٦ جاءنى بعض طلبة جامعة عين شمس ووجهوا إلىّ دعوة لإلقاء محاضرة للطلبة ، فلبيت الدعوة كما كنت ألبى أى دعوة فى أى مكان ولو كان قصياً وألقيت المحاضرة وتحدثت فيها عن « دعوة الإسلام » وأنها عالمية ، وأنها تقوم على المسئولية كما أخبر بذلك

الصادق المعصوم فى قوله : « **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** » . ثم تحدثت عن توزيع المسئولية من أول الإمام إلى الرجل فى بيته والمرأة فى مال زوجها ، حتى شملت المسئولية من أول الإمام إلى الرجل فى بيته والمرأة فى مال زوجها ، حتى شملت المسئولية الخادمة فى بيت سيدها . ثم بعد ذلك طال الحديث فى شرح هذه الكلمة الطيبة التى نطق بها الفم الشريف « فم رسول الله ﷺ » : ما من وال يلى أمر عشرة إلا جاء يوم القيامة يداه مغلولتان إلى عنقه حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور . وتطرق الحديث إلى مسئولية القاضى بين الناس . وذكرت فى ذلك حديثاً رواه الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « **يُؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من الحساب ما يتمنى معه أنه لم يكن قضى بين اثنين فى تمرة** » .

ثم عقبت بعد ذلك بالحديث عن المسئولية فى ساحة العدل يوم القيامة أمام أسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين وأعدل العادلين . ورويت فى ذلك قول الصادق الأمين : « **لا تزول قدما عبد من بين يدى الله عزّ وجلّ حتى يُسأل عن أربع : شبابك فيم أبليته وعمرك فيم أفنيته ومالك من أين اكتسبته وفيم أنفقته وعلمك ماذا صنعت فيه ؟** » .. وختمت المحاضرة بنداء وجهته إلى الطلبة : قلت : نريد منكم العالم المسلم ، والطبيب المسلم ، والمهندس المسلم والمدرس المسلم ، والصيدلى المسلم ، والمحاسب المسلم ، والمحامى المسلم ، والجندى المسلم ، والقاضى المسلم ... وكان كلامى فى مثل هذه الموضوعات يعتبر خطيرا يودى بصاحبه إلى غياهب السجون ، ومهاوى الردى ، ولكن القلب إذا تجرد لله هانت عليه الدنيا ، فمن خاف الله خوّف الله منه جميع خلقه ومن لم يخف الله خوّفه الله من جميع خلقه : قال ﷺ : « **من أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بين الناس ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس . ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته** » . وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه « من تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله ستره وأبدى فعله » ورحم الله من قالت لربها :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

جمعية الهداية بمدينة السويس

من المساجد التى كنت أتردد عليها لإلقاء المواعظ مسجد الشهداء بالسويس فقد كنت أتولى خطبة الجمعة فيه على فترات متباعدة ، ولم أكن أدرى ماذا وراء الحجب وما خبأته

الأقدار . كذلك كنت أتردد على مساجد كثيرة لكن فى غير يوم الجمعة ، لإلقاء دروس المساء بها فى كل شهر مرة . فمن هذه المساجد مساجد المحلة الكبرى حيث التجمع العمالى الكبير فى شركة الغزل . فقد رأى رئيس مجلس الإدارة – وكان رجلا صالحا أحسبه كذلك – رأى أن العلاج السليم لبناء النفوس على الصدق والأمانة ومقاومة الانحرافات إنما يكون بتعاليم الدين وتقوية الرقابة بين العبد وربه « **أعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » .

﴿ **ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض : ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شىء عليم** ﴾ ..

ليست سعادة الفرد أو المجتمع فى تشييد القصور ، وليست مقصورة على بناء المصانع فما قيمة المصنع إذا كان الذى يديره خاوى القلب ، سقيم الوجدان ، مريض الضمير ، يأكل التراث أكلا لما ويحب المال حبا جما ، لا يراعى فى ذلك إلا ولا ذمة ولا يرقب كتابا ولا سنة .. لا يمكن أن تقوم الحياة بلا دين ، كما أنها لا تستقيم بلا خلق حميد .

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم ... فأقم عليهم مأتما وعويلا
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وليس بعامر بنيان قوم ... إذا أخلاقهم كانت خرابا

وقد أصاب فيلسوف الإسلام « محمد إقبال » كبد الحقيقة عندما قال :

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يُحيي دينا
ومن رضى الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرينا

عندما تولى « ريتشارد نيكسون » حكم الولايات المتحدة قال فى كلمة ألقاها على الشعب الأمريكى : « إن الولايات المتحدة لا تعانى أزمة مادية إنما تعانى أزمة روحية لقد وجدنا أنفسنا أغنياء فى السلع ، لكننا فقراء فى الروح . نصل فى قرب عظيم إلى القمر . لكننا نسقط فى خلاف حاد على الأرض » .

نعم إن الحياة بلا روح مادة مظلمة قاتمة حالكة السواد . عليها غبرة ترهقها قترة ، ويرحم الله بنت بائعة اللبن التى قالت لأمها : يا أماه أتغشين المسلمين ؟ وتخشين فى يمين؟ وتكذبين على أمير المؤمنين ؟ كان هذا أيام الفاروق وهو ينفض الليل عن الكروب المخبوءة . فما كان منه إلا أن أعطاها جائزة السوية التقديرية ، فزوجها لابنه عاصم ابن عمر فرزقه الله منها فتاة سماها « ليلى » تزوجت بـ « عبدالعزيز بن مروان » فأنجبت منه خامس الخلفاء الراشدين « عمر بن عبدالعزيز » والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه .

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا بالرى أورق إيما إيراق

نعم كان عملا ناجحا أن نُلقى المحاضرات الدينية على العمال . فالدين هو الحياة ولا حياة بلا دين .. كنت أتردد على مساجد المحلة الكبرى ومساجد القرى التابعة لها . وكنت أعد اليوم الذى ألتقى فيه بهؤلاء الإخوة يوم عيد من أعياد الدعوة إلى الله . كذلك كنت أتردد على مسجد الجمعية الشرعية بمدينة المنصورة ، ألتقى بأهل الدقهلية فى يوم مشهود يجتمع فيه الناس ووجوههم تفيض بشرا وسرورا وقلوبهم مطمئنة راضية مرضية .. كما كنت أتردد على بعض المساجد فى « مدينة أسوان » حيث كنت ألتقى بأهل هذه المدينة الطيبة وهم قوم عرفوا بطهارة القلب واليد واللسان ، عُرفوا بالأمانة وإكرام الضيف وحسن المعاملة . وهكذا كنت أتردد على تلك البلاد وغيرها أنشر كلمة الله خالصة لا رياء فيها ولا سمعة ولا غموض ولا لبس . وكانت السعادة الغامرة التى لا تفوقها سعادة أن يجلس الداعية بين مستمعيه يصيخ السمع إلى مشاكلهم وأسئلتهم ، فيحل المشاكل ويجيب عن الأسئلة . إنها متعة نفسية تملك على الإنسان أقطار نفسه ويشرق ضياؤها فى جنبات فؤاده .

صيف ساخن

فى أغسطس عام ١٩٦٥ رُجَّت الأرض رجًا ، وهبت رياح هوج اشتدت كأنها رماد فى يوم عاصف ، فقد أطلت الفتنة برأسها تحاول اقتلاع « شجرة الدعوة الإسلامية » عندما وقف حاكم الدولة أمام قبر لينين فى موسكو يوعد ويهدد ويرغى ويزبد : يهدد بالثبور وعظائم الأمور ، يهدد كل العاملين فى مجال الدعوة الإسلامية ونسى ربَّه فأنساه الله نفسه حتى قال : إننى لن أرحم . وأقسم أنه لن يعفو بعد اليوم مع أن الذى يعفو ويرحم ويملك الرحمة والعَفْوَ هو الله . ولكن ما أشقى الإنسان إذا استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر ربه ﴿ **أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين** ﴾ . ما أضعف هؤلاء الجبابرة إذا نسوا أنهم بشر وأنهم لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له : ﴿ **وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز** ﴾ .

وما أشد جهلهم عندما يدّعون أنهم أقوياء يملكون خزائن رحمة ربى، إنهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . والحكمة بالغة يقرر الله تلك الحقيقة ﴿ **كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلى إن الله قوى عزيز** ﴾ . ومن آياته جلّ

شأنه أنه يعامل الجبابرة بأسلوب لا ترقى إليه أفهام البشر فالنمروذ عندما قال : ﴿ **أنا أحيى وأميت** ﴾ سلط الله عليه بعوضة أخذت تطن فى رأسه ، فكان لا يستريح إلا إذا ضُرب بالنعال على أم الدماغ . وفرعون لما قال : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ ، وقال : ﴿ **ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى** ﴾ . وقال : ﴿ **أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى** ﴾ . كان الجزاء من جنس العمل ، فأجرى الله الأنهار من فوقه ﴿ **حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾ فجاء الرد حاسما : ﴿ **ءالآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين؟ فاليوم ننجيك ببدنك** ﴾ ثم تأتى الحكمة ناطقة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ﴿ **لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾ .

وما كان أضعف قارون عندما غرّه ماله فقال : ﴿ **إنما أوتيته على علم عندى** ﴾ فكان الجزاء أن خسف الله به وبداره الأرض ﴿ **فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** ﴾ . ولنا فى سورة القصص ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد : فقد عرضت لاثنين من جبابرة البشر : الفرعونية الحاكمة والقارونية الكانزة ، ثم جاء الختام فى قصة فرعون : ﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار . ويوم القيامة لا يُنصرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾ . وجاء ختام القارونية الكانزة ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر . لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا . ويكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾ . وجاء التعقيب بعد ذلك على القصتين حازما وفيه صراحة ووضوح : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** ﴾ . وجاء الختام شاهدا بعظمة الله وانفراده سبحانه بالسلطان والبقاء والجلال والكمال ، فهو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . قال تعالى : ﴿ **ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو . كل شىء هالك إلا وجهه . له الحكم وإليه ترجعون** ﴾ .

ولنا فى سورة العنكبوت عبرة وعظة ، وللجبابرة فيها درس يدمى القلوب ولا يُنسى على مر الأيام وتطاول الآماد والآباد والآزال . فقد قص الله تعالى فيها أخبار أقوام استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا . بدأ الحديث عن هؤلاء الأقوام بقوم نوح وثنى بقوم إبراهيم ، ثم ذكر بعد ذلك قوم لوط ثم حدثنا عن قوم شعيب ، ثم أخبرنا عن عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ثم كانت العاقبة تكاد السماوات يتفطرن منها وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . قال تعالى : ﴿ **فكلا أخذنا بذنبه . فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا . ومنهم من أخذته**

الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

ومن جلال القرآن وحكمته البالغة أن يسمى هذه السورة التى استفاضت بذكر الجبابرة – يسميها بسورة العنكبوت ، مع أن الجبابرة قد برزوا فى هذه الصورة بشكل يهز القلوب من أعماقها . لقد بلغ بهم الغرور أنهم قالوا : **من أشد منا قوة ؟ وجاء الجواب من الله ، وفيه ما فيه من المعانى ذات العمق . قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾** لقد سماها الله بسورة العنكبوت لما جاء فى قوله جلَّ شأنه : **﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .**

فمن استعز بغير الله فهو كالعنكبوت اتخذت بيتا تحتمى به وأوهن البيوت بيتها ، فمن اتخذ وليا أو ناصرا دون الله مهما كان النصراء والأولياء جبابرة فقد اعتمد على سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . نعم إنه إذا اعتقد ذلك فكأنَّما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق **﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .**

لمَّا زحفت جيوش الإسلام لفتح بلاد فارس أرسل كسرى جبَّار الفرس إلى امبراطور الصين يطلب منه المدد والنجدة وأخبره بالإنذار الذى أرسله إليه سيف الله المسلول « خالد ابن الوليد » وقال فيه « ياكسرى أسلم تسلم فقد جئتك بقوم يحرصون على الموت كما تحرصون على الحياة » . فماذا كان جواب امبراطور الصين على كسرى ؟ ردَّ عليه قائلا : ياكسرى لا قبل لى بقوم لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها !!

يد الله تعمل فى الخفاء

ذات يوم من أيام شهر أغسطس عام خمسة وستين وتسعمائة وألف وكان يوما قائظا شديد الحر كأن شمسه طلعت من بين الرمال لا من بين السحب وكان الجو كله ينذر بالبروق والرعود والعواصف والصواعق ضد الإسلام ورجاله ، فوجئت بالباب يطرق طرقات عنيفة ، وبمجرد أن فُتح الباب دخل جماعة غلاظ شداد وقاموا بعملية التفتيش ، وكانت جناية لا تُغتفر إذا تم ضبط أى كتاب لشهيد الإسلام الأستاذ « سيد قطب » خاصة كتاب « معالم فى الطريق » . وكان هذا الكتاب بين يدى يُقرأ لى فيه ، لكنَّ الله سلَّم فلم ينتبه

أحد لهذا الكتاب . أمرونى بارتداء ثيابى لأننى سأذهب معهم إلى أين ؟ ولماذا ؟ وعما أُسأل ؟ لست أدرى .. ولماذا لست أدرى ؟ لست أدرى .. وحاول بعض الإخوة أن يصحبونى ، ولكن لم يُسمح لهم لأنهم صمموا أن آتيهم فردا ، وبعد إلحاح شديد من شقيقى سمحوا له بالركوب معى فى سيارة عسكرية ذات مقاعد خشبية غليظة . وانطلقت بنا السيارة تنهب الأرض نهبا . وبعد بضعة أمتار ، أُمر أخى بالنزول فنزل وظللت وحدى بين قوم لا عهد لى بهم وكأنى فى سرير المنايا لا أدرى ما يُفعل بى . وكأن السيارة تقول بلسان حالها :

« أنا سرير المنايا كم سار مثلى بمثلك »

لكن من أراد مؤنسا فالله يكفيه . ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه . ومن وجد الله فماذا فقد ؟ ومن كان الله معه فمن عليه ؟ ويرحم الله من قال يناجى ربَّه :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثا   وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس   وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيس

قال أحد الصالحين لمريديه : إذا ذُكر الصالحون نزلت الرحمة . فقال له أحدهم . فكيف إذا ذكر الله تعالى ؟ فأطرق الشيخ مليا ثم قال : إذا ذكر الله نزلت الطمأنينة . أو ما قرأت قوله تعالى : **﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .**

فإذا ضاقت عليك الدنيا فقل يالله . وإذا تخلى عنك أهل الأرض فقل يالله . وإذا احتدمت بك الشدائد فقل يالله . وإذا ادلهمت بك الخطوب فقل يالله . وإذا تمت على فراش المرض فقل يالله . وإذا جاءتك سكرة الموت بالحق فقل يالله . **﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم . ولله جنود السماوات والأرض . وكان الله عليما حكيما ﴾ .**

ياصاحب الهم إن الهم منفرج   أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه   لا تيأسن فإن الكافى الله
إذا بُليت فثق بالله وارض به   إن الذى يكشف البلوى هو الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة   لا تجزعنَّ فإن الصانع الله
والله مالك غير الله أحد   فحسبك الله فى كل لك الله

لقد تذكرت وأنا فى طريقى إلى ذلك المجهول تلك الوصية الغالية التى جاءت على لسان الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه قال : عجبت لمن ابتُلى بأربع كيف ينسى أربعا : عجبت لمن ابتُلى بالخوف كيف ينسى قوله تعالى : **﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾** . وقد قال

الله تعالى : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** ﴾.. وعجبت لمن ابتُلى بالضُر كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ **مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ وقد قال الله جلَّ شأنه ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا به من ضر** ﴾ . وعجبت لمن ابتُلى بالغم كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ وقد قال الله تعالى : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظنَّ أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات : أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ .. وعجبت لمن ابتُلى بمكر الأعداء كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ **وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد** ﴾ وقد قال الله تعالى : ﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا . وحاق بآل فرعون سوء العذاب** ﴾ .

كنت أردد هذه النصوص الكريمة حتى وقفت بنا تلك السيارة فى مكان لا أعلمه وأحسست بنزول من فيها جميعا ، وظللت وحدى ، وبدأت الحرب النفسية . وسمعت من يتساءل : أهذا هو الذى يخطب فى مسجد « دير الملاك » ؟ فيرد عليه الآخر : نعم هو فيسأل آخر : أَألقى القبض عليه اليوم ؟ فيجيبه : نعم .. وهكذا أسئلة كثيرة أُلقيت ، وأجوبة رُدَّ بها عليها . وشممت رائحة الموت فى الهواء الذى أنشقه فالقوم غلاظ شداد والأصوات رهيبة والجو مكفهر خانق ، وسمعت وقع أقدام ثقيلة تريد أن تدك الأرض دكًا حتى انتهت إلى السيارة التى كنت فيها وحدى وإذا هو أحد غلاظ الأكباد يجذبنى من ذراعى ، وفى صمت أشد من صمت القبور أدخلنى غرفة شعرت كأن المنية جاثمة فيها . قلت فى نفسى : إن الروح والرزق لا يملكها إلا الله . وأنزل الله برد السكينة فى قلبى ، وتحركت أمامى كوكبة من الآيات التى تثبت العقيدة ، وتبعث فى النفس الطمأنينة . قال تعالى : ﴿ **فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم** ﴾ وإذا بصوت ينبعث من الجالسين فى الغرفة ولم أكن أدرى ما عددهم إلا بعد أن أمطرونى وابلا من الأسئلة . صاح صاحب الصوت : أحضر له كرسيا ليجلس . كنت ساعتها أرتدى العمامة والجبة . فلعلَّ الرجل قد رحم كف البصر واحترم تلك الثياب التى درجنا على احترامها وتوقيرها . وجلست وجاء السؤال الأول : أأنت فلان ؟ قلت نعم . قال : ما هذه الضجة التى تحدثها فى مسجد دير الملاك ؟ قلت : إننى أؤدى دور المسجد كما كان فى فجر الإسلام . أؤديه على أنه رسالة لا وظيفة . ثم أخذ يسأل فى موضوعات شتى أذكر منها : أنه أجرى تفتيشا عقليا على الفكر الإسلامى سأل فى مسألة الجبر والاختيار ، والتخيير والتسيير ، كما سأل عن نظام الحكم فى الإسلام . وأخيرا وبعد مدة استغرقت أكثر من ساعة عرض علىَّ مجموعة من الأسماء وقال : أتعرف هؤلاء

أو واحدا منهم . ولم يكن لى معرفة سبقت بهذه الأسماء جميعا ، والذى قد علمته فيما بعد أنهم قد تمَّ اعتقالهم وأنهم فى السجن الحربى . ولعله سألنى عنهم لأنهم كانوا يصلون فى المسجد الذى أقوم بالخطابة فيه . وبعد صمت قصير قام أحدهم فربت على كتفى بيده وهمس فى أذنى قائلا : إن هناك الكثير من الشكاوى قُدمت فيك لذلك استدعيناك . وحسبت أنه سيصدر الإشارة بترحيلى إلى أحد السجون التى تحولت إلى جحيم وسعير اشتعلت فيها نيران تعذيب الأبرياء . ولكن الله سلَّم ، فقد نادى على الذى قبض علىَّ وقال له : أعده إلى بيته . فكان ذلك الذى قبض علىَّ يسألنى فى عجب : ماذا كنت تقرأ وأنت قادم إلى هذا المكان ؟!! لقد جئت بمثات إلى هنا فلم يعد منهم أحد إلى بيته !!. فقلت له : ﴿ **لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** ﴾ وذكرت له الآيات التى كنت أرتلها .

خطوة لتكوين الأسرة

فى أواخر عام ١٩٦٥ كنت قد عزمت على إتمام الزواج ، فإن المستقبل بيد الله وحده وقد فُتحت أبواب الاستدعاءات ﴿ **وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير** ﴾ وكنت أحس إحساسا داخليا بأن هناك شرًا مبيتا لكنه ينتظر الفرصة التى يستطيع أن يلفق فيها قضية يودعنى فيها ظلمة السجن . كنت قد عقدت الزواج منذ عام مضى ، فتم البناء فى شتاء ١٩٦٥ وما هى إلا شهور قضيتها حتى كان ما كان وقضاء . ففى سنة ١٩٦٦ وكنت أسميه « عام الحزن » جاءنى شخصان فى سن الشباب وأخبرانى أنهما مندوبان من جهة إحدى السلطات وسألانى : أتدرى فيم جئناك ؟ قلت : الله أعلم . قالا : إن المشير عبدالحكيم عامر يعلم أن لك شعبية ومحبة فى قلوب الناس وإنه يطلب منك أن تُحلَّ دم « سيد قطب » ومن معه ، أعلمت ؟ ونريد أن تسمع هذه الفتوى فى الخطبة القادمة . ونفذ الخبر إلى قلبى كأنه السهم المريش : أأفتى بحل دماء الأبرياء فأبيع آخرتى بدنيا غيرى ! وأدخل النار فى الآخرة وبئس القرار ؟! أم أرفض طلب المشير فأدخل السجن ؟ ولكن هذا الصراع لم يدم طويلا . فقد تذكرت قول الله تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد . ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** ﴾ . وسألانى : بأى شىء ترد على سيادة المشير ؟ فقلت على الفور : ربنا يجىء ما فيه الخير . وقبل أن ينصرفا ذكرا عبارة ممزوجة بالوعد والوعيد ، فيها العسل والحنظل . قالا : إن أطعت الأوامر فتحت أمامك أبواب الترقيات والبعثات وإلا فأنت تعلم أن السجون تتلقى كل يوم المئات ثم انصرفا ... وظللت أقلب هذا الكلام على وجوهه ، وسكنت أسفا شديدا لما سمعت : أيصير الدين ألعوبة على أيدى الحكام ؟ أتصير منابر أبواقا للسلاطين ؟ أيريدون أن يجعلوا من ظهورنا جسورا إلى جهنم . إن العالم يُتهم فى دينه إذا

طرق أبواب السلاطين والله لموت فى طاعة الله خير من حياة فى معصية الله . وقد صدقت يارسول الله إذ قلت : « **من أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله مابين الناس ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته** » .

ليت المسلمين يقفون موقف العبق من هذا الأعرابى الذى مَثُل ذات يوم بين يدى الحجاج بن يوسف طاغية العراق . كان إذا أراد الطعام لا يأكل إلا إذا دعا من يأكل معه . فأرسل ذات يوم فى طلب من يشاركه الطعام . فوجدوا أعرابيا فجيء به إليه . فقال له الحجاج : أتدرى ياأعرابى من أنا ؟ قال الأعرابى : أنت الحجاج بن يوسف ، قال له : لقد دعوتك اليوم لتشاركنى طعام الغذاء . قال له : لقد دعانى من هو أفضل منك . إننى اليوم صائم مدعو على مائدة الله جلَّ جلاله . قال له : أتصوم اليوم وهو شديد الحر ؟ قل : نعم أصومه ليوم هو أشد منه حرًّا . قال : أفطر اليوم وصمْ غدا ، قال له : وهل اطلعت على الغيب فرأيتنى أعيش إلى الغد ؟ قال الحجاج : فاطلب ما تشاء نعطك . قال الأعرابى : أتستطيع أن تدخلنى الجنة وتباعد بينى وبين النار . قال : لا . قال الأعرابى وهو منصرف : إذن فدعنى مع الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين .. إنه أعرابى ولكنه جمع الحقيقة كلها فى كلمات . إنه يتكلم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين . إنه لا يملك الروح والرزق إلا الله وحده : قال صلوات ربى وسلامه عليه « **ما قدر على فكيك أن تمضغاه ، فلابد أن تمضغاه ؛ فامضغه بعزة** » .

لا تعجلنَّ فليس الرزق بالعجل	**الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل**
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا	**لكنه خلق الإنسان من عجل**

دعوة أخرى من جامعة عين شمس

فى أحد أيام شهر مارس ١٩٦٦ وُجهت إلىَّ دعوة لحضور حفل إسلامى فى جامعة عين شمس . شاركنى فيها بعض كبار الدعاة وكان حفلا بهيجا اغتصت فيه المقاعد بالحاضرين حتى لم يبق فيه مكان لقدم . وبعد أن فرغنا من الحديث فُتِحَ الباب للأسئلة. فاستأذن الذين كانوا يشاركوننى الحفل لمالهم من ارتباطات فى أماكن أخرى . وأصبحت وحدى فى تلقى الأسئلة وكانت متنوعة يدل الكثير منها على اتجاهات السائلين . وقد علمتنا الأيام فى مجال الدعوة أن هناك أسئلة قد لا يكون الغرض منها طلب الإفادة إنما المقصود بها أن تكون مصايد وشراكا يقع المجيب فيها لأن السائل قد يكون مريض القلب ، سقيم

الوجدان ، خرب الضمير . وقد كان من ضمن الأسئلة التى علمت أن سائلها يريد أن يحفر بها بئرا ، لا يريد بها علما سؤال قال صاحبه : **هل الاشتراكية من الإسلام ؟**.

وكانت الاشتراكية يومذاك دينا اتخذه الحاكم من دون الله ، أخذ يتغنى بهذه الكلمة فى خطبه ، فجعل منها بديلا عن ذكر الله . ورأيتنى أمام هذا السؤال واقفا على مفترق الطرق : إما أن أقول الحق فأدخل السجن وإما أن أنافق الحاكم فأدخل النار وإما أن أقول لا أدرى فيؤول ذلك على أنه هروب من الإجابة فإن هؤلاء القوم لا يعرفون : لا أدرى . فمن تربع على منصة الحديث عندهم ، لابد أن يكون قد جمع علوم الأولين والآخرين .. ولم يكن هناك بد أن أقول الحق ولله عاقبة الأمور . فقلت : يأيها السائل إن الإسلام نظام إلهى متكامل نزل به الروح الأمين على صاحب الرسالة العصماء ، فهو وحى معصوم انتظم شئون الدنيا والآخرة . أما الاشتراكية فهى مذهب اقتصادى وضعى . والإسلام كل لا يتجزأ ، ولا تنفصم منه عروة عن عروة . قال تعالى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة** ﴾ أى خذوا شعب الإسلام كاملة غير منقوصة . وذلك مصداقا لقوله جلَّ شأنه فى آية أخرى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ وتقبل المستمعون هذه الإجابة بقبول حسن . وحدث ما كنت أتوقعه : ونفذ القضاء فى اليوم الذى حدده صاحب العظمة والكبرياء جلَّ جلاله .

مهاجمة المنزل مرة أخرى

فى يوم الخميس الموافق الرابع عشر من شهر إبريل ١٩٦٦ تم اقتحام المنزل وكنت قد أعددت خطبة الجمعة بناء على حدث وقع فى العراق وهو قتل المشير « عبدالسلام عارف » . وكنت قد هيأت فى نفسى كلاما يتركز موضوعه فى عظمة الله وسلطانه ، وفى ضياء قوله جلَّ شأنه : ﴿ **ولا تدعُ مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه . له الحكم وإليه ترجعون** ﴾ .

تمت عملية التفتيش ثم أُمرت بالذهاب مع هؤلاء ، وقيل لى ساعتها إنها خمس دقائق لن تزيد ثم تعود . وركبت سيارة أخذت طريقها إلى مكان نزلت فيه ، وكنت يومها صائما وظللت مع الحارس فى هذا المكان . وأشهد أنه كان غليظ القلب فيه جفاء وقسوة ، ذا صوت مقلق . سألنى ولم يكن معنا ثالث إلا الله : إذا أمرت من رئيس فى العمل أن أضربك حتى الموت هل علىَّ من ذنب ؟ قلت له : نعم . قال : وكيف وأنا عبد مأمور؟ قلت له : تستطيع أن تتصرف دون أن تكون شريكا فى الجريمة . أمامك الحائط فاضرب كيف شئت مادام لن يراك أحد إلا الله . وأردت أن أستطرد معه فى الحديث لأشغله عن أفكاره

الشيطانية . فقلت له : إن المؤمن كيّس فطِنٌ يستطيع ان يتصرف فى الأمر ما دام صادرًا من جهة تضر العباد والبلاد . فقد رووا أن الإمام مالك بن أنس سأله شاب فقال له : يا إمام إن أبى طلق أمى وإن أمى طلبتنى فمنعنى أبى . فماذا أصنع ؟ قال له الإمام : أطع أباك ولا تعص أمك أى : صل أمك ولا تذكر ذلك لأبيك . وهكذا يتصرف المسلم فى حدود طاعة الله تعالى : ﴿ **لا ضرر ولا ضرار** ﴾ . وأذنت المغرب وجيء لى بما يسمونه باكو بكسويت وكوب من الماء . وحمدت الله تبارك وتعالى على ما ساقه إلىَّ من الرزق . وبعد قليل جمعونا استعدادا للرحيل ، وكانت مفاجأة كأنها صدمة كهربائية ، عندما رأيت الكثير من الذين معي فى مبنى الداخلية ، كانو يؤدون الصلاة معى فى مسجد الشهداء بالسويس . وأخذت أفكر فى الخيط الذى جمع بيننا ، وما هى الصلة التى ربطت بين من يسكن القاهرة وبين من اختار مدينة السويس منزلا ؟ وهل ترددى على هذا المسجد لأداء بعض الخطب هناك يوم الجمعة هو الذى جاء بى إلى هذا المكان ؟ ثم ما هى التهمة التى سوف توجه إلىَّ ، وأنا من فضل الله علىَّ ما كنت يوما من الأيام مقترفا لجريمة أو آتياً بجناية . لقد كنت كما يقولون فى المثل المصرى : ﴿ **من بيته للجامع** ﴾ فماذا حدث إلا أن تكون القضية بلغة الذئب الذى قال للحمل : « لقد عكَّرت علىَّ الماء – وهو يعلم أن الماء لا يجرى فى العلالى – » .

مهما يكن من أمر فسوف تتضح المسائل المبهة وتُفك الطلاسم وتحُل الألغاز ، وقطع تفكيرى علىَّ صوت نادى على أسمائنا وجُمعنا فى سيارة نقعت بنا الطريق إلى مكان إن صح أن يُقال فيه شيء فهو مقبرة الأحياء ومُشَمّت الأعداء ، ومُحزن الأصدقاء ، ومُفرق الأحباء .. وجيء بالأغطية التى تغطى الأعين حتى تحجب الرؤية مع أن الساعة قد بلغت العاشرة مساء والليل قد أرخى سدوله ، لكنه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .. ما الداعى إلى أن يوضع على العينين غطاء سميك إلا أن يكون ذلك تشبيها للإنسان الذى كرَّمه الله بالحيوان الذى يسقى الحرث بالساقية ؟! هل هناك أسرار بلغت من الدقة ألا يراها مواطن فى بلده الذى منها نشأ وعلى أرضها ترعرع ، نشق نسيمها واستضاء بشمسها وقمرها . وعاش على خيرات الله التى بارك الله فيها ؟! لقد علمت أن هذا المكان هو القلعة ، وصاحت أصوات مرعبة تأمر بتوزيعنا على الزنازين . ودخلت فى الزنزانة لأول مرة . ورأيتنى أتحسس أربعة جدران فيها حديد معلق ، فتذكرت عندئذ دخول القبر حيث لا صديق ولا رفيق ، ولا جليس ولا أنيس وكأنى بالنداء العلوى من الحق جلَّ جلاله يقول : (**عبدى رجعوا وتركوك ، وفى التراب دفنوك ، ولو ظلوا معك ما نفعوك . ولم يبق لك إلا أنا ، وأنا الحى الذى لا أموت**) ..

تذكرت هذا النداء فآنس وحشتى ، ورحم غربتى ، وبعث بنور السكينة فى قلبى .. لم يكن فى الزنزانة فراش ولا غطاء والمكان قارس البرد ، وأرض الزنزانة تكاد تأكل الأجسام الصلبة ، فقد بطنت بطبقة من الأسمنت فضلا عما فيها من الحشرات المختلفة الأنواع من قارص وقارض ولاسع . استسلمت لقضاء الله وقدره ، وخلعت جبتى ففرشتها وخلعت حذائى فتوسدته ، وأدخل لى السجان كوبا من الماء ، ثم أغلق علىَّ الباب فنمت مرهقا من شدة الإعياء نوما كان أشد من الإرهاق نفسه .

فى منتصف الليل

أشهد أن العذاب النفسى فى تلك السجون وهذه المعتقلات لا يقل ألماً عن العذاب البدنى فمن الذى يستطيع أن ينام ليلاً أو نهاراً وأصوات الضحايا تعلو ثم تهبط ، ثم تختفى ، وقد يكون اختفاؤها إلى يوم يبعثون يوم يقوم الناس لرب العالمين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين** ﴾ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود أبليس أجمعون يومئذ يندمون حيث لا ينفع الندم ويقولون : فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين وهم يصطرخون فيها ربنا : أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل فيقال لهم : أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير .

وليس لأحد أن يوجه هذا السؤال إلى أى معتقل أو سجين فيقول له : هل عذبت ؟ ورأيى إن هذا السؤال فيه مغالطة فكفى بالاعتقال عذابا وبالسجن ألماً ولوعة !! إنه إهدار لآدمية الإنسان وإذا كان هناك دوافع فطرية كالإشباع بعد لوعة الجوع والإرواء بعد لهيب الظمأ والإخراج الذى يؤدى عدمه إلى تسمم الجسم واستنشاق الهواء والعيش فى الضياء والنوم الذى جعله الله آية من آياته فقال : ﴿ **ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله** ﴾ فالطعام والمنام والماء والإخراج والحرية والهواء كلها دوافع فطرية جعلها الله حقا لكل مخلوق له كبد رطبة ، كيف يقال لمن دخل السجن هل عُذبت ؟! أليس حرمانه من كل هذه الحقوق الفطرية عذابا أليماً مهيناً ؟! ألم تسمع قول رسول الله ﷺ : « **دخلت أمرأة النار فى هرة حبستها لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعاً** » ، هذه هرة حبست فأستحق حبسها النار وعذابها !! فما بالك بحبس الموحدين الصابرين الصادقين القانتين المنفقين والمستغفرين بالأسحار !! فإذا أضيف إلى هذا العذاب العذاب البدنى لكل نصاب ودجال وخضب جسيماً كيف يعرف الكرى جفون قوم

يستمعون إخوانا لهم يصطرخون ويولولون ويصيحون ويئنون من شدة العذاب فمنهم من ينادى سأموت أرحمنى علشان خاطر ربنا .. آه !! آه !! ياالله أحد أحد اتقوا الله ياهؤلاء !! إنها كلمات تقض المضاجع وينخلع لها الفؤاد ألماً ولوعة وتسيل لها الكبد مرارة وجوى، وبعد ما انتصف الليل فتح باب زنزانتى بعنف شديد فقمت من نومى فزعاً وبصوت كالرعد يصم الآذان قال لى أحد الجلادين : قم للتحقيق وصعدت درج سلم فى جو مشحون بالصراخ والعويل وجلست أمام محقق .. هل ذهبت إلى مسجد السويس ؟ قلت : نعم . قال لماذا ؟ قلت : لأقوم بخطبة الجمعة هناك . أين كنت تبيت ليلة الجمعة ؟ قلت : فى منزل مخصص للاستراحة قال ففى أى شيء كنتم تتكلمون ؟ قلت : كنا نتكلم كلاماً عادياً . قال ألم تتكلموا فى غلاء الأسعار ؟ قلت : لا . فأمر بانصرافى ونزلت إلى الزنزانة محبوساً حبسا انفراديا ووضعت جنبى على الأرض أحاول النوم ولكن دون جدوى فبعد ساعة أو يزيد قليلا فتح الباب مرة أخرى ، حيث ذهبت للتحقيق ، وأعيدت الأسئلة مرة أخرى إلى سمعى ، وأجبت عنها بنفس الإجابة ، ثم عدت وفى صباح يوم الجمعة وهو اليوم الثانى من اعتقالى وكنت فى مسيس الحاجة إلى أن أذهب إلى دورة المياه فقد حصرنى البول فرد على الحارس بغلظة وفظاظة قائلا غير مسموح لك بذلك وأمامك ست ساعات لا طعام ، ولا شراب ، ولا قضاء للحاجة ، ومهما قلت عما لا قيناه فإن البيان يعجز ، واللسان يقف ، والجنان يصاب بالصداع ، والحياء يمنع مما وقع للمسلمين ، فى تلك الأيام النحسات !! ولكن لكى أضع أمام القارىء صوراً مما وقع فى سجون مصر ومعتقلاتها ، فإننى أنقل هذه المآسى وتلك المفجعات من كتاب (باشوات وسوبر باشوات) للدكتور حسين مؤنس تحت عنوان ملحق رقم ٦ (خلف البواب السوداء) .

« مهما بلغت كراهة الإنسان لأخيه فإنها لا ينبغى أن تهبط به إلى مستوى هو دون مستوى البشر وفى الصفحات التالية التى نقتبسها من كتاب الأستاذ أحمد رائف « صفحات من تاريخ الإخوان » التاريخ السرى للمعتقل (القاهرة بدون تاريخ) صور لمواطنين مصريين بلغوا فى تعذيب إخوانهم مبلغاً يهبط بهم إلى مستوى الوحوش الكاسرة وليتهم مع ذلك كانوا يعذبون إخوانهم لحساب أنفسهم إنما كانوا يؤمرون بالتعذيب فيقبلون عليه وكأنهم يتسلون بما يفعلون هؤلاء لن يغفر الله لهم أبداً وستردد هذا الكلام بعد أن تقرأ تلك الصفحات التى ترينا صورة من الجانب الأسود للعصر الناصرى إنها حجرة فى الدور الأرضى على يمين الداخل من بوابة السجن الحديدية الكبيرة تقع أمام بئر الماء لها نافذة تطل على خارج السجن الكبير حيث فناء السجن الحربى ويقع المستشفى أمامها مباشرة وتبدو مكاتب التحقيق بعيدة فى نهاية الطريق تؤدى إليها .

والحجرة لا تتسع لأكثر من عشرة فهى ضيقة بالنسبة للعدد الكبير الذى وضع فيها وقد أشرقت علينا شمس النهار وعددنا خمسة وأربعون بينما مساحة الحجرة التى يطلقون عليها مخزن رقم (٦) حوالى مترين فى ثلاثة أمتار وكانت تفوح فيها رائحة البول والبراز والصديد وتنطلق منها الأنات الخافتة المكتومة فالتعليمات تقضى بعدم صدور أى صوت وإلا فسوف تدخل الكلاب الجائعة التى تثيرها رائحة الجروح !!

وهنا ينبغى التنويه لقد دخلنا المخزن وليس فينا واحد إلا وبه بعض الجراح والدم يسيل دون توقف أدخلونا المخزن فى فزع وخوف فتساقطنا فى ظلامه كل منا فوق الآخر يجمد كل منا بالوضع الذى قذف عليه حتى مطلع النهار فقد قال الحراس إنهم لا يريدون أصواتاً أو حركة فالموت جزاء من يفعل وكنا نعرف أنهم لا يكذبون فى مثل هذه التهديدات شذ عن هذا واحد منا كان يحبس بوله وكان أقلنا فى الذهاب إلى دورة المياه قد انتهى عهده بها منذ ست وثلاثين ساعة وبعد فترة قصيرة فتح الباب وظهر من فرجته شبح جندى عملاق كريه المنظر قد أمسك سوطاً فى يده وصرخ فينا :

هل هناك من يريد الذهاب إلى دورة المياه ؟

وسكتنا جميعا .

وفتح الجندى فمه بسباب قذر بذىء ثم صرخ ثانية مكرراً نفس السؤال وكان الظلام شديداً فكان من الصعب أن نرى الانفعالات المختلفة على الوجوه وكان الخوف هو القاسم المشترك بيننا بطبيعة الحال وتشجع صاحبنا وطلب الذهاب إلى دورة المياه وكان لواء فى الجيش فأخرجه الجندى الكريه المنظر من المخزن بعد أن مر هذا الزميل فوق جثث زملائه المكومة دون ترتيب وأمام باب المخزن حيث الأنوار الخافتة المنبعثة من المصابيح الموجودة فى المكان ضرب هذا الضابط الكبير ضرباً شديداً موجعاً ثم جاءت الكلاب ونهشت من لحمه أمامنا وبعد هذا كله ألقوه فى البئر وعندما أوشك على الموت أخرجوه وأدخلوه إلينا . يقطر دماء وماء وتركوه يرتجف حتى جفت ملابسه وحدها وكانت هذه العلقة مدعاة لاستغنائه عن الذهاب إلى دورة المياه فقد تبرز الرجل وبال على نفسه وصارت رائحته تزكم الأنوف القريبة منه وكان منها أنفى وبقى كل فى مكانه يجتر أفكاره وآلامه فى صمت رهيب ولم تكن تسمع همسة أو تحس بنأمة وكل ربع ساعة تقريباً يفتح الباب ، ويقذف بينا بمعتقل جديد ، يقذف كما يقذف جوال ملىء بالبطاطس مثلاً دون ما اهتمام ، وفى العادة يكون هذا الشخص عائداً من التحقيق أو من منزله .

وكان الظلام شديداً فلم نستطع تمييز وجه أحد . ولكن كانت هناك أيد تمتد فى الظلام لتكتم الأنات الخافتة ، الصادرة من أفواه الجرحى خوفاً من بطش الجنود ، وكان جوعنا

شديداً وعطشنا أشد ، ولكن ! ما الجوع والعطش بجانب هذا الخوف العارم الذى يقتلع القلوب من الصدور ؟ وبعد مدة سمعت أحدهم يهمس : ياجماعة ..

وانبرى إليه صوت الضابط الكبير الكّريه الرائحة من ملابسه المتسخة بالبول والبراز :

ماذا تريد ؟ ألا يكفيك ما نحن فيه ؟

ولكن الصوت الهامس قال بإلحاح لقد اكتشفت شيئا هاماً !!

وما هو ؟

بجانب الباب وعاءان من المطاط .

ماذا تعنى ؟

أظن أن أحدهما للبول والآخر للشراب ولكن لا أدرى على وجه التحديد أيهما للبول وأيهما للشراب !!

وقام أحدنا بخفة وبلطف شديدين يتبول الواحد فى إناء ويشرب من الآخر وفى هذه الليلة المباركة شربت البول لأول مرة فى حياتى ولم يكن طعمه مريحا على أية حال : وليس هناك داع لأن أقول إن أحداً منا لم يذق طعم النوم فى هذه الليلة وربما لليال أخرى أتت فى أعقابها ، وكانت الآلام التى واجهناها وعايشناها تشغلنا قليلا عن التفكير فى التحقيق الذى قد يدعى إليه أحدنا فى أية لحظة من اللحظات !!

وقد قدر لى أن أعيش فى هذا الانتظار أكثر من أربعين يوماً حتى أرسلت بعدها إلى التحقيق وقد رأيت كم هو تخلف عن مثيله فى أبى زعبل إنه القتل تحت السياط والأسياخ الحمراء ، وخلع الأظافر ونهش الكلاب وأسلاك الكهرباء ، أو تحت وطأة ركل الأحذية الثقيل .

وفى رحلتنا عبر هذه الليلة الرهيبة فتح الباب وقذف إلينا باثنين ثم نودى على أحد الأسماء وقام صاحب الاسم يرتعد خوفاً وفرقاً ، ونحن نستمع إلى صرير أسنانه وصرت أركز بصرى فى الظلام ، واستطعت أن أتبينه وهو يمر من فرجة الباب خلال الضوء الشاحب الآتى من المصابيح المنتشرة عبر الساحة كان الضابط المسكين الذى لم يسترح من علقة المساء ، لقد طلبوه للتحقيق وإنى أعتقد بعد مرور ذلك الوقت الطويل أن كل من بالمخزن قد شاركنى دعائى الحار حتى يخفف الله من آلامه ، وهو ذاهب إلى مصيره المجهول !!

ومع الخيوط الأولى للنهار حيث استطاع كل واحد منا أن يتبين وجه زميله فتح الباب وظهر أربعة من الجند الأشداء يحملون الضابط الكبير وقد تمزق جسده من السياط وأكلت

الكلاب من جسمه حتى شبعت وفى لمح البصر سمعنا صوت ارتطامه فوقنا ولم يجرؤ واحد منا على لمسه أو تخفيف آلامه التى كانت ممثلة فى أناته الخافتة المعطبة ، وكانت ملابسه غارقة بالدماء وكان من الصعب أن نعرف مصدر النزيف كان جسده جرحاً كبيراً غائراً ينزف دما من كل مكان ومع إشراقة الشمس فتح الضابط عينيه عن آخرهما ثم أرسل صرخة عظيمة خيل إلى معها أن جنبات السجن قد ارتجت ثم سكت إلى الأبد !!

وكانت خسائر هذه الليلة اثنين من القتلى وأكثر من أربعين جريحاً كما علمنا فيما بعد .

جاء الجند وحملوا جثة الضابط المسكين فى بطانية من الصوف إلى حيث لا يعلم أحد وطلع النهار واستوت الشمس ودبت الحركة فى الآلة الرهيبة .

لا أكتمكم أن أحداً لم يحزن على واحد من الذين ماتوا فى الليل ، لم يكن فى قلب أحدنا مكان للحزن ! فقد غطى الألم والخوف كل جوانحنا ! وكنا نغبط الذين ينجون من العذاب بالشهادة ، والذهاب إلى الله .

فتح باب المخزن قليلا واستطعت أن أتبين فناء السجن من خلال عينى اللتين أضناهما السهر والألم وأبخرة البول فى تلك الليلة الحارة .

ورأيت منظراً لا أنساه !!

مجموعة من الجند ينهالون على شيخ بالسياط ضربا وهو يصرخ ويستغيث ولا تجيبه سوى وقعة السياط الملتهبة على جسده الواهى الضعيف وسكت الشيخ أخيرا بعد أن بح صوته من الاستعطاف وطلب النجدة ، وظلت يداه مرفوعتين إلى السماء الصافية ولا أدرى .. أكانتا تحتجان أم تتوسلان ؟ وعلى الجدار المواجه كانت صورتان لجمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر مرسومتان بالزيت ولم تكونا من رسم فنان بل كانتا رسماً شبيها برسم لأطفال فى السنة الأولى من المدرسة الابتدائية وفوقهما حكمة مكتوبة بخط واضح « كنت أخادع الحياة كى أعيش كما أريد » ولا أدرى من كتبها أكان منكوبا مثلى أم أحد الجلادين ، كنت أشعر أننى فى كابوس مزعج ولا أحتمل التفكير فيما يدور حولى ، لم يكن هناك ثمة سبب يبرر كل تلك الآلام ولم أتصور الشكل الذى ينتهى عليه هذا الحلم المزعج ، وكنت أحسب ألف حساب لكل لحظة قادمة كانت الطاحونة التى تهرسنى كل لحظة أقوى من طاقتى كإنسان محدود الطاقات ، كان الزمن شيئاً مراً كالعلقم أو أشد مرارة ولم يكن أمامى فى مواجهة هذه الأحداث غير الاستسلام الكامل ورويداً رويداً أصبحت أبعد التذمر عن قلبى وأتذكر المؤمنين الصادقين الذين بنوا الإسلام على أكتافهم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه وأدعو من قلبى أن أكون منهم وأن أتحمل هذه الوطأة القاسية دون اعتراض أو احتجاج .

دخل جندى كريه الوجه واليد واللسان ، عرفت أن اسمه « الروبى » وانهال علينا هذا « الروبى » بسيل من الشتائم البذيئة ، وكنا نفهم بعضها ونعجز عن فهم بعضها الآخر ، لكننا على ثقة من أنه يسبنا سباً قبيحاً ، كانْ يحمل فى يده وعاء قذراً وبأصبعه المتسخة صار يعطى كل واحدٍ منا قرصاً صغيراً من الطعمية الرسمية ، وعاود التوزيع وأذكر أننى لم أتقزز. كان الأمر كما قلت لكم أكبر من التقزز ومن كل شىء ، ثم ألقى فوق رءوسنا حفنة من الأرغفة وانصرف .

وأحصينا الخبز فوجدنا أنه كسرات مجموعها ما يوازى خمسة أرغفة وكان عددنا قد قارب الخمسين ، فكان لكل عشرة رغيف واحد من الخبز .

بعد جوع طويل ورغم هذا فقد رفض الكثير منا تناول هذا الطعام ولم يكن الرفض احتجاجاً أو تكبراً ، بل كان الخوف يجعلنا لا نحس بضرورة الجوع وبعد قليل دخل « الروبى » نفسه وأعاد على مسامعنا ما سبق أن قاله وكان ممسكاً بيده اليمنى سيخاً طويلا من الحديد .. وفى يده اليسرى .. كوباً من الألمنيوم القديم قد امتلأ حتى حافته بالشاى ...

وبسيخه الطويل شجَّ رءوس بعض المساكين وانسكب قدر كبير من الشاى الموجود فى الكوب أثناء ضربهُ لنا ، ثم أعلن لنا مفاجأته .. كانت بقية الشاى الموجود فى الكوب هو ما تقرر صرفه للخمسين المجتمعين فى مخزن رقم ٦ الرهيب .

وفى هذه المرة رفضنا أن نشرب الشاى احتقاراً منا لكل شىء ... وبقى فى مكانه حتى الظهر ...

واكتشف الروبى أننا لم نشربه فضربنا جميعا علقة ساخنة ..

وبعد ذلك أتانا جندى آخر أشد بشاعة من صاحبه .. لقد تقرر أن نذهب إلى دورة المياه لنقضى حاجتنا ونغتسل ونشرب بدل البول ماء زلالا من الصنابير .. ولم تتم الفرحة .. ذهبنا إلى دورة المياه المقامة بالدور الأول عدْواً والسياط والكلاب تنوشنا من كل ناحية .. ظهورنا ووجوهنا ورءوسنا . وأدخلوا كل واحد منا مكاناً ، وكان المكان قذرا جداً والبراز يملأ كل شبر فيه ، ولا توجد نقطة واحدة من الماء.. ليس هـذا فحسب .. بل فوجئت – عندما أغلقت الباب وهممت أن أفعل شيئاً – بالجندى وقد فتح الباب فى قسوة وانهال على ضرباً بالسوط .. وارتبكت ولم أفهم ماذا يريد هذا المخلوق بالضبط .. كان فى نظرى مجرد مخلوق من مخلوقات الله ليس إنساناً وما ينبغى أن يكون .. أسود الوجه .. غائر العينين تنبعث من فمه رائحة كريهة نتنة بفعل التعفن الذى أصاب اللثة والأسنان من زمن بعيد .. وكانت البقع الجلدية الباهتة البيضاء تتخلل وجهه الدميم .. وتذكرت داروين وحلقته المفقودة .. وكذلك مر بمخيلتى الكاتب النرويجى ابن ..

وانطلق من فمه الأهتم صوت كالزئير :

– اطلع بره ياابن الكلب

– يافندم لســه ..

– أنت بترد علىّ ياجربوع ياحثالة .. يا ..يا

والسوط يفرقع فى حمية وشدة وحماس ...

وعدت إلى المخزن .. وما استفدت شيئاً فى هذه الرحلة المشئومة إلى دورة المياه غير العلقة الساخنة .. تلك التى تركت آثارها جروحاً فى وجهى وعلى كتفى وظهرى ورأيت الباقين وهم يهرولون كالفئران المذعورة .. والجند وراءهم كالوحوش والسياط والكلاب تعوى فى الفضاء الخانق عبر ساحة السجن الكبير .

وجلست مكوماً ساخطاً بين عشرات الأجساد التى ألهبتها حرارة السياط وعرفت أن أحداً لم يقض حاجته .. وظلت الوجوه صامتة قائمة عليها غبرة غريبة ثم حرك أحدهم يده فى عصبية وانخرط فى بكاء مرير .. ونسى نفسه وتمتم بكلمات :

هذا ظلم !! .. هذا ظلم !!

وقال له ناظر المدرسة الثانوية الأشيب الذى حنكته الأيام :

– كلنا نعرف أن هذا ظلم .. فاضبط نفسك ولا تنطق بكلمة واحدة .. فنحن لا ندرى من سيموت منا هذا النهار ؟!!

وخيم صمت على المخزن لم يقطعه إلا صوت السياط العاوية والصرخات المكتومة تأتينا من بعيد ..

وعاد كل واحد فينا يجتر أفكاره فى شرود ..

وكان كل ما يشغل تفكيرى تلك الكلمة التى قالها لى الضابط فى معتقل القلعة .. شعبان « بتاع الخانكة » .. أين أنت ؟ سيكون هلاكى على يديك ياشعبان .. يسألوننى عنك وأنا لا أعرفك .. وسأموت من أجل جهلى بك ... ولكن الموت تحت السياط شىء رهيب ياشعبان .. ربما يجلدونك فى هذه اللحظة ..

وجدتنى أسأل الموجودين فى صوت ضعيف :

– ياجماعة .. هل فيكم من يعرف شخصاً من الخانكة اسمه شعبان ؟

وبصوت هامس استجاب لى صوت متأفف النبرة :

- أنا من الخانكة ولا أعرف فيها من يدعى « شعبان » غير رجل فى الستين من عمره يعمل فراشاً فى الوحدة الصحية .

واقتربت منه بإلحاح :

- هل له علاقة بك ؟

- لا أظن .. إنه رجل أمى ولا يفهم شيئاً من شئون السياسة ..

- هل له علاقة بالإخوان ؟

- ومن أدراك ؟

فأجابنى فى تأفف خوفاً من حضور الجند :

- أنا من الإخوان .. صدقنى .. ليس فى المنطقة كلها شخص واحد فى جماعة الإخوان يحمل هذا الاسم ..

وعدت إليه فى إصرار وتوسل ..

- أرجوك ..

- ماذا تريد بالضبط ؟

- أعطنى أية معلومات عن شعبان ..

- فراش الوحدة الصحية .

- نعم ..

- لماذا ؟

- سوف يسألوننى عنه ولا أعرف عنه شيئاً على الإطلاق ..

وأجابنى بتذمر وكأنما أراد أن ينهى الحديث .. فكل منا له مشكلته المعقدة ..

- لقد قلت لك .. هذا رجل مسكين ولا يعلم عن العالم شيئا .. وربما لم يغادر الخانكة أبداً ولم يكن له أى نشاط سياسى .. وربما لا يعرف من يحكم مصر فى هذه الأيام هذا « الشعبان » الذى يسألونك عنه لا يمكن أن يكون من مدينة الخانكة .. فلا تشغل بالك وتشغلنى معك ...

- ولكن ...

قاطعنى :

- أرجوك أن تسكت .. فى رأسى ما يشغلنى .. وليس عندى كلام عن « شعبان » أكثر مما قلته لك ..

وعاد إلى نظرته الشاردة وإلى ما فى جوفه من خوف وهلع وانشغال ... وفشلت كل محاولاتى معه لأجعله يتحدث عن شعبان .. ومن بين النظرات التائهة الشاردة صرت أتفحص الوجوه وأتأملها بطريقة غير واعية .. كان الألم يفترسها افتراساً .. وكانت وجوها مصفرة كئيبة عليها آثار التراب المختلط بالدم المتجلط .. وكان فى بعضها دم مازال رطبا طازجاً ينزف من جرح فى أعلى حاجب ذلك الوجه .. ويبدو أن صاحبه لم يلتفت إليه فقد كان فى حالة شرود كاملة ... كان الدم يتساقط على وجهه وملابسه ولا يفعل هذا الإنسان شيئاً سوى أن يزيحه بأصبعه إذا اقترب من عينيه ..

وصرت أتنقل ببصرى من وجه إلى آخر ... وأجدها جميعا متغضنة ولا شىء يميز بعضها عن بعض .. ثم وقف بصرى على وجه .. كان صاحبه قد أتى قبل أن يطلع النهار ولا أدرى لماذا ركزت عينى على مكانه فى الظلام حتى أستطيع أن أراه بوضوح عندما يطلع النهار .. وقد شغلنى قتل الضابط للحظات عن أى شىء آخر ... والآن واتت الفرصة لأتملى هذا الإنسان ...

كان وسيم الوجه ... فى الخامسة والعشرين - هكذا خيل إلى - على شفتيه ابتسامة ميتة ... أو ابتسامة فى طريقها إلى الموت . يرتدى ملابس فاخرة - حليق الذقن والشارب ... وكان يداعب أصبعه الوسطى فى يده اليمنى فى شرود ثم يرسل نظرات إلى المكان .. ويحاول أن يبعث ابتسامة ولكنها ماتت أو كانت فى طريقها إلى أن تموت وصرت أمر بين الوجوه ثم أعود إلى هذا الوجه .. ولاحظ صاحبنا أننى أعاود النظر إليه بين الحين والحين .. وكنت أسأل نفسى .. ترى هل رأيت هذا الإنسان قبل ذلك ؟ ... لقد كنا جميعا نقف على حافة الأبدية .. وكانت رائحة الموت تملأ أنوفنا ... فقد كان الموت هو الحقيقة الوحيدة التى نمارسها فى هذا المكان ..

واقترب هذا الشاب بوجهه منى .. فقد كان لا يبعد عنى بأكثر من شبرين .. وباهتمام بالغ همس فى أذنى :

- أريد أن أفضى لك بشىء بالغ الأهمية !!

وارتعدت فرائصى.. ماذا يمكن أن يقول هذا الشاب لى ؟ وقلت له وكأنى أدفع خطراً عنى :

- أنا لا أعرفك ... ولم أرك من قبل الآن ...

وكأنه لم يسمع كلماتى ..

وخيل إلىّ لحظتها أن ابتسامته قد بعثت .. ولكنى عرفت بعد ذلك أنه كان وهماً صوره لى اقتراب وجهه منى ..

وقال لى :

– اسمى عاطف .. أعمل فى بنك مصر ...
– ياسيدى لا أعرفك .. واسمك لا يذكرنى بشىء ..

وقلت لنفسى ربما يكون هذا الشاب فى ورطة .. وتخيل أننى أستطيع أن أمد له يد المساعدة ... وفى نوبة من نوبات الشهامة .. قررت أن أستمع إليه .. والتفت إلىّ فى حماسة .. وآلمتنى نظرته الحزينة .. وقلت له :

– ماذا تريد ؟ ... أنا تحت أمرك .. ليتنى أستطيع أن أقدم لك شيئاً ..
– ألا تعرفنى حقاً ؟
– كلا
– حاول أن تتذكر ... وجهك ليس غريبا عنى ... يخيل إلىّ أننى رأيتك فى مكان ما ...
– صدقنى .. لم أرك قبل الآن ...
– لماذا يبدو وجهك مألوفاً لدى إذن ؟
– لست أدرى ..
– هل تستطيع أن تكتم سراً ؟
– فى هذا المكان ؟
– نعم
– ليس من خير أن تحتفظ بأسرارك هنا ؟ ربما ...
– ربما ... ولماذا ربما ؟ يستطيع أى إنسان أن يكتم سراً
– إذا كان هذا الإنسان أقوى من السوط ...
– وهل السوط أقوى من الإنسان ؟
– لست أدرى ، ربما ...
– أنصحك بالتريث ...
– دعك من هذا سأقول لك :
– ولماذا تقول لى أنا بالذات ؟
– وجهك يبدو مألوفاً لدى ...
– ألا تخشى أن يخونك التقدير ؟!
– وماذا بعد ..؟

– فى الحقيقية أنك تثير اهتمامي ..
– كأننا أصدقاء ..
– فى الماضى كلا ..
– أقصد أن نتصادق الآن ..
– أنت تمزح ولا ريب ..
– كلا .. أنا أعنى ما أقول ..

ووجدت نفسى أبتسم ابتسامة ساخرة من ذلك الإنسان العجيب .. أفى مثل هذا الوقت يحاول أن ينشىء صداقة؟!! ربما إحساسه بالخطر الذى يدفعه إلى الارتباط .. ربما يريد أن يحتمى خلف شىء ما .. ربما .. ربما ..

وجدت وجهه صبوحاً نبيلا مليئاً بالأسى .. ونظرة صافية حزينة تشع من عينيه ... وابتسمت من جديد ... وكانت ابتسامة عذبة مخلصة.. وكانت لحظة سعيدة .. وكدت أضحك وأنا أقول له :

– أنا موافق ... لا بأس أن نكون أصدقاء ... اسمى ..

فقاطعنى ...

– نسيت أن أقول لك السر ...
– أى سر ؟
– السر الذى حدثتك عنه قبل قليل ..
– لا بأس ... إنى مصغ إليك ..
– وتلفت حذراً هنا وهناك .. وبدت عليه علامات الجد والاهتمام ...
– الموضوع له علاقة بنبيلة ...
– نبيلة ؟
– اصبر ... سأذكر لك كل شىء فى حينه ...

وبدأ الخوف يغزو قلبى من جديد .. وغاضت سعادتى .. كنت أريد أن أبتعد بأى اسم لأى فتاة عن هذا المكان ... فأى اسم يتردد وعلى أية شفة ممكن أن يأتى خلال ساعة من الزمن ... ولو كان هذا الاسم لعفريت من الجن على حد تعبير أحد الضباط ... ولكن عاطفاً هذا لم يكن ملتفتا إلى أفكارى التى تنساب عبر عقلى ... ويبدو أنه كان يريد التحدث فقط .. وأتانى صوته ضعيفا :

– كنت أحبها ... حباً عميقا ... وكانت هى كذلك .

وشملنى إحساس عارم بالسخرية وقلت له :

– لعلك سوف تحكى لى قصة غرامك ....

ونظر إلى بجدية وهو يجيب ...

– نعم وماذا فى هذا ؟
– لا شىء .. ولكن ألا ترى أن المكان لا تناسبه هذه القصة ؟
– ولكننى أراه مناسباً تماماً ..

وتفرست فى وجهه ... كان المسكين فى حالة ذهول كاملة ... وأدركت ذلك عندما دققت النظر فى وجهه ... وأحسست بمدية حادة تمزق قلبى ... كان المسكين فى حالة غير عادية لقد أذهله الموقف .. وشعرت بالحيرة .. ماذا يمكن أن أفعله له ؟ لا شىء وفجأة رأيته ينخرط فى بكاء حاد ومن بين البكاء صار يقول :

– لقد أخذوها عنوة ... توسلت إليهم أن يتركوها فرفضوا .. كانت فتاة رائعة .. وقاطعته .. فقد وقف شعرى من هول المعنى الذى تحمله هذه الكلمات :

– عمن تتكلم ؟ *
– نبيلة – كنا سنتزوج بالأمس .. جاء المأذون لعقد القران ... ولكن
– قبض على أنا وهى .. أخذوها ...
– من الذين أخذوها ..
– المباحث الجنائية العسكرية .. قبل أن يعقد ..
– لماذا ...
– لست أدرى ..
– أنتما من الإخوان ولا ريب ...
– أنا وهى من المسلمين ..
– إنهم يقبضون على المسلمين فى هذه الأيام الحمراء ..
– لحساب من ؟
– لحساب الروس .. لحساب الإمريكان .. وربما لحساب اليهود ...
– اليهود ؟
– نعم ...
– ألسنا أعداء لهم وفى حرب معهم ؟

واقترب شيخ عجوز يسيل الدم بجوار علامة الصلاة فى جبينه وهمس :

– نحن نعاديهم فى الظاهر ... أما حقيقة الأمر فنحن نخدم اليهود المخلصون ...
– نحن من ؟
– المباحث الجنائية وسائر أجهزة الأمن ومن يوجههم ...
– أنت تقول كلاماً خطيراً ..
– أنا أقول الحقيقة ... كل هذا يضعف الأمة فلا تقوى على الحرب ..
– أية حرب ؟

– بعد أن ينتهى هذا المعترك سوف ندخل فى حرب مع إسرائيل ... ونهزم أمامهم هزيمة منكرة تقتل روح الأمة ..
– لعمرى هذا أمر غريب ..
– ستأتيكم الأيام بما لا تعرفون ..

وكان عاطف شارد الذهن ولعله يدرك شيئا من هذا الحوار ولكنه كان يتمتم :

– عندما أتينا ذهبوا بها إلى مكان ... يقولون اثنين ... وهنا أخذ الأمباشى دبلة الزواج ...
– أكانت دبلة من الذهب ؟

وأجاب عاطف :

– نعم .. كانت كذلك ..
– ألا تعرف أن الذهب حرام على الرجال ؟

واستغرق كل فى أفكاره .. وأنا أفكر فى شعبان بتاع الحانكة .. وعاطف يفكر فى زوجته والشيخ يفكر فى اليهود القادمين .

قطع علينا الصمت الذى يخيم على المخزن صوت فتح الباب فى جلبة وضوضاء .. ودخل جندى كريه كأصحابه .. يحمل فى يده ماكينة حلاقة مما يستعمله الحلاقون حلق الشعر وكان يمسكها بطريقة مخيفة .. كأنه يمسك بآلة حادة يهم أن يبطش بها بإنسان وتكلم كأنه ذكر الخنزير ....

– ياأوغاد ... ياأولاد الكلاب .. ياحشرات ... ستحلقون رؤسكم القذرة بعد قليل ياأبناء العاهرات .. وهذا شرف لا يليق بكم بالمرة .. عبدالنبى .. نعم أنا الأسطى عبدالنبى .. (وقالها بطريقة كأنه يقول أنانابليون) الحلاق السابق والمجند حالياً .. سأحلق لكم ... هل تفهمون هذا الكلام ؟ شرف كبير يصرف لكم دون جهد .. هيا تعال أنت ... واختار واحداً منا وكان الذهول يلفنا كالدوامة ... وتقدم الشخص الذى اختاره .. وجس

صاغراً بين يديه كالمغشى عليه من الموت ... وكان هذا الشخص ملتحيا ... ورأينا الأسطى عبدالنبى الأسطورى صاحب الصيت الذائع فى عالم الحلاقة كما يدعى .. وقد هم به كأنه سيفترسه لا سيحلق له ..

ومن بين الكلمات والصفعات المتوالية حلق له .. وكانت حلاقة عجيبة .. فقد حلق له نصف لحيته ونصف الشارب المحلوق .. ثم حلق له شعر رأسه .. وختم الأسطى له حلاقته بضربة قوية من ماكينة الحلاقة على رأس الزميل المسكين فتناثر الدم وسقط مغشياً عليه .. واستمرت الحلاقة أكثر من ساعتين بين الصراخات والأنات المكتومة .. والكلاب تعوى فى فناء السجن .. وماكينة الحلاقة فى يد « عبدالنبى » التى تقطر دماً .. وضحكات الجنون ترتفع فوق الصرخات والأنات وعواء الكلاب الضارية فى فناء السجن ...

وجاء دورى فى الحلاقة وكان نصيبى جرحاً عميقا فى أعلى جبهتى ...

وانتهت هذه المجزرة وانصرف الأسطى عبدالنبى ضاحكا مسروراً ... ولم ينس قبل أن ينصرف أن يوزع علينا بركاته من الشتائم المنتقاة التى – والحق أقول لكم – منها ما لم أسمع به قبل أن ينطق بها الأسطى عبدالنبى .

وانشغلنا بعد ذهابه بتضميد جرحنا .. ولم تكن لدينا أدوات لإسعاف اللازمة فكنا نمزق ملابسنا الداخلية ونحاول أن نكتم الدم المتدفق .

وأذكر أنهم أثناء ذلك قذفوا لنا بأحد المصابين العائدين من التحقيق ... وكان ذلك المسكين قد أخذ علقته منذ يومين وترك فى العراء حتى جيفت جروحه وتقيحت .. وفاحت رائحتها الكريهة .. ولحظة دخوله المخزن هبت رائحة كريهة كأنها صادرة من قبر دفن صاحبه حديثاً ... وتكوم الرجل بيننا ولم ينقطع صراخه لحظة واحدة ....

« رجلى ياناس ... الحقونى ياناس ... النار ... النار .. ياناس .. حاموت ... ألا يوجد فيكم مسلمون .. والله ما أعرف حاجة عن الإخوان .. الله يلعن السياسة .. ياناس أنا عربجى إيش عرفنى بالإخوان .. ياناس واحد يطفى النار اللى فى رجلى » .

كانت قدمه اليسرى ملتهبة وممتلئة بالصديد ولم نكن نملك غير الدعاء بأن يخفف الله آلامه وعندما اشتدت آلام الرجل وعلا صراخه حتى جاوز المكان اندفع الدم فى عروقه أحد الذين معنا وقام وطرق الباب طرقاً عصبياً حتى يأتينا أحد الحراس وتجمد الدم فى عروق وفى عروق الموجودين على ما أظن ولن نتمكن من منعه فقد قام وفعل ذلك فى حركة خاطفة وصح ما توقعنا !!

فقد فتح الباب وظهر من فرجته ثلاثة من الجنود كأنهم الشياطين وفى يد كل واحد هراوة ضخمة وكأنهم كانوا على استعداد وفى انتظار إشارة البدء وصاح رئيسهم وهو أقبحهم وجهاً : وقعتم فى المحظور يا أولاد الكلب .. كنا ننتظر هذه الغلطة هيا إلى الخارج جميعاً !!

وأوقفونا صفاً متجاورين ولم يأت معنا الرجل الجريح فما كان بقادر على الوقوف وقد تأكد رئيس الحرس من ذلك بعد أن طحنه بهراوته طحنا ولم يقم الرجل بل كسرت ذراعه فى هذه العلقة أما ما فعلوه بنا فقد كان شيئاً جديداً لقد أرغمونا على كنس فناء السجن بأيدينا التى مزقها الزجاج الدقيق المتناثر فى الفناء وأوسعونا ضرباً ولكما و « رفسا » ثم جعلونا نلحس سلالم السجن بألسنتنا تحت ضغط السياط والهراوات ونهش الكلاب !!

وعدنا إلى المخزن والدماء تسيل من أفواهنا ومنا من صاحبه ورم فى لسانه حتى وقتنا هذا !!

أما الرجل الذى تركناه جريحاً يعانى من الصديد الذى ملأ قدمه فقد رأيناه يفعل شيئاً عجيباً !!

كان يتبرز ثم يدهن قدمه المتورمة ببرازه يطفىء نارها المستعرة ثم انتابته حالة عصبية فصار يأكل البراز ويصرخ صراخاً عالياً وحاولنا رغم كل ما حدث أن نهدئه وأن نمنعه مما كان يفعل !!

ووجدت دموعى تنساب على خدى دون صوت كان قلبى يتمزق وكان هو يتمزق ، وينضغط تحت ثقل يد قوية عاصرة ولم يفكر أحد منا فى استدعاء الحرس لإسعاف الرجل المسكين ولم ينقطع صراخه طوال النهار !!

وفى الليل وأثناء تغيير نوبة الحرس المسائية صار الرجل ينادى زوجته وأبناءه بأعلى صوته ويطلب منهم أن يسامحوه ويغفروا له ذنوباً لا نعرفها ثم اختلج جسده وأسلم الروح .

وفى الصباح وجدنا فى وجهه تعبيراً هادئاً مطمئنا كأن الله غفر له !! بعد أن مات الرجل وعرف كل من فى المخزن أنه مات انفعل أحد الموجودين وبكى بصوت مكتوم ثم ارتج المخزن بالبكاء وصلينا عليه ونحن فى أماكننا وهو غارق فى برازه ، وصديده ، وابتسامته الهادئة التى لم نرها إلا فى الصباح !!

وكانت هذه هى الليلة الثانية فى السجن الحربى، الليلة الثانية التى لم أذق فيها طعم النوم وإذا أضفنا الأربعة أيام التى قضيتها فى المحمصة بأبى زعبل يكون مجموع أيام السهر ستة أيام كاملة ويبدو أن معظمنا قد نسى أن هناك ضرورة حياتية اسمها النوم .

وفى هذه الليلة كان جوفى يحترق من العطش مما جعلنى أشرب قدراً أكبر من البول الذى جمعناه فى أوعية المطاط طوال النهار وجاء النهار ومعه الجند ليفعلوا معنا ما فعلوه فى الأمس فتكلم أحدنا فى صوت ضعيف : وهناك روائح أخرى تهب من الأجواف التى أنتنها الجوع والسغب وقذارة الأسنان وكان صوت المزلاج عندما يتحرك إيذانا بفتح الباب يجعل كل من يسمعه ينتبه ويصل إلى قوة إنفعاله وتمتلىء عروقه بالأدرينالين تحفزاً واستعداداً لمواجهة الخطر وتمثل لنا أسوأ الأوقات فى لحظة تسليم الطعام الضئيل الكمية القذر الصناعة لأنهم يتهزون هذه الفرصة فيوسعوننا ضرباً ولكماً وأذى !!

وكان كل واحد ينتظر لحظته الرهيبة لحظة استدعائه إلى التحقيق وكان عذاب الانتظار رهيباً هناك من مات فى انتظار هذه اللحظة لم يستطع قلبه احتمال ذلك القدر العارم من الخوف فلم يكن أمامه غير الموت يا أفندم فيه واحد ميت !!

وأشار بيده إلى الجثة الهامدة وارتسمت على وجهة جندى ابتسامة وقحة :

واحد فقط ياأولاد الكلب ؟ أين نذهب بوجوهنا من سيادة العميد ؟! أى إنسان هذا الذى يتحدث عنه الجندى ؟ لا شىء أنه ليس من البشر ألا يؤثر فيه منظر الموت الجديد ؟

لقد رأيت جنديين يحملان الجثة وهما يضحكان ويتغامزان كأنهما يحملان ماذا أقول ؟ كأنهما يحملان أرخص الأشياء وأدناها قيمة وذهب الرجل المسكين الذى لم نعرف عنه شيئاً سوى أسماء أبنائه الذين ظل يناديهم فى لحظاته الأخيرة قبل أن يموت لقد ذهب الرجل إلى مكان خلف الحياة إلى الله الذى يجد عنده العدل والرحمة والسلوان وكانت الأفكار فى هذا اليوم تمور فى نفسى .

ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ما الظلم ؟ وما العدل ؟ وما العزة ؟ وما الذلة ؟ ما البغض ؟ ما الحب ؟ ما الجوع ؟ ما الخوف ؟ كل هذا ليس سوى كلمات وما أنا ؟ لست سوى كلمة وما الآلام ؟ أيضاً كلمة وما النكرة وما الصمت ؟ الحق والباطل كلمات ولكن تختلف الكلمات وتتمايل هناك **﴿ كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ﴾** وهناك الكلمة الخالدة طيبة **﴿ كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس ﴾** والحياة التى نعيش فيها ويصنعنا بعضها ونصنع نحن البعض الآخر ليس هذا كله إلا صراعاً بين الكلمات ... الكلمات الخبيثة والكلمات الطيبة - ونحن بين هذه وتلك فى علو وانخفاض ولا يتربع فوق عرش الحياة فى النهاية التى لا يمكن قياسها بمقاييس البشر إلا أصحاب الكلمة العليا الكلمة الطيبة ذات الأُكُل المتجدد الدفاق اللا متناهى ما دام للوجود حس أو شعور .

الحقيقة أننا واجهنا الموت فى هذا المخزن وبعضنا تاله .. قضيت فى هذا المخزن ثلاثة أيام ونقلت فى اليوم الرابع إلى الزنازين ولم يتركنى الموت لحظة طيلة العام الذى قضيته فى السجن الحربى فقد كنت ألقاه فى كل دقيقة وقد ترك هذا العام فى نفسى أثراً لا يمكن أن يمحى أو يوصف أو يتخيله إنسان غير ذلك الذى عاشه وعاناه !! وقد تكونت ثقافة مشتركة بين هؤلاء الذين عاشوا تلك الأيام المفزعة فكم من الكلمات لا تعنى شيئاً بالنسبة لكثير من الناس !! ولكن هناك كلمات تتردد بين هؤلاء الذين كانوا هناك فتسرى بينهم كما تسرى الكهرباء فى سلك النحاس ويكون فى نفوسهم معنى لا يختلفون عليه !!

كانت أكثر اللحظات أمنا تلك التى يُحكم فيها الحراس علينا غلق باب المخزن رغم الرائحة القذرة التى تملأ المكان من البراز والبول والصديد الموجودة فى كل مكان ورائحة كريهة » انتهى. وبعد تقديم هذه الصور التى تقشعر منها الأبدان وتشيب من هو لها الولدان أستطيع أن أجزم بأن ماذكر فيها ليس كل الحقيقة بل هو غيض من فيض وجزء من كل وقطرة من بحر وسطر من قمطر من الواقع المرير الذى لا تشرحه العبارة ولا يقوى على وصفه بيان ولا يستطيع أن يوفيه لسان فهو عند ربى فى كتاب **﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب ﴾** .

تهمة عجيبة

دخل معى السجن فتيان كانت تربطنى بهما صلة الشيخ برواده وكانا يقومان بخدمة المصلين يوم الجمعة حسبة لله تعالى وقد تم اعتقالهما معى فقد كانا يسافران بصحبتى لأداء الخطبة فى مسجد الشهداء بمدينة السويس وقد نالا فى المعتقل العذاب الأليم فى سبيل أن يكونا شاهدين علىَّ وقد أخبرنى أحدهما بعد انتهاء فترة التحقيق بأنه قد استعمل معه الوسائل العلمية التى تدفعه دفعاً إلى أن يقول كل شىء وكان السؤال الذى يترددعليهما دائماً أين يخفى الشيخ

كشك السلاح ؟ وهما يعلمان « علم اليقين » بل « عين اليقين » أن السلاح الذى أدعو الناس إليه هو « سلاح التقوى » وهو السلاح الأقوى !!

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

وأراد الله تعالى أن يجعل من اعتقالهما سلوانا لنفسى وتخفيفا من أهوال الخطوب الجسيمة فقد كانا يقومان على خدمتى من غسل الثياب التى كادت تبلى وتعشش فيها الهوام كذلك يقومان بإعداد الطعام الذى إن شئت فقل إنه لا يقل بشاعة عن طعام الدواب ؛ فضرره أكثر من نفعه ، قطعة من الجبن إن شئت فقل إنهما اقتطعت من جبال الملح ، إبان العصور الوسطى ، وعسل أسود حامض كأنه الغسلين . والناس كثيرا ما يبتلون بالأمراض التى لا تتفق وهذا الطعام فمريض الضغط ، لا يستطيع أن يأكل هذه الحجارة التى كأنها طبخت فى جهنم ، ومريض السكر لا يقوى على تناول هذا العسل . فماذا يفعلون ؟! إنهم إن امتنعوا عن الطعام ماتوا جوعا ، وإن أكلوه ازدادت الأمراض ، و شتد الألم فهم بين أمرين أحلاهما مر . أما عن النوم فقد فرشت الأرض بطبقة من الأسمنت الذى يؤلم الأجسام صيفا وشتاء ومن الناس من أصيب بأمراض فى عظامه وكثير من يؤذيه أن ينام على تلك الأرض الصلبة ذات التعاريج والحفر ، أماما تحويه الزنزانة من أنواع الحشرات فحدث عنها ولا حرج . فإن مابها من لاسع وقارض وقارص يذهب بالنوم من الجفون ليترك الآدمية فى فزع وهلع وقلق وجزع هذا هو الطعام . والمنام ، وثالثة الأثافى . الذهاب إلى دورة المياه ، إنها مشكلة المشاكل فاعجب معى لقوم يتحكمون فى أخص خصائص الإنسان حتى لقد قرأنا على أحد جدران الزنزانة كلمة قالها أحد الذين دخلوها قبلنا كتب يقول « كنا نطالب بحرية القول ، فأصبحنا نطالب بحرية البول » نعم إنها الفطرة التى ركزها الله فى الإنسان وقد كان من هديه ﷺ إذا فرغ من تناول الطعام يقول : **الحمد لله الذى أذاقنا لذته ، ودفع عنا أذاه ، وأبقى علينا قوته وكان يدعو بعد الطعام بتلك الكلمات : أكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة الأخيار ، وأفطر عندكم الصائمون ، وذكركم الله فيمن عنده اللهم بارك لنا فيما رزقتنا ، وزدنا خيراً منه » . أما إذا شرب اللبن فكان يدعو قائلا ﴿ وزدنا منه »** .

كيف يصبر الإنسان وهو يدافع الأخبثين ؟ كيف يصبر على من يرد عليه قائلا أمامك ست ساعات إنه يظل يتلوى من حصر البول !! أيبول فى المكان الذى ينام فيه وليس معه ما يبول فيه ؟! أليس هذا تعذيبا بغير سوط أو عصا أو كى بالكهرباء أو إطفاء أعقاب السجاير فى ملامس العفسة ؟!! أيقال بعد ذلك لمن دخل السجون هل عذبوك ؟ إنه سؤال

غير وارد لقد كان يجاورنى فى زنزانة أخرى أحد « **علماء المسلمين** » وكان له قدم ثابتة فى العلم وكان يؤدى خطبة الجمعة فى أحد المساجد بالضاحية المعروفة بمصر الجديدة وكانت الجموع الغفيرة تولى وجوهها شطر هذا المسجد وتؤمه فرحة مستبشرة بالاستماع إلى هذا الداعية الإسلامى الكبير الذى تنطق الحكمة من نواحيه ولأنه كان يقول الحق ولا يخاف فى الله لومة لائم ويبلغ رسالات الله ويخشاه ولا يخشى أحدا إلا الله من أجل ذلك أصبح نزيل السجن وكان مريضا بالسكر ، ومريض السكر كما هو معروف يكثر من الذهاب إلى دورة المياه ليفرغ ما فى المثانة من بول ، فكان كثيرا ما يطرق باب الزنزانة من داخلها مستغيثا بمن يفتح له لما يعانيه من ألم البول ، ولكن لا مجيب ولا مستمع !! لم يكن هناك رحمة بالآدمية فإذا ما كثرت أصوات الأنين وارتفعت صاح فى السجن صائح ذو صوت غليظ قائلا « اسكت ياولد » هذا الصوت لو سمعته الطير ما خرجت من أوكارها ولو سمعته الغربان والبوم ما فارقت أعشاشها إنه نعيق الخراب ونذير الشؤم فى أيام نحسات نعم كانت أياما بلا شمس وكانت لياليها بلا قمر إنما هى ظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها .

إستدعاء إلى التحقيق مرة أخرى

فى الليلة الثانية من اعتقالى وقبيل الفجر بقليل فتح على باب الزنزانة وصاح أحد الجلادين بصوت مرتفع قائلا لى إذا سمعت صوت الزنزانة يفتح فقم واقفا بلا تردد فقال أحد مرافقىّ : إنه كفيف وأخذت من يدى إلى مكان التحقيق وجلست أمام المحقق فإذا هو يلقى علىّ هذه الأسئلة : هل سبق لك الحج أو العمرة ؟ قلت : لا . ثم سأل هل أسلم على يديك بعض النصارى ؟ قلت : نعم . وسأل وكيف كان ذلك كذلك قلت : كانوا يستمعون إلى دروس العلم من خارج المسجد ، وكانت تدور بينى وبينهم مناقشات فى أرض الحديقة الملحقة بالمسجد ، وقبل ذلك وبعده فإن الله تعالى يقول : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ وذكرت له قصة إسلام أبى ذر الغفارى وقد جلس بين يدى رسول الله ﷺ ولما سأله الرسول عن اسمه وقبيلته وعلم أنه من غفار قال له وفيم جئت ؟ سأله هذا السؤال وهو يعجب عندما أخبره أبو ذر بأنه جاء لينطق بكلمة التوحيد ليصير مسلما موحدا .

وسر عجب الرسول ﷺ من ذلك أن قبيلة غفار كانت تقوم بقطع الطريق وتسلب الناس أموالهم ولكن زال العجب عندما قرأ الرسول ﷺ قوله تعالى : ﴿ **ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾ إن الإيمان إذا تمكنت بشاشته من شغاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكنا ويجعل الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا ، إن قوة الإيمان لتحرك الجبال . وتسير الغيوم .

وانتهى التحقيق عند هذا الحد فقد حاولوا أن ينتزعوا أى كلمة من الشابين اللذين دخلا معى السجن ليجعلوا منها قضية ولكن كان الحق أقوى ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون** ﴾ أين أخفى السلاح ؟ أأخفيه فى المنبر الذى أخطب عليه ؟ وماذا أصنع بالسلاح والحق قوة بين قوى الجبار أمضى من كل أبيض هندى ؟ إننى مازلت أذكر عندما حضر أحدهم إلى بيتى للتفتيش ولم يكن قد مضى على زواجى خمسة أشهر وجد بعض السكاكين التى كنا قد جئنا بها بمناسبة الزواج فسأل متهكماً ما هذ السلاح ؟ وقلت فى نفسى سبحان الله أتسمه سلاح الطيران ؟ أم المدفعية أم المدرعات ؟ أم الصواريخ ؟ وأخيراً قلت : نعم إنه سلاح البصل !! إنها لغة الأقوياء !! لغة الذئب الذى قال للحمل عكرت علىَّ الماء !! وهو يعلم أن «الماء لا يجرى فى العلالى» ولكن القوى يختلق الذنب للضعيف ليهلكه ونسى أن فى السماء مملكة يقول فيها مالكها ومليكها « **وما كنا عن الخلق غافلين** » لقد كتب على باب تلك المملكة ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ .

رؤيا منامية

سألت نفسى وأنا داخل السجن فى أيامه الأولى لماذا جئت بى هذا المكان ؟ وما هو الذنب الذى جنيته ؟ ومتى وقت الرحيل ؟ وهل هذا الليل من آخر ؟ ليل الظلم والظلمات وقطع علىَّ هذه الأسئلة النوم فقد نمت بعد الإرهاق الشديد فرأيت فى المنام الصدّيق رضى الله عنه واقفاً أمام منبر المصطفى صلى الله عليه وسلم وسألته أيرضيك ياخليفة رسول الله ما نحن فيه فرد علىَّ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم** ﴾ وعلمت أن هذه الشدة لابد لها من الصبر والصبر كما قال العلماء : احتمال الكد أو هو مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد للقبائح أو هو ثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات . وقد يكون الصبر عفة إذا كان صبراً عن شهوة ، وقد يكون حلماً إذا كان عن جهالة الجاهلين وكاد الحليم أن يكون نبياً ، وقد يكون شجاعة إذا كان على الغضب وقد يكون قناعة إذا كان عن شهوة الغنى ، فالصبر مع الله وفاء ، والصبر لله ولاء ، والصبر فى الله عطاء ، والصبر عن الله جفاء ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ وعلمت أنه لابد من الصبر من التسبيح بحمد الله حين يقوم الإنسان وحين الليل وساعة إدبار النجوم ولابد من لزوم الاستغفار فإن من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق فرجاً ومن كل شدة مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب .

جاء عوف بن مالك إلى النبى ﷺ يشكو له أسر ابنه بيد الأعداء فقال له الرسول صلوات ربى وسلامه عليه « **أكثر وأنت زوجك من قول لا حول ولا قوة إلا بالله** » وعاد الرجل إلى بيته وأخبر زوجه بما أوصى به رسول الله فجلس يرددان هذا القول المأثور « **لا حول ولا قوة إلا بالله** » وما أن أوشك الفجر أن ينشق ضوءه حتى كان الباب يطرقه وإذا الطارق ابنهما وبعد أن استقر به المقام يسأل ماذا كنتما تقولان فقالا كنا نقول : « **لا حول ولا قوة إلا بالله** » فماذا حدث لك ؟ قال لقد قيدنى الأعداء بسلاسل من حديد كى لا أستطيع الفرار فشعرت كأن حلقات السلسلة تتسع شيئاً فشيئاً حتى أخرجت يدى وقدمى وعلى حين غفلة من الأعداء سقت تلك الربوس من الغنم فذهب عوف بن مالك والفرحة ترفرف فوق رأسه كأنها الحمائم البيضاء ، فوق المروج الخضراء ، ذهب إلى رسول الله ﷺ ليقص عليه ما حدث وإذا الصادق المعصوم يقول له : **ياعوف ، لقد أنزل الله فى حقك قرآنا يتلى إلى يوم القيامة وتلا عليه قوله تعالى** : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً** ﴾ .

صور من السجن

أخبر الصادق المعصوم ﷺ أن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها وذكروا أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه لما ذهب إلى بلاد الشام وجد رجلا يقف فى حر الشمس وأمامه ظل ظليل فسأل : لم وقفتم هذا فى حر الشمس وهولافيح؟ قالوا : ياأمير المؤمنين لقد أتى ذنبا فكان ما رأيته عقابا له، فأخذه عمر بيده إلى الظل ثم قال لهم : قد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا** » . نعم يافاروق هذه الأمة. يامن حكمت فعدلت فأمنت فنمت . لقد كان إسلامك نصرا وهجرتك عزّاً وخلافتك رحمة :

إن جاع فى شدةٍ قومٌ شركتهم	فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته	فى الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته	أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها	من أين لى ثمن الحلوى فأشريها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به	أولى فقومى لبيت المال رديها

إن الرسول ﷺ يخبر عن الرحمة فيقول : « **من لا يَرحَم لا يُرحَم** » ويقول : « **لا تنزع الرحمة إلا من شقى** » ويقول : « **الراحمون يرحمهم الرحمن** » « **ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء** » . وروى أبو بكر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ عن الأمين

جبريل عن رب العزة أنه قال فى حديثه القدسى الجليل: (**إن أردتم رحمتى فارحموا خلقى**) .

حدث أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ فدعا الله قائلا: « اللهم ارحمنى ومحمدا ولا ترحم أحداً سوانا» فقال له مبعوث العناية الإلهية : يا أعرابى لقد حجّرت واسعا أى ضيقت رحمة الله الواسعة . وكان أحد الصالحين يناجى ربه فيقول : إلهى إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى فأنت القائل : ورحمتى وسعت كل شىء وأنا شىء فلتسعنى رحمتك . وكان بعضهم يقول : شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا . قطرة من فيض جودك تملأ الأرض رياً ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا .

إن كانوا يقولون : الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ، فهناك من يقول : الحرية تاج على رءوس الأحرار لا يراه إلا المسجونون . إذا نُزعت الرحمة من الإنسان فقد نُزعت منه حقيقة الإنسانية فى الإنسان . لقد رأيت صوراً داخل السجن يندى لها جبين الإنسانية حياء منها، فقد كان بجوار زنزانتى شيخ من علماء الإسلام سبق أن تحدثت عنه كان قد اشتد به مرض السكر ، فكان إذا جاع آلمه الجوع إيلاما شديدا بحيث ينهار انهياراً كاملا . طلب الطعام وهو يئن من وطأة الجوع ، فجاءه أحد الجلادين وهو من غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع ، قساة القلوب ، فسأله الشيخ شيئا من الطعام ، فقال له الجلاد ساخرا : انظر إلى سقف الزنزانة ، فنظر الشيخ الجليل الذى كانت ألوف النفوس تهوى إلى سماعه فى مسجده ، قال له : فماذا ترى ؟ قال : أرى حشرة تمشى . قال له الجلاد : إن قفزت وجئت بها من السقف فسوف أحضر لك الطعام . وازداد الشيخ ألماً على ألمه كما يقولون : وأخف من بعض الدواء الداء . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة . وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء . وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ . لقد فتح الإسلام أبواب الجنة أمام رجل سقى كلبا كان قد اشتد به العطش . وهذا إنسان زادت سنه عن الخمسين وعاء وسع قلبه كتاب الله لفظاً وغاية ، ومريض هزم المرض فيه العافية . فما حركت كل هذه العوامل شعرة فى هذا الجلاد . يا للأسى !!

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى   وصوّت إنسان فكدت أطير

ومن هذه الصور التى يسيل لها الكبد مرارة . استيقظنا ذات صباح على صوت ينطلق من داخل زنزانة يصيح : صداع . صداع . فلم يستجب له أحد ، إنما ردّ عليه أحد الجلادين بصوت مفزع : مت إن شئت . فلو مات من أصنافكم مليون أو مليونان لاسترح

البلد . فتصوّر معى : إنسانا يكاد الصداع يفلق رأسه ويشق كبده . لا يُستجاب له ولو بقرص من المسكنات .

– صورة أخرى مقبضة : شكوت ألما فى مفاصلى من طول المُكث على أرض لا تليق إلا بالدواب حتى أوشكت ألا أقوى على القيام ، ونُودِىَ ذات يوم : من أراد الباشا الدكتور فليبلغ عن اسمه ، فبلّغت عن اسمى عسى أن أجد عنده من الدواء ما يُسكن ألمى . وجاء من يأخذ بيدى فإذا الطبيب على غير ملة الإسلام وسألنى : مم أشكو ؟ . وشرحت له . فقال متهكما : إذا كنت تشكو الألم عندما تقوم فلا داعى إلى قيامك . فقلت له : يؤلمنى أكثر أن أصلى جالسا . فقال متهكما ساخرا : لا داعى أن تصلى وماذا فعلتم بصلاتكم ؟ وتذكرت قول الشاعر العربى :

والمستجير بعمرو عند كربته   كالمستجير من الرمضاء بالنار

– صورة مؤسفة : نعم إنها مؤسفة ومحزنة ومخزية ولكن فيها عبق، كنا إذا ذهبنا إلى دورة المياه صباحا نُساق بالعصا كقطيع من الغنم . وكان أحدنا لا يُسْمَحُ له فى دورة المياه بأكثر من ثلاث دقائق لقضاء الحاجة فإذا مضت الدقائق الثلاث دون أن يخرج فُتح عليه الباب قسراً وضُرب ، وخرج مهينا كاسف البال قليل الرجاء . بل لقد كان بعضنا يخرج دون أن يقضى الحاجة . وكان من بيننا شاب يشكو مرض « الدوسنتاريا » وكان قضاء الحاجة يؤلمه بحيث يحتاج إلى وقت طويل . فكان كثيرا أو دائما ما يخرج مضروبا . وكان ذلك يحز فى نفوسنا ويزيدنا كربا فوق كربنا ، فكان إذا اشتد بنا الكرب وادلهمت أمامنا الخطوب نستغرق فى الاستغفار وذكر الله .

يد الله تعمل فى الخفاء

إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها وما من يد إلا ويد الله فوقها وفوق تدبيرنا لله تدبير ولله تعالى فى كل نفس مائة ألف فرج !!

يا صاحب الهم إن الهم منفرج   أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه   لا تيأسن فإن الكافى الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة   لا تجزعن فإن الصانع الله
إذا بليت فثق بالله وارض به   إن الذى يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحد   فحسبك الله فى كل لك الله

وقد صدق الرسول ﷺ وهو يقول فى قوله تعالى : ﴿ **فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا** ﴾ قال لن يغلب عسر يسرين ، لقد هيأ الله تعالى للشيخ الجليل الذى كان جوار زنزانتى وكان يعانى من مرض السكر وكانوا شيئ وشدة الجوع هيأ الله له رجلاً من الحراس لكن رزقه الله قلباً طيباً كان يتنازل عن طعامه ويعطيه للشيخ ، ثم أحضر له كوزاً ليبول فيه وفصارى القول كان يتعهده وهكذا تسلل بصيص من الرحمة كشعاع الشمس المتسلل من حنايا النافذة وسبحان من ربى موسى فى بيت فرعون ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون** ﴾ نعم إن يد الله تعمل فى الخفاء .

همس الجلاد الذى كان يسوقنى إلى دورة المياه بعصاه كقطيع الغنم همس فى أذنى ذات يوم وقال وهو يكاد يبكى : ادع الله أن يشفى زوجتى فإنها تعانى من الدوسنتاريا . فقلت له : إن أردت أن يشفيها الله فاعمل بنصيحتى . أتعرف الأخ فلان؟ قال نعم : قلت إنه يعانى من الدوسنتاريا وأنت لا تسمح له فى دورة المياه إلا بثلاث دقائق فإن تأخر عنها فتحت عليه الباب وضربته دعه يأخذ راحته وأعطه من الوقت أضعاف ما كنت قد قررته له وسوف يشفى الله زوجتك وذكرته بقول السيد المعصوم ﷺ : « **البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت اعمل ما شئت كما تدين تدان** » ونفذ النصيحة حتى كان ذلك الأخ المريض يتعجب لحسن المعاملة التى لم يتعهدها من قبل مكان كلما أراد الأستئذان إلى العنبر عائدا من دورة المياه قال له الذى كان يضربه من قبل ارجع فقد صرفت ربع ساعة ، وقت ضاق ، وجاءنى ذلك الجلاد بعد يومين فرحاً مستبشراً يشفاء الله لزوجته نعم !! بالكيل الذى تكيل به الناس سيكال به عليك ﴿ **ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ يأيها الناس حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا .

أما « عم سيد » ذلك الحارس الطيب فقد أهدانى هدية لن أنساها ما حييت فقد أخذنى ذات يوم لأ توضأ لصلاة الفجر وأثناء عودتى إلى العنبر غمزنى فى يدى ووضع بها بصلة صغيرة وقال لى خذ هذه لتأكله بجانب الخبز وادع لزوجتى « أم نفيسة » وأرجوك ألا ترمى قشرها فى العنبر فإنه من الممنوعات . قلت سبحان الله !! قشر البصل من الممنوعات !! وقتل الأبرياء ، وتعذيب الناس وجلدهم وسحلهم ووضعهم فى زنازين نصفها ماء ، وصلبهم فوق سور سجن أبى زعبل ، وتشريد عائلاتهم وترويع الآمنين ، وإطفاء أعقاب السجاير فى ملامس العفة ، كل هذا ليس من الممنوعات ؟!! قلت له أطمئن ياعم سيد فسوف آكلها بقشرها .

وكم ذا بمصر من المضحكات   ولكنـــه ضحك كالبكـــا

صبرنا إلى أن مل من صبرنا الصبر   وقلنا غدا أو بعده ينجلى الأمر
فكان غدا عمراً ولو مدَّ حبله   فقد ينطوى فى جوف هذا الغد الدهر
وقلنا عسى أن يدرك الحق أهله   فصاحت عسى من لا ولا طعمها مر
عجبت لمصر تهضم الليث حقـه   وتفخر بالسنُّور ويحك يا مصر !!
سلام على الدنيا سلام على الورى   إذا ارتفع العصفور وانخفض النَّسْر

كان من أشد الأشياء لنا إيلاماً أنه لم يكن معنا ثياب حتى نغسل ماعلى أجسامنا ونلبسه بل لقد خرجنا من ديارنا أو أخرجنا منها وقيل لنا يومها : إنكم لن تتأخروا خمس دقائق وكادت الثياب تبلى وقد ملأتها الهوام ومنها حشرة القمل وأوشكت العورات أن تنكشف ولم يكن معنا إبرة ولا خيط فكنا نقضى أكثر وقتنا ندعو الله بدعوتين علمها النبى ﷺ أصحابه يوم الخندق وبنى قريظة بعد ما اشتد الكرب ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً** ﴾ قالوا يارسول الله فماذا نقول؟ قال لهم : قولوا : « **اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا** » .

قضيت فى سجن القلعة ثلاثة أشهر مضت الساعة فيها كأنها شهر ومضى اليوم كأنه دهر كان الزمن يمضى متثاقلاً بطيئاً كأن أيامه سلسلة من الجبال ولكن مما كان يخفف عن النفس قليلاً أننا كنا مجموعة تزيد عن العشرة فى مكان واحد لكن كان الأنين الذى ينبعث من أصوات المعذبين يمنع النوم عنا ويجعل الطعام ذا غصة كأنه الضريع أو الزقوم أو الغسلين فكان ذلك كله يحز فى النفوس أضف إلى هذا ما كنا نعانيه من الانشغال على أولادنا وأهلينا فإذا هان علينا العذاب البدنى فمن الصعب أن يهون العذاب النفسى ولكن الليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر وسبحان من قال ﴿ **ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ كان القرآن لنا خير جليس وأفضل أنيس وأعظم صديق وأكرم رفيق فمن أراد أن يكلم الله فليدخل فى الصلاة ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن . فمن أراد مؤنساً فالله يكفيه ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ، ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه . ومن أراد وعظاً فالموت يكفيه ، ومن لم يكفه شيء من هذا فإن النار تكفيه نعم كان القرآن لنا شرباً ومغتسلا .

وخير جليس لا يُمَلّ حديثـه   وترداده تزداد فيه تجمـلا
وحيث الفتى يرتاع فى ظلماته   من القبر يلقاه سناً متهللا

هنالك يهنيه مقيلا وروضـة   ومن أجله فى ذروة العز يجتلى
يناشد فى إرضائه لحبيبه   وأجدر به سؤلا إليه موصلا
فيأيها القـارىء به متمسكاً   مجلاً له فى كل حال مبجـلا
هنيئاً مريئاً والداك عليهما   ملابس أنواع من التاج والحلى

وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء** ﴾ نعم إنه الروح الذى يحى الموات والنور الذى يذيب غياهب الظلمات ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم** ﴾ .

انتهى الجزء الثانى من كتابى

« قصة أيامى »

ويليه الجزء الثالث بإذن الله مبتدئاً به تحت عنوان :

« من القلعة إلى طرة »

من القلعـــة إلى طـرة

وقبل الرحيل إلى سجن طرة لابد أن أذكر تلك الواقعة التى تعتبر من المضحكات المبكيات ، وقد قالوا : إن من شر المصائب ما يضحك . فوجئت وأنا فى معتقل القلعة بوجود طالب قد اعتقل وهو أحد طلبة كلية الآداب بجامعة عين شمس ، وكان مندوب الطلبة فى دعوة المحاضرين بكليات الجامعة ، وهو الذى كان قد دعانى مرتين لأحاضر فى طلبة جامعة عين شمس ، ولما لقيته بالمعتقل سألته السؤال التقليدى الذى يتردد على ألسنة المعتقلين عندما يلقى بعضهم بعضا ، قلت : ما الذى جاء بك يا عبد الفتاح ؟ وما التهمة التى وجهت إليك ؟

وكانت الإجابة تدعو إلى الأسى !! وفى نفس الوقت تدعو إلى الضحك !! قال : عندما دعوت المشايخ لإحياء حفلتنا استدعيت وسئلت فى إحدى الجهات المختصة بالأمن وقالوا : إنك قد كلفت بإحياء حفلة ترفيهية تخفف الأعباء عن الطلاب ولم تكلف بإقامة مآتما وأحزانا !

قلت له : فماذا كانت إجابتك ؟ قال : أخبرتهم بأننى قد ذهبت إلى بعض نجوم الفكاهة والطرب فطلبوا منى مبلغا من المال لم يكن فى الصندوق نصفه ولا ربعه ، فلما دعوت المشايخ لم يطلبوا منى شيئا ، فأقمت الحفل على خير ما يرام وأنفقنا المبلغ الذى كان سيعطى إلى نجوم الفكاهة والطرب للطلبة المحتاجين ، والذين لا يجدون ما ينفقونه فى الكساء والغذاء والكتب ، فأى الوجهتين خير ؟

فكان الجواب : إذن فاذهب إلى المشايخ الذين دعوتهم !! أتدرى أين هم ؟! إنهم هناك فى سجن القلعة وبين غمضة عين وانتباهتها رأيت نفسى وراء الأسوار !! فنصحته بالصبر وتفويض الأمر إلى الله ، وذكرته بقوله جل شأنه : ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ .

ترامت الأنباء بقرب رحيلنا من هذا المكان ، وظن البعض إفراجاً فسرت البهجة فى النفوس ؛ فإن الإفراج للسجين كالإحياء للميت ، لأن السجن مقبرة الأحياء ، ومشمت الأعداء ومفرق الأحباء ، ومحزن الأصدقاء ، لكنى لم أشعر بهذه البهجة ، فقد زارنى أحد الصالحين فى المنام ، وقال لى اصبر واحتسب ولا تجزع ؛ فإنه ما زال هناك قضاء سينفذ ، وصلينا الفجر ، ونودى على أسمائنا ، وقال المنادى : من سمع اسمه فليحضر متاعه ، ويستعد لركوب السيارة ، ولم يكن لدينا متاع سوى ثيابنا التى بليت وقال فيها حافظ إبراهيم :

أبلى الشقاء جديده ... فتقطعت منه الأظافر
فانظر إلى أثوابه ... لم يبق منها ما يظاهر
هو لا يريد فراقها ... خوف القوارس والهواجر
لكنها قد فارقته ... فراق معذور وعاذر
إنى أعد ضلوعه ... من تحتها والليل عاكر
أبصرت هيكل عظمه ... فذكرت سكان المقابر
فكأنه هو ميت ... أحياه عيسى بعد عاذر
قد كاد يهدمه النسيم ... وتكاد تذروه الأعاصر
وتراه من فرط الهزال ... تكاد تثقبه المواطر

كانت هذه أحوالنا من ثياب بالية ، وهزال ، وضعف فى الأجسام وعافية هزمها العذاب ، والضعف ، وجفوة النوم ، وسوء التغذية ، والتهوية ، وسألت نفسى بعدما أمر بالرحيل : لماذا سجنت ؟ ولماذا لم يفرج عنى من هذا المكان ؟ ولماذا الرحيل إلى سجن آخر ؟ وطريقى ما طريقى ؟ أطويل أم قصير ؟ وحتى الآن مازلت أتحدى من يجيب عن هذا السؤال ؟ لماذا سجنت ؟ وما هى التهمة التى وجهت إلى ؟ وأى ذنب اقترفت ؟

إلى سجن طرة

قطعت بنا السيارة الطريق من القلعة إلى سجن طرة ، تحت حراسة مشددة من الجنود الصامتين الذى لا يردون على سؤال منا ، وقد دارت فى نفوسنا أسئلة كثيرة كان منها : إلى أين ؟ وإلى متى ؟ ولماذا ؟ وكان الجواب عنها علم ذلك عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . ونزلنا فى ساحة السجن الرهيب حيث وقفنا ساعات طوالا ننتظر ما سيفعل بنا ، وأمرنا بخلع ثيابنا لنلبس ثياب السجن ، وحمدنا الله فقد بليت الثياب التى كانت علينا من يوم اعتقالنا ولبسنا ثياب السجن ، وقد حز فى نفسى حالة ذلك الشيخ الذى بلغ من السن ما يزيد عن الثمانين عاما ، وهو الشيخ « محمد عوض » كان يعمل ناظرا فى إحدى مدارس

السويس ، وكان رجلا قد وهن العظم منه واشتعل رأسه شيباً ، وقد بلغ من الكبر عتياً ، جىء به كما جىء بالألوف من أمثاله من غير ذنب أو جناية أو جنحة أو مخالفة ، لكنها لغة الذئب الذى قال للحمل لقد عكرت على الماء .

صدقت يا رسول الله يا من رويت عن ربك فى الحديث القدسى الجليل : « **اشتد غضبى على من ظلم من لم يجد له ناصرا غيرى واشتد غضبى على من وجد مظلوماً فقدر أن ينصره فلم ينصره** » . حزنت كثيرا لحال ذلك الشيخ المهيب الذى جىء له بكثير من بدل السجن فكانت كلها فضفاضة لا يستطيع أن يلبسها لأنه ناحل الجسم كأنه يقول بلسان الحال ما قاله شاعر قبله :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل ... لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

لكنهم لم يرحموا شيخا كبيرا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ضعيفة ولا عجوزاً فانيا ، ولا مصابا واهيا ، وأخيراً أمر بترحيلنا وتوزيعنا على العنابر ، لقد سرنا فى الطرقة المؤدية إلى العنابر وسمعنا أصواتا عالية وضجيجا وعجيجا فعلمنا أن بالسجن جموعاً من المعتقلين وسمت أصواتهم على كثرتهم ولما أراد الحارس المكلف بتوزيعنا فتح باب العنبر وأدخلنا واحداً بعد الآخر وهو يقول متهكما ساخرا : هذا أخوكم فى الله !! ولما جاء دور « الشيخ محمد عوض » قدمه قائلا : هذا جدكم فى الله !! إنها سخرية برجل كان يجب أن يحترم لسنه وعلمه وفضله وضعفه « فالراحمون يرحمهم الرحمن » « **ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء** » . « **ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر** » . « **ومن لا يرحم لا يُرحم** » . « **ولا تنزع الرحمة إلا من شقى** » ودخلنا العنبر وما فيه من اسمه شىء ، فهو من أسماء الأضداد كما تسمى الصحراء بالمفازة ، وما هو بعنبر ، بل إنى أقسم بالله غير حانث على أنه لا يليق حتى بالدواب !! الداخل فيه مفقود ، والخارج منه مولود ، نعم مفقود لأن الحضور فيه موت بطىء ، والخروج منه موت بطىء ، فما نجا من المرض إلا القليل ، وليس مرضا عابراً أو خفيفا إنما أمراض أقلها الربو والروماتزم ، يشعر الإنسان عندما يدخل هذه الأماكن بالسآمة والملل والكلال ، فسوء التهوية وسوء التغذية ، والظلام الدامس بالليل والنهار ، والحر الشديد اللافح ، وإغلاق الباب ، أضف إلى ذلك هذه المأساة الكبرى ، لم يكن هناك دورة للمياه تصرف الفضلات خارج المكان ، إنما كان هناك بجانب العنبر صفيحة على جانبيها قطعتان من الخشب وسط بول كثير تنبعث منه رائحة تزكم الأنوف ، وتعمى الأبصار ، وتملأ الرئتين وباء ووبالا ، والويل كل الويل لمن زلت قدمه فسقط فى تلك الصفيحة ، لضعفه أو لكبر سنه ، أو لضعف بصره ، إنه حينئذ يرى من المتاعب والمصاعب مالا تشرحه العبارة ، فهو إما أن يقع فى الغائط حتى منتصف جسمه أو يقف فى حر من

البول إنه فى كلا الحالين ضائق الصدر ، معتل الوجدان ، سقيم النفس ، وكم كنت ألاقى من العناء ما ألاقى عندما أريد قضاء الحاجة ، مما كان يدفعنى إلى أن أقلل من الطعام والشراب ، وكثيرا ما كنت أصوم ، وأنا أعلم أنه لا غذاء فى الإفطار ، وما هى إلا لقيمات بقطعة جبن هى عبارة عن منح متجمد ، كأنها قطعت من جبل فى ظلمات العصور الوسطى .

لقد ضاقت بنا الأرض بما رحبت وضاقت علينا أنفسنا ، وعلمنا أن ليس لها من دون الله كاشفة ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فماذا نصنع ؟ السجن رهيب وقد انقطعت صلتنا تماما بالعالم الخارجى ، فلا تصلنا أخبار عن الدنيا وما فيها ، وأصبحنا كما يقول القائل على لسان أحد السجناء :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلا نحن بالأموات فيها ولا الأحيا
إذا جاءنا السجان يوما لحاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

نمـــاذج مختلفـــة

كان كل عنبر من عنابر سجن طرة يشتمل على نماذج مختلفة الأسنان والثقافة والعمل ، لكن جمع بينها جميعا وحدة العقيدة وسمو الغاية وشرف الهدف ؛ فهذا شيخ قد بلغ من الكبر عتيا ، وذاك شاب فتى ، وذلك فى ميعة الصبا ، وغصن العمر الأخضر ، جاءوا من بلاد شتى من أسوان .. إلى الاسكندرية .. رأيت شيوخاً لما دخلوا السجن ظلوا صائمين حتى جاءهم الفرج من الله لم يفطروا إلا أيام العيد ، ورأيت شبابا فى ريعان أيامهم رأيتهم إذا جن الليل عليهم تجافت جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً . شباب مكتهلون فى شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، قصيرة عن الباطل أرجلهم ، نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها . فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه نعم ! لقد أحيوا الليل بالصلاة والقرآن .

سمعت أحدهم وقد قرأ فى ركعة واحدة جزء « تبارك الذى بيده الملك » وفى الركعة الثانية « جزء عم يتساءلون » .

سمعت بعضهم يدعو الله فيقول : اللهم لا تخرجنى من هذا المكان حتى أتم حفظ القرآن الكريم . واستجاب الله له فلبث فى السجن عامين حفظ فيهما القرآن الكريم حفظا جيدا . وإن كنا نسأل الله العافية إلا أنه رأى فى السجن خلوة فجعل منه غار حراء ، تعبداً ، وتبتلا ومناجاة وصلاة وقرآنا كريما، رأيت فى السجن أساتذة الجامعات كما رأيت المحامين والمهندسين والأطباء ، كما التقيت بالطلبة والفلاحين والعمال لقد جاءوا جميعا تحت لافتة

كتب عليها « الإخوان المسلمون » أو « النشاط الدينى » أو « النشاط المعادى » أو « الثورة المضادة » أياما كان « فإن الظلم مرتعه وخيم » ، « هو ظلمات يوم القيامة » . ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾ .

يا نائم الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد يأتين اسحارا
وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فزالوا والجبال جبال

كان الحر يشتد ، ونسبة الرطوبة ترتفع ، فذلك العنبر الذى لا يصلح اصطبلا لخيول ، ولا حظيرة للمواشى كان يضم بين جدرانه مائة وعشرين . وكانت الجدران ذات ألوان سود ، والأرض حفر وتعاريج ، وقد تلاصقت الأجسام من شدة الزحام ، وانعقد فى سماء العنبر بخار كثيف من التنفس ، فإذا كان كل إنسان يتنفس فى الدقيقة ست عشرة مرة فما بالك بمائة وعشرين يتنفسون فى مكان قد أحكم إغلاقه . وهو فى نفس الوقت يحتوى على جرة من البول الواقف والغائط والروائح الخبيثة !! لقد كنا نتبادل وضع الأنف على ثقب مفتاح الباب ، لعل أحدنا فى ليالى الصيف القائظة يحصل على شىء من الهواء الذى ملأ الله به جنبات الأرض لكن ذلك كان علينا حراما ، وكانت المأساة الكبرى عندما يكلف اثنان منا حمل صفيحة البراز للإلقاء بها فى مكان خارج العنبر . كانت هذه فرصة لمن يأتى عليه الدور لأنه سيستنشق شيئا من الهواء ، لكنهما وهما يحملان تلك الصفيحة كان يسقط منها فى وسط العنبر ما يثير فى النفس الغثيان ، وفى الكبد المرارة ، كانت مأساة ما بعدها مأساة .. لا هواء ولا ماء .. إلا ما يسد الرمق ، ولا نوم حيث لا فراش ولا غطاء إلا القليل الذى لا يمنع ألم الأرض ، ولا شدة البرد ، ولا طعام إلا كطعام الأثيم .. كالضريع والزقوم والغساق والغسلين ، والظلمة قاتمة ، والفراغ قاتل وأصحاب الفكر قد تجمد فكرهم ، والكفاءات وأساتذة العلوم والمعرفة أصبحوا يلتمسون من الحارس أن يفتح باب العنبر ولو لدقائق قليلة ، والمرضى يموتون ، أو يئنون ، أو يستغيثون ، فلا يغاثون ، والحر لافح ، والعرق ملجم ، والثياب فى حاجة إلى تنظيف ، وارتفاع درجة الرطوبة لا تساعد على تجفيف العرق !! لقد بلغت القلوب الحناجر !! وضاقت علينا الأرض بما رحبت !!

دروس العصر

لما ضاقت بنا الأرض ، والظلم ضارب أطنابه ، والقلوب أصبحت أشد قسوة من الحجارة ، رأينا أن نخفف من وطأة الأحداث فاقترحنا أن يتحدث من يستطيع الحديث إلى اخوانه بعد صلاة العصر من كل يوم ، فليحاضرنا الأطباء فى الطب ، والأدباء فى الأدب ، والمهندسون فى الهندسة ، والعلماء فى الإسلام حتى لا يضيع العمر فى هذا الجمود ، وحتى نقضى الوقت فى شيء مما يخفف الأعباء وقد كلفت بإلقاء درس بعد العصر ، فاخترت التفسير واخترت من القرآن ما يناسب المقام فكان حديثى يدور فى سورة يوسف حول ما لقيه الصديق ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام من شدائد ومحن !! وهو الذى دخل السجن مظلوماً لمكيدة من مكايد النساء ، وكيف قام القميص بمواقف مشهودة فى السورة ، فهذا قميص الجدع : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ وقميص الإبراء : ﴿ قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ وقميص الشفاء : ﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾ . ثم تحدثت عن دور الرؤيا فى حياة السجين وحقا لم تكن هناك وسيلة اتصال لنا بالخارج إلا الرؤيا الصادقة وقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « لم يبق بعدى من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له » ، وقد علمنا الصادق المعصوم أدب الرؤيا حيث قال : « إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فليحمد الله عليها وليحدث بها . وإذا رأى غير ذلك مما يكره فليستعذ بالله منها ولا يحدث بها أحداً ، فإنها لا تضره » . وقد جاء رجل إلى بيت الإمام محمد بن سيرين ليقص عليه رؤيا فأخبرته الجارية بأن الإمام نائم فغضب وقال : ولكنى أريده هو فقالت له : قص على رؤياك ، وسأعبرها لك . فقال : رأيت كأنى أصعد السلم فانكسر بى فسقطت من فوقه فمت . فقالت له : إن صدقت رؤياك فستموت ؛ فاهتاج غضباً وصعد السلم ليوقظ الإمام من نومه ، فانكسر به السلم فسقط فمات ، فاستيقظ الإمام على هذا الصوت صوت سقوط السلم ، وارتطام الرجل بالأرض ، فسأل الجارية فقصت عليه رؤياه فقال الإمام متعجبا : سبحان الله الرؤيا على جناح طائر متى قص وقع . وسبحان ربى لقد اشتملت سورة يوسف على أنواع كثيرة من الرؤى بدأها العلى العظيم برؤيا يوسف :

﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ ثم ذكر مولانا تبارك وتعالى بعد ذلك اثنين من الرؤى قصهما فتيان دخلا مع يوسف السجن : ﴿ قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ ثم ذكر مولانا جل شأنه رؤيا الملك التى كانت سببا أراده الله تعالى لإنقاذ أهل مصر من أزمة اقتصادية حادة ، ومجاعة مدمرة ، وكانت سببا فى أن يقول الملك : ائتونى به أستخلصه لنفسى قال تعالى : ﴿ وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ﴾ فتأمل معى كيف قامت الرؤيا فى سورة يوسف فى شتى المقامات ومختلف المناسبات كيف قامت بتلك الدلالات وهاتيك الإشارات وكيف كانت سببا فى أن يقول ملك يوسف : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ وكيف كانت عاقبة الصبر والصابرين قالوا : ﴿ أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ثم انظر كيف جمع الله الشمل ، ورأب الصدع ، ﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ نعم ! لقد كانت الرؤيا فى حياتنا لها مبناها ومغزاها ومعناها ومرماها فقد كنت داخل السجن أقضى الساعات طوال كل يوم أستمع إلى رؤى الإخوة وأقوم بتعبيرها ، والرؤيا لا تقص إلا على حبيب أو لبيب . وما زلت أذكر هذه الظاهرة العربية فى الرؤيا فكثيرا ما كنت أرى أبى رحمه الله تعالى فى المنام جالسا معى لا يفارقنى إلا عندما أقوم استعداداً لصلاة الفجر ، وكأن حالنا قد عز على الأموات فجاءوا يقفون بجانبنا دماً بعد أن قست قلوب الأحياء وقدت من الصخور !!

رمضان فى السجن

مضت شهور الصيف بما فيها من المآسى والمعاناة والشدائد والمحن والفتن وكان على رأس تلك المآسى ما أصبنا به - أعنى الكثير من المسجونين - بالأمراض الجلدية التى سرت فى صفوفنا سريان النار فى الحطب ، والسم الزعاف فى الأحشاء ، وكان ذلك ناتجا عن منع الماء عنا مما كان يدفعنا كثيرا إلى استعمال قطرات الماء فى الشرب . ونستعمل التيمم لأداء الصلاة . وقد لطف الله بى فعافانى من هذه الأمراض الجلدية التى كان المرضى بها يعزلون فى مكان بعيد . وقد علم الله تعالى أن معى فى العنبر إخوة يقومون على خدمتى . فلو أنى عزلت مع الذين عزلوا لشق ذلك على نفسى : ﴿ إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ . كذلك كان من الأحداث الجسام التى وقعت فى صيف السجن ذلك الخبر الذى نعمنا أن

يذيعوه علينا بالمذياع غداة تمّ تنفيذ حكم الإعدام فى الشهداء الثلاثة : « سيد قطب » و« عبد الفتاح إسماعيل » و« محمد يوسف هواش » . ولن أنسى صبيحة هذا اليوم وقدأذاعت النبأ إحدى المذيعات وكأنها تزف نبأ انتصار الجيش على إسرائيل ، وكأننا استعدنا أرض فلسطين المقدسة .. ومما زاد الألم فى النفوس أنها بعد إذاعة النبأ قالت : والآن نستمع إلى أغنية بسبس نو !!

إلى هذا الحد بلغت الشماتة بقوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ونسى هؤلاء أو تناسوا أن هؤلاء الذين تم تنفيذ الإعدام فيهم أحياء عند ربهم يرزقون . قال رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله يوم استشهد أبوه يوم أحد : « يا جابر إن الله تعالى كلمْ أباك كفاحا (أى بدون حجاب) . **وقال له : يا عبد الله تمن عليّ . قال : يارب أتمنى أن أعود إلى الدنيا فأخبر إخوانى بما أنا فيه من النعيم المقيم ثم أقتل فيك . قال له الله : لقد حقّ القول منى أنهم إليها لا يُرجعون . قال : يارب فمن يُخبر إخوانى ؟ قال الله : أنا أخبرهم فأرسل الله جبريل بقوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يُرزقون .** فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم . ألا خوف **عليهم ولا هم يحزنون ﴾** » .

إن هؤلاء النفر الذين نُفذ فيهم حكم الإعدام فجر التاسع والعشرين من أغسطس ١٩٦٦ قوم قالوا كلمة حق عند سلطان جائر ، فهم بين حمزة بن عبد المطلب ، وجعفر بن أبى طالب . لقد أمروا هذا السلطان الجائر بالمعروف ونهوه عن المنكر فقتلهم بعدما عضّهم بنابه ، وصبَّ عليهم سوط عذابه ، لقد جرّعهم كئوس التنكيل ، وأذاقهم من العذاب ما لو صُبَّ على الجبال لخرّت له هداً . إن هؤلاء الذين نُفذ فيهم حكم الإعدام يقول فيهم تبارك اسمه : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء** ﴾ ويقول فى الظلمة الذين أوقعوا بهم تلك العقوبة : ﴿ **ولا تحسبنَّ الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾ .

وبينما الأحداث الجسام تتوالى والهم والغم والنصب والوصب والحزن والأذى تنتظم سلكا واحدا ، وقد بلغت القلوب الحناجر وابتُلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، كان ربك ينزل برد السكينة فى القلوب ، كلما اشتدت الخطوب ، وادلهمت المحن ، فكنت تسمع بالعنابر دويا بالقرآن كدوى النحل . فسبحانك ربى يا من قلت وقولك الحق : ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما** ﴾ . ولولا السكينة فى قلوب المؤمنين ما حُمدت العواقب ومن ثمّ ترى السكينة فى قلوب المؤمنين تُذكر فى مواطن الشدة ، فاقرأ قوله تعالى : ﴿ **إلا تنصروه فقد**

نصره الله . إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين . إذ هما فى الغار . إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه ﴾ . واقرأ قوله جلّ جلاله : ﴿ **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا . وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾ .

نعم لقد وقف الصادق المعصوم فى حومة الوغى وساحات القتال فى جموع المشركين . وقف يزمجر زمجرة الضياغم فى بطون الغاب وينادى بأعلى صوته : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

أنت الذى قاد الجيوش محطّما	عهد الضلال وأدبْ السفهاء
وسموت بالبشر الذين تعلموا	سنن الشريعة فارتقوا سعداء
سعدت بطلعتك السماوات العلا	والأرض صارت جنة خضراء

واقرأ معى قول الله تبارك اسمه : ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا** ﴾ ثم اقرأ قوله تبارك اسمه : ﴿ **إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما** ﴾ .

فسبحان من يقول للشىء كن فيكون . وسبحان من خشعت الأصوات لعظمة ملكوته ، وعنت الوجوه لجلال جبروته . يحيى العظام وهى رميم . وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم . تنزه عن الشريك ذاته وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته . بالبر معروف وبالإحسان موصوف معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية . واحد لا من قلة . وموجود لا من علة . كل شىء قائم به . وكل شىء خاشع له . رضا كل بئوس ، وعز كل ذليل وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف . ومفزع كل ملهوف . من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره . ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه علا فقهر ، وبطن فخبر ، وقدر فقهر . قائم بلا عمد ، وباق بلا أمد . لا ينقصه نائل ولا يشغله سائل .

من لطف الله تعالى ومن سننه فى كونه أنه كلما اشتد الكرب هان ، وأقرب الساعات إلى الفجر أشد الساعات سوادا ظلمة . لقد جاءنى البشير وأنا فى سجن طرة من إدارة السجن الحربى بشرى مولد غلام قد تركته جنينا فى بطن أمه لأربعة أشهر . وقد سبقت هذه البشرى رؤيا كانت كفلق الصبح : عندما رأيت شقيقى الأكبر فى المنام يحمل طفلا صغيرا وقد

كساه الله تعالى جمالا يعف به على باب السجن ويبنى وبينه هذا الباب الحديدى ومن وراء القضبان سألته : من هذا ؟ فقال : إنه ابنك سند . والرؤيا تُفسر بالإشارات التى تحملها الأسماء . فرؤية من يسمى بياسر أو سهيل أو مفتاح .. كل هذه الأسماء تعطى معنى اليسر والسهولة والفتح هكذا علّمنا رسول الله ﷺ فى تأويل الرؤى فقد قال له الصحابة ذات يوم : لقد رأى أحدنا أننا نأكل رطبا فى بيت عقبة فقال لهم : « لقد طاب لكم الأمر والعقبى لكم » . وقد كان ﷺ يتفاءل بالأسماء .. لما جاءه سهيل بن عمرو مندوبا عن المشركين يوم الحديبية قال له الرسول . « ما اسمك ؟ قال له : سهيل بن عمرو . قال له الصادق المعصوم : الأمر مسهل إن شاء الله » .

ولقد تفاءلت باسم سند . قلت : لعله سند من الله ﴿ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ . ولقد تم تأويل هذه الرؤيا عندما مضى علىَّ فى السجن بعد مولد هذا الغلام أربعة عشر شهرا . وجاء يزورنى مع أعمامه . ولن أنسى يوم أن انتُزع من بين ذراعى عندما انتهى وقت الزيارة ، وكان ثلاثين دقيقة . وقلت له مودعا : أستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه .

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

رؤيـــا قبـــل رمضـــان

كان الفلك يتحرك والأرض تدور حول نفسها وحول الشمس ، والليل والنهار يتعاقبان ، إذ رأيت فى المنام كأنَّ جملا قد رُبط بحبلين من عنقه يحول الفكاك فجاء إنسان وبيده مدية ، فقطع الحبلين وأطلق البعير من عقاله . فعلمت أن إطلاق سراحى من السجن أمامه عقبتان ، إذا ما مرا بسلام جاء الفرج من الله . لكنى لم أكن أدرى ما هاتان العقبتان ؟ ما نوعهما ؟ وما حقيقتهما ؟ كان هذا الحادث على أبواب شهر رمضان المعظم ، وجاء رمضان وفُتحت أبواب الجنة . وغلِّقت أبواب النار . وسُلسلت الشياطين لكن شياطين الإنس الذين يتحكمون فينا ، ويجلدون ظهورنا ، ويعدون علينا أنفسنا لم يُسلسلوا . لقد كنا نتوقع أن مجىء رمضان سيبعث فى قلوبهم ألوانا من الرحمة ، ونتوقع من الشفقة فيعاملوننا معاملة الإنسان لأخيه الإنسان ، لكن كان التوقع فى غير موضعه :

ولا ترج السماحة من بخيل ... فما فى النار للظمآن ماء

أو كما قال الآخر :

ومكلف الأشياء ضد طباعها ... متطلب فى الماء جذوة نار

كنا نتوقع من هؤلاء أن يسمحوا لنا بالرسائل إلى أهلنا وأن يفتحوا باب الزيارات لنطمئن على ذوينا ، ونقف على أخبارهم ، ولكن :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادى
ونار لو نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ فى رماد

إن رمضان كما عرفناه فى الإسلام خمسة أحرف : الراء رحمة ، والميم مغفرة ، والضاد ضمان للجنة ، والألف أمان من النار ، والنون نور من الكريم الغفار . لكنّ هؤلاء الذين قاموا على شأننا لو وزعت قسوة قلب واحد منهم على أهل الأرض ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد من بنى آدم :

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ... ويأكل بعضنا بعضا عيانا

صدق الله تعالى إذ وصف هؤلاء بأنهم أضل من الأنعام فقال سبحانه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون ﴾ .

نعم بل هم أضل :

أسمعت بالإنسان يُنفخ بطنه ... حتى يُرى فى هيئة البالون
أرأيت للإنسان يُوضع رأسه ... فى الطوق حتى يُنعل بجنون
أعلمت بالمظلوم يُلهب ظهره ... حتى يقول أنا المسىء خذونى
اسأل ثرى الحربى أو جدرانه ... كم من قتيل تحتها وطعين
من ظنَّ قانونا هناك فإنما ... قانونهم هو « حمزة البسيونى »

كنا نتوقع أن هؤلاء فى رمضان سيخشون الواحد الديَّان الذى يأمر ملكا ينادى فى رمضان : « يا باغى الخير أبشر . يا باغى الشر أقصر » ولكن هؤلاء لا يسمعون ولو سمعوا لا يستجيبون والحكم لله العلىّ الكبير ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب . وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين . ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء . إن الله هو السميع البصير ﴾

الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ ومن يتوكل على الله فهو حسبه . إن الله بالغ أمره ومن اعتمد على الله لا تزل قدمه ولا يضل سعيه ولا يضيع سؤله .

*

إلــــى أيــــن ؟

استعددنا للرحيل بعدما صلينا الفجر ، ولكنهم جمعونا فى فناء السجن ، وكان يوما عاصفا تحمل رياحه الهوج الرمال والغبار وكأن الطبيعة التى خلقها الله تعالى قد احتجت على هذا الظلم المبين ، وظللنا واقفين فى هذا الجو المكفهر ، وفى هذا العراء حتى بعد الظهر ، ثم جيء بسيارة الترحيل ، ذات المقاعد الخشبية الخشنة فحشرنا فيها حشر الأنعام . إنهم قوم لا يعرفون للإنسان كرامة ولا للرجال قدرا ولا لكبار السن وقارا ولا للعلم كرامة . إنه ليحز فى نفسى كثيرا أن أرى هؤلاء الناس الذين داسو بأحذيتهم الغليظة كل قيمة من القيم ، وحطموا المثل فأصبحت المعايير عندهم منكوسة ، وصارت المثل فى خيالهم المريض منحوسة ، وأصبحت معايير الأمور لديهم معكوسة . لقد انتهكوا كل حرمة ، واستحلوا كل عرض . لأنهم مسخوا ، فظنوا الحياة كلها مسخا شائها :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

انطلقت بنا السيارة ونحن يلفنا صمت أعمق من صمت المقابر ، وعلامات الاستفهام تصرخ فى وجوهنا تريد أن تقول لهؤلاء الجلادين : أين تذهبون ؟ وعلامات التعجب تصيح : أى ذنب جنيناه نستحق عليه كل هذا ولمصلحة من هذا ؟ ولكن سرعان ما طاشت تلك العلامات أمام حقيقة تقول : إنه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان وويل للإنسان من الإنسان **﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾** .

أيا كانت الجهة التى سنتجه إليها فإنها فى ملك الله ، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله إن الله واسع عليم . فنحن أينما كنا فالله معنا : **﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض . ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾** . واستقربنا المقام أمام أحد السجون المشهورة فى مصر . إنه « **أبو زعبل** » ونزلنا هناك وكان النهار قصيرا ، وأوشكت الشمس الغاربة أن تطبع قبلة الوداع على السحاب فتكسوه ثوب الحياء الأحمر. كان اليوم يوما عبوسا قمطريرا خيم الحزن فيه على النفوس وزاد من أسانا وأسفنا أنه ما كان ينبغى فى بلد الإسلام والأزهر أن تنزل كل هذه النكبات على رءوس المسلمين . ودخلنا أحد العنابر ولم يكن يتسع لهذا العدد ، فقام بعض المهندسين المعتقلين بتوزيعنا على عدد البلاط بحيث إننا

تلاصقنا لو أراد أحدنا أن يغير جنبه الأيمن إلى الأيسر لا يستطيع إلا إذا جلس أولا . ثم يتحول إلى الجانب الآخر . ولست أبالغ إنما أكرس الحقيقة إذا ما قلت إن بعض الأفراد لم يكن لهم مكان فاضطروا إلى أن يناموا فى دورة المياه ، وكان بها مرحاض فكان كل واحد منهما يضع جسمه داخل المرحاض ورأسه خارجه . وقد يعتصرك الألم اعتصارا عندما تعلم أنه لم يكن بالسجن طعام نتناوله عند الإفطار ، لولا أن تداركنا الحق بلطف بره فجاء لنا بعض المعتقلين ببعض كسر الخبز الجاف وبعض حصيات الملح.. كل هذا يجرى على أرض مصر!!

عجبت لمصر تهضم الليث حقه وتفخر بالسنور ويحك يا مصر
سلام على الدنيا سلام على الورى إذا ارتفع العصفور وانخفض النسر

وصبيحة اليوم الثانى نُودِىَ علينا وعلى المعتقلين جميعا فى هذا السجن ، فوقفنا فى الفناء الفسيح وكل يحمل أمتعته ، وكنا ألوفا ، فذكرنى هذا الموقف بصعيد القيامة بعدما تُنشر من القبور : ماذا يُراد بهذا الجمع ؟ إنه جمع يفر المرء فيه من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . إنه يوم يذكرنى بيوم البعث : يلقى الولد والده فيقول له : يا أبت لقد كنت بك بارا وإليك محسنا وعليك مشفقا . فهل أجد لديك حسنة يعود علىَّ خيرها اليوم ؟ فيقول له : يا بنى ليتنى أستطيع ذلك . إننى أشكو مما منه تشكو . وتلقى الأم ولدها فتقول له : يا بنى لقد كان بطنى لك وعاءً ، وكان حجرى لك غطاءً ، وكان ثديى لك سقاءً . فهل أجد لديك حسنة يعود علىَّ خيرها اليوم ؟ فيقول لها : يا أماه ليتنى أستطيع ذلك . إننى أشكو مما منه تشكين . إنه العجب كل العجب :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنــه ضحك كالبكـــا

إنها المأساة وإن شئت فقل : إنها الملهاة . لماذا جمعنا ؟ قالوا : إنه بلغة السجون : تسكين جديد . وتم التسكين وقد أصابنا الإعياء واللغوب وكان هذا هو المقصود الأهم : أن تهزم العافية فى الأجسام المتعبة ، لا نوم ولا طعام ولا هواء ، إنه تخطيط لموت بطيء . إنهم غلاظ الأكباد ، قساة القلوب ، جفاة الأطباع ، قدّت قلوبهم من حديد، بل إن الحديد يألم عندما تُشبه به قلوبهم ، فإن الحديد قد يلين ، ولكن قلوب هؤلاء لا تلين .

ومرت أيام رمضان ، وأقبل عيد الفطر ، فأثار فى النفوس الحنين إلى الأهل الذين تقطَّعت بهم الأسباب ، وسُمح فى هذا اليوم بفتح الأبواب : أعنى أبواب العنابر الحديدية ، فكان فى ذلك ترويح للنفوس وتخفيف للمعاناة ، فقد تزاورنا وتجاذبنا أطراف الحديث فيما بيننا ، وسُمح لنا أن نحتفل بالعيد ، فقام الأدباء بإلقاء القصائد ، وقام آخرون بأداء بعض التمثيليات الهادفة . ثم بعد ذلك انتهى العيد بما فيه من دمعة وبسمة : دمعة شوق وبسمة رضا

بقضاء الله تعالى وقدره ، فقضاء الله لا يُقابل بغير التسليم وليس له عدة سوى الصبر الجميل .
كان هذا السجن – أعنى سجن أبى زعبل – أقل سوءاً من سجن طرة ، وذلك لأن عنابره نظيفة ودورات مياهه جارية . فقد بُنى خصيصا لنا قبل أن ندخله ، ويوم نزل البنّاءون وسلموه دخلته أول فرقة من المعتقلين الذين لاقوا ما لاقوا من ألوان العذاب التى تقشعر منها الأبدان ، وتشيب من هولها نواصى الولدان . لقد عُلّقوا على سور السجن كما قال فرعون للسحرة الذين آمنوا : ﴿ **فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل** ﴾ . بدأ ذلك العذاب من أغسطس ١٩٦٥ إلى أن انتهت التحقيقات – أستغفر الله – بل التلفيقات ، لقد مارسوا مع هؤلاء الأبرياء ألواناً من العذاب يستحى الشيطان أن يذكرها فاللهم اجعلها فى حسناتنا وكفّر بها سيئاتنا .

كان المرحلون إلى أبى زعبل يعلمون أنهم جىء بهم ليمكثوا مدة طويلة . فقد كان هذا السجن يسمى المخزن ، وكان فناؤه يسمى المحمصة لشدة ما وقع فيه من العذاب . ولا أستطيع أن أنسى ذلك العالم الجليل الكفيف البصر الشيخ « **عبد الحليم سعفان** » . وكانت تهمته أنه تبرع لأسرة اعتقل عائلها ، فكانت هذه جريمة لا تُغتفر . التقيت به فى سجن أبى زعبل ، فسمعته يردد هذه الأبيات :

إذا شاب الغراب أتيت أهلى … وصار القارُ كاللبن الحليب
وصار البَرُّ مرتع كل حوت … وصار البحر مرتع كل ذيب

ثم يصمت قليلا ويقول :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه … يكون وراءه فرج قريب

أعددنا أنفسنا لمكث طويل . وكانت يد الله تعمل فى الخفاء ، وعلى المؤمن أن يسلم الأمر لله وحده : ﴿ **قل إن الأمر كله لله** ﴾ . ﴿ **ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله . فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ .

شــىء من التيســير

تباركت ربنا وتعاليت لقد قلت وقولك الحق : ﴿ **سيجعل الله بعد عسر يسراً** ﴾ وجاء فى محكم كتابك : ﴿ **فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً** ﴾ . وجاء على لسان رسولك : « **لن يغلب عسر يسرين** » .

تقدمنا إلى قائد السجن بمطالب :

– طالبنا بأن يُسمح لنا بفسحة فى إحدى ساعات النهار فسُمح لنا بنصف ساعة . كنا نلتقى فيها فنتحدث والحديث ذو شجون ، ونمشى طوال هذا الوقت حتى يكون فى ذلك رياضة للأجسام التى كادت تتصلب من طول القعود .

– وطالبنا بأن يُسمح لنا بمراسلة الأهل ليرسلوا إلينا بعض النقود لتقوم إدارة السجن بشراء بعض المعلبات والفاكهة والخضر عن طريق ما يسمى بلغة السجون « الكانتين » وسُمح لنا بذلك .

– وطالبنا بأن يُسمح لنا بقراءة الصحف اليومية فأُذن لنا .

واستطعنا بذلك أن نكيف حياتنا حتى لا تسأم النفوس من طول المكث وكانت الصحف مرآة تعكس ما يجرى فى هذا البلد . وكان لها أثر عميق فى النفوس لما نعانيه من ظلم وما يرفل فيه غيرنا فى النعيم : قوم يُعاقبون لأنهم مدوا يد المعونة لأسرة فقدت عائلها حيث رُمى فى غياهب السجون وراء القضبان ، وقوم يقضون الليالى الحمراء حول الموائد خضراء يُشار إليهم بالبنان ، وتسير بمفاخرهم الركبان . ما تعاقب الملوان واختلف الجديدان قوم تتمرغ النعمة فى أعتابهم ويدوسونها بأقدامهم . وآخرون يتجشمون الأوصاب ويتجرعون كئوس العذاب . قوم تهب عليهم النسمات معطرة بالأريج ، وآخرون يلفحهم قيظ الهواجر من فيح جهنم . قوم إذا جنّ عليهم الليل ركبوا فرس اللهو يفرحون ويمرحون . وقوم لا يُسمح لهم إلا أن يفترشوا الغبراء ويلتحفوا السماء .

إن الله تعالى صوّر هذا المجتمع أدق صورة فى أسمى درجات الدقة ، قال عزّ من قائل : ﴿ **فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾ .

دعوة إلى وضع المساجــد تحت الرقابــة

تصور معى كاتبا يحمل قلما مسموما يكتب فيقول : « راقبوا أولادكم فى المساجد » . أيها الكاتب كيف طوّعت لك نفسك وكيف استجاب قلمك أن تكتب هذه العبارة ؟ وكيف تدعو الجبابرة إلى أن يضعوا المساجد تحت الرقابة البوليسية ، والمساجد منازل السكينة والرحمة والملائكة . ألم تسمع قول الله تبارك اسمه : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ . كيف طوعت لك نفسك الأمارة أن تكتب مطالبا بوضع المساجد تحت الرقابة

إلا أن يكون ذلك سعيا منك فى خرابها لأن من دخل المساجد وهو يعلم أنه مُراقب وبعد الرقابة سيُكتب فيه تقرير يؤدى به إلى عالم التيه فى ظلمات السجون التى تذكر بعصر التفتيش فى ظلمات العصور الوسطى . أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها . أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين . لهم فى الدنيا خزى . ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** ﴾ . كيف تدعو إلى وضع المساجد تحت الرقابة ، وقد قال رب العالمين : ﴿ **وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا** ﴾ . وقال فى حقها : ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ .

وكيف يُوضع أهل هذه البيوت التى أذن الله أن تُرفع . كيف يوضعون تحت الرقابة . وقد قال الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه : « **إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان** » . إن المساجد هى بيوت الله . وقد قال الله فى حديثه القدسى الجليل : « **بيوتى فى الأرض المساجد وعمارها زوارها . فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى . وحق على المزور أن يكرم زائره** » .. فكيف يكرم الله زواره فى تلك البيوت وتريد أن تضعهم تحت الرقابة ؟ إن الرقيب الأول هو الله وحده لا شريك له . كنت أود أن تصحح تلك الكلمة التى كبُرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا - كنت أود أن تصحح هذه الكلمة الخبيثة فتكتب : راقبوا أولادكم فى المسارح . إن المساجد مهابط الرحمة : « **ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده** » .

الظلـــم إذا دام دمَّـــر

أيام بلا شمس وليال بلا قمر . تلك التى صار المعروف فيها منكرا ، والمنكر فيها معروفا . والتى صار شعارها :

صومــوا ولا تتكلمــوا   إن الكــلام محــرم
نامــوا ولا تستيقظــوا   ما فاز إلا النــوَّم
إن قيل إن نهاركم ليــل   فقولــوا : مظلــم
أو قيل هذا شهدكــم   مر فقولــوا علقــم

نعم لقد أصبح الشعار للمجتمع : ﴿ **نافق أو وافق وإلا ففارق** ﴾ . وضاعت النصيحة كما ضاع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتحولت الأمة إلى أشباح تتحرك ومن قيل عنه إنه صاحب مبدأ أو يدعو إلى مبدأ ، فليس مكانه بين الناس ، إنما يُعزل بعيدا عنهم هناك وراء القضبان ﴿ **أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾ وكم يقف الإنسان عاجبا مشدوها من شدة العجب عندما يقرأ قول الله تعالى على لسان نبيه صالح وهو يقول لقومه : ﴿ **يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ . إنها ذروة المأساة وقمة الملهاة ألا يحب الناس الناصحين حتى يقول الناصح الأمين :

نصحت فلم أفلح وغشوا فأفلحوا   فأوقعنى نصحى بدار هــوان

أصبحت سماء مصر ملبدة بغيوم النفاق والظلم ، فهذا صاحب قلم يسيل مداده سما ناقعا يريد أن ينافق صلاح نصر فيكتب عنه قائلا : « **إنه الرجل الذى تكلؤنا عينه بالليل ونحن نيام** » ثم يستطرد قائلا : « **إنه الرجل الذى بلغ من دقة رقابته أنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** » . هل هذه العبارة فى حاجة إلى تعليق ؟ ألم يخطر على باله آية فى كتاب الله تقول : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . له ما فى السماوات وما فى الأرض. من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء . وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلىّ العظيم** ﴾ .. إن الله تعالى هو القيوم وحده ، القائم على شئون عباده . ألم يقرأ قوله جلّ شأنه : ﴿ **ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾ .. تلك خاصية من خصائص الألوهية والله لا يشرك فى حكمه أحد ﴿ **والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء** ﴾ ألم يقرأ قوله جلّ شأنه : ﴿ **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** ﴾ . ثم ألم يقرأ قول البارى تبارك اسمه : ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ . ولو كان هذا الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور كما قال صاحب هذا القلم - لو كان كذلك فلِمَ لم يخبرنا بما سوف تقوم به إسرائيل فى هزيمة يونيو . سبحانك هذا بهتان عظيم : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو . ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين** ﴾

.. لقد بلغ النفاق مداه عندما وقف أحد الشعراء ينافق عبد الناصر فيقول :

بشراى إن صلاح الدين قد عاد   وأصبحت هذه الأيام أعيادا
أجمال مالك من بين الأنام فتى   فى الشرق والغرب ممن ينطق الضادَ
لو كان يعبد من بين الأنام فتى   كنا لشخصك دون الناس عبادا

وهذا يذكرني بذلك المعتوه الذى دخل على الحاكم ذات يوم فى سالف العصر فقال له :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

إن النفاق شجرة خبيثة مرة المذاق اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، فحق علينا قول الله تبارك اسمه : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا** ﴾ أمرناهم بالمعروف والعدل والإحسان ففسقوا واستكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا . وفرق كبير بين أن يقول الله تعالى : ﴿ **ففسقوا** ﴾ وبين أن يقول : أن يفسقوا . فلو قال : أمرنا مترفيها أن يفسقوا لكان الأمر هنا بالفسق وهو الخروج عن طاعة الله تعالى وحاشا لله أن يأمر بذلك : ﴿ **قل إن الله لا يأمر بالفحشاء** ﴾ . أما قوله تعالى : ﴿ **أمرنا مترفيها ففسقوا** ﴾ فإن الفاء هنا عاطفة على أمرنا . وفى الآية إيجاز بالحذف . وقد قال أهل اللغة : « وحذف مايُعلم جائز . فإذا كنت قد قرأت قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى** ﴾ علمت ما هو المحذوف المعلوم أى أمرناهم بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى . ثم تأمل كيف جاء العطف بالفاء فى ﴿ **ففسقوا** ﴾ وهى تفيد الترتيب والتعقيب . ولم يأت بثم التى تفيد الترتيب والتراخى ، مما يعطيك لمحة قرآنية عميقة بأن هؤلاء القوم المفسدين قد بلغ من جرأتهم أنهم فسقوا عقب الأمر مباشرة استهزاءً واستكبارا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق .

وفى قراءة فى تلك الآية : ﴿ **أمَّرنا مترفيها** ﴾ بتشديد الميم فى أمَّرنا أى جعلنا أمراءها مترفيها ومفسديها . وقد جاء فى حيثيات الحكم على أصحاب الشمال قوله تعالى : ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك مترفين** ﴾ . وجاء فى دعاء الصالحين : اللهم ولِّ أمورنا خيارنا ولا تول أمورنا شرارنا .. كان الإمام أبو الفرج بن الجوزى يقول : إنى لأظل أتقلب فى فراشى طول الليل أبحث عن كلمة أرضى بها الحاكم ولا أغضب بها الله فلا أجد .

وقد أخبر النبى ﷺ عن خطر النفاق فقال : « **أخوف ما أخاف على أمتى منافق عليم اللسان يجادل بالقرآن** » .. كما بين لنا سمات المجتمع السليم من المجتمع السقيم فقال : « **إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض أولى بكم من بطنها . وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم . وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض أولى بكم من ظهرها** » .

جـــرأة خطيـــرة

يارب يارب

ما أحلمك ! ما أكرمك ! ما أصبرك على عبادك ! يقولون عنك ما لا يليق بذاتك من الصاحبة والولد ، ويجحدون فضلك ، وينكرون جميلك ، وأنت ترزقهم ، وتكلؤهم بالليل والنهار ، سبحانك من قائل : ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا** ﴾ . وتأتى الآية الأخرى فتبين ما هو الكسب الذى لو آخذ الله به عباده لدمر ما فى الأرض وما عليها فيقول سبحانه : ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ وصدق رسولك إذ يقول : « **إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته** » ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ .

نعم ! إنها لجرأة خطيرة وجرم فظيع واعتراف شنيع لأحد كبار الجلادين فى السجن الحربى (باستيل مصر) الذى أخذ يلهب بسوطه أحد الضحايا وقد علقه كما يعلق الجزار بهيمته بحيث تكون الرأس إلى أسفل ، وانهال عليه ضربا فاستغاث المظلوم بالله فقال له الجلاد : لو نزل ربك من السماء فقد أعددت له زنزانة لأحبسه حبسا انفراديا، هكذا إذا نسى الإنسان أصله وجحد ربه حل عليه غضب الله ومن يفعل ذلك فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق . إنه يذكرنا بكلمة قالها فرعون مصر وذكر العلى العظيم فى قوله : ﴿ **وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ . فاعجب معى يا أخى لهذا الطاغية الذى غره سلطانه فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين فلما آسفونا انتقمنا منهم وتأمل معى هذا الذى ظن أن الله سبحانه وتعالى قد تدركه الأبصار ، أو تحويه الأقطار ، أو يؤثر فيه الليل والنهار ، ونسى أو تناسى أنه هو الذى يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير !!

تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، واحد بلا عدد وقائم بلا عمد ، ودائم بلا أمد سبحانه علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبر ، ليس بجسم ولا صورة ، ولا معدود ولا محدود ، ولا متبعض ولا متجزىء ولا متناه ولا متكيف ، ولا متلون .

لا يسأل عنه بما لأنه لا يعرف حقيقة الله إلا الله .

قيل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه يا أبا بكر بم عرفت ربك ؟ فقال رضوان الله عليه : عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى . قالوا : فكيف عرفته ؟ قال : العجز عن الإدراك إدراك والبحث فى ذات الله إشراك .

لا يسأل عن الله بمتى كان ؟ لأنه خالق الزمان **﴿ وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾** .

كان الله ولا شىء معه ، استوى على العرش ، والاستواء معلوم والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، فإنه تعالى كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان ، علم ما كان وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون . قيل لعلى كرم الله وجهه : متى كان الله ؟ فقال : ومتى لم يكن .

ولا يسأل عنه سبحانه وتعالى بأين هو سؤال إحاطة ؟ لأنه تعالى خالق المكان .

قالوا : وما خطر ببالك فالله خلاف ذلك . والقول الفصل ما وصف الله به ذاته فقال تعالى : **﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾** .

مر الإمام سفيان الثورى بقوم يحتفلون بأحد العلماء فسأل : لماذا الاحتفال ؟ قالوا : لأنه أقام ألف دليل على وجود الله . فقال سفيان والعجب قد أخذ عليه كلَّ مأخذ : ومتى غاب سبحانه حتى يُسأل عن وجوده ، آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحده الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله .

الديَّـان لا يمـوت

كيف طوَّعت لهذا الجلاد نفسه أن يتجرأ على الذات الأعلى ؟ فيصيح فى فناء السجن بصوت منزعج كريه ويقول : إن الله لو نزل من السماء فقد أعددت له هذه الزنزانة . ولكن يزول العجب وتتهاوى علامات الاستفهام عندما نقرأ قوله عزَّ وجلَّ : **﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون ﴾** .

ألم تر كيف فعل ربك بهذا الجلاد الطاغية ؟ لقد جاء اليوم الذى دار الفلك فيه دورته ، وغضب عليه سيده **« عبد الناصر »** ، فأدخله السجن ليذوق من نفس الكأس المرة التى جرَّعها لألوف من الضحايا الأبرياء . وهكذا اقتضت سنة الله تعالى أن من أعان ظالماً

سلطه الله عليه . والظالم وجنوده وأعوانه داخل دائرة المسئولية قال تعالى : **﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾** وقال عز من قائل : **﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾** .

فماذا حدث ؟ أفرج عن هذا الجلاد وسافر يوم « عيد الفطر » ليزور أهله ؛ وبينما هو فى الطريق الزراعى لا يدرى ماذا خبَّأت له الأقدار . لقد ظنَّ أن الكون يسير وفق هواه ونسى أن فى السماء محكمة مكتوب على بابها : **﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا . وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾** . خرج عليه فى الطريق الزراعى سيارة ذات مقطورة ، فعصفت بسيارته ، فوقع فريسة بين أنيابها ودخلت فى عنقه أجسام صلبة ، فأخذ يخور كالثور والدماء تنزف منه ، فلم يكن هناك بد من فصل رأسه عن جسده . وهكذا كان القصاص العادل من رب الأرض والسماء **﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله . إن الله عزيز ذو انتقام ﴾** .

يا نائم الليل مسرورا بأوله ... إن الحوادث قد يأتين أسحارا

وهكذا الدنيا إذا حلت أمام الظالمين أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت . وكم من ملك رُفعت له علامات ، فلما علا ... مات .

دعـــوة مستجابـــة

اتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب .

وإذا رُميت من الزمان بشدة ... وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربـــك إنـــه ... أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقرب
واحذر من المظلوم سهما صائبا ... واعلم بأن دعاءه لا يحجب

كان أحد كبار الجلادين فى السجن الحربى يمر بنزلاء الزنازين فوجد شيخا كبيرا فى زنزانة قد امتلأ نصفها بالماء والبرد قارس ، فقال له شامتا متهكما : كيف حالك ؟ فأجاب ذلك الشيخ : بالحمد لله على نعمائه والشكر على آلائه . قالها بلسان اليقين ومنطق الحق المبين . نعم إنه يحمد الله الذى عافاه مما ابتلى به كثيرا من خلقه ، فقد وهبه قلبا ذاكراً ، ولسانا شاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا .

كان الإمام أحمد بن حنبل فى محنته ، يضربه الجلادون بالسياط الحامية ، فكان إذا اشتد به الجلادون ضربا ، ارتسمت ابتسامة الرضا على وجهه ، وتلاميذه من حوله يبكون ، بل وينتحبون . فلما رُفع العذاب عنه سألوه : يا إمامنا لماذا كنت تبتسم ونحن نبكى ؟ فقال

بمنطق الإيمان : إنكم تبكون لأنكم ترون هذا الجلاد ، أما أنا فأبتسم لأننى أرى يد رب العباد .

لقد رأى الإمام أحمد رضى الله عنه رسول الله ﷺ فى المنام فقال له : « **يا أحمد ستُبتلى فاصبر يرفع الله ذكرك إلى يوم القيامة** » .

إن كبير الجلادين فى السجن الحربى سأل الشيخ الوقور الذى يرتعد من شدة البرد فى زنزانة ملىء نصفها بالماء ، سأل شامتا متهكما ساخرا : ادع لنا يا شيخ فنظر إليه الشيخ مشفقا عليه وقال له : أتهزأ بى ؟ قال : ادع الله لنا يا شيخ . فتوجه الشيخ الوقور إلى ربه الكريم ، ودعا الله بدعوة غريبة من نوعها ، قال : **أسأل الله أن يأتى عليك اليوم الذى تتمنى فيه الموت فلا تجده** . ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب . فأى ظلم أشد من ظلم هؤلاء ؟ بل إن الحديث الشريف ينطق بصراحة ووضوح فيقول : « **اتق دعوة المظلوم ولو كافرا ، فعليه كفره** » . ويقول : « **دعوة المظلوم تُرفع فوق الغمام وتُفتح لها أبواب السماء ويستقبلها الرب تبارك وتعالى ، ويقول لصاحبها : وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين** » .

وجاء اليوم الذى نفذ فيه الحكم من محكمة العدل الإلهية الكبرى فى هذا الأفاك الأثيم ، العتل الزنيم ، الفظ الغليظ ، فأصيب بسرطان فى كليته . ولما كان من الشخصيات المرموقة ، طاف بدول أوربا يلتمس العلاج . فكان كما قال الله تعالى : ﴿ **كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . ووجد الله عنده فوفاه حسابه . والله سريع الحساب** ﴾ .

وعاد من أوربا كما ذهب إليها ، وكان يصرخ فيمن حوله مستغيثا بهم راجيا إياهم أن يضربوه بالنار حتى يستريح من النار فى داخله . وكانوا إذا وضعوه على سريره صاح فيهم : أنزلونى لأنام على الأرض ، فيُقال له : إن البرد شديد . فيقول : أنيمونى على الأرض مهما كان البرد قارسا فأنا لا أستريح فى النوم على السرير . وظلَّ هكذا يتجشم الأوصاب ويتجرع كئوس العذاب حتى قضى عليه الموت . صدقت يا سيدى يا رسول الله : « **البر لا يبلى والذنب لا يُنسى والديَّان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تُدان** » .. وهكذا استجاب الله دعوة المظلوم ، فجاء على ذلك الظالم اليوم الذى تمنى فيه الموت فلم يجده . وبالكيل الذى تكيل به للناس سيُكال عليك لا راد لما قضى الله ، ولا معقب لحكمه ولا شفاعة فى الموت ولا حيلة فى الرزق . قال ﷺ : « **من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج عن الإسلام** » . فما للقلوب أصبحت لا تخشع ، وما للآذان أصبحت لا تسمع ، وما للأعين أصبحت لا تدمع وما للأجسام أصبحت لا تسجد ولا تركع . فقد سلسل الدموع حزنا ، على هذا الضمير الضائع . وقد مزق الضلوع كمداً على هذا الفساد الشائع . والله لو تراحم

الناس ما كان بينهم جائع ولا عريان ولا مغبون ولا مهضوم ولأقفرت الجفون من المدامع ، ولاطمأنت الجنوب فى المضاجع ، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع ، كما يمحو نور الصبح مداد الظلام . فيا أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء ، وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء . وستمع معى إلى ما قاله مبعوث العناية الإلهية صلوات ربى وسلامه عليه : « **إنما أنا رحمة مهداة** » . ثم « **الراحمون يرحمهم الرحمن** » . « **ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء** » . « **لا تنزع الرحمة إلا من شقى** » . « **من لا يَرحم لا يُرحم** » .

وتبارك اسم الله وتعالى جده إذ يقول لحبيبه ومصطفاه : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ .

وكان الكلب خيرا منه

مر رسول الله ﷺ بجثة قتيل فسأل : **من قتل هذا ؟ قالوا : يا رسول الله إنه لص سطا على غنم القوم ، فخرج عليه كلب الغنم فقتله ، فقال الصادق المعصوم : « قتل نفسه وأضاع ديته ، وكان الكلب خيرا منه »** .

صدقت يا سيدى يا رسول الله ، ففى الكلب وفاء لصاحبه ، يصون بهذا الوفاء الأمانة ويحافظ على من استرعاه ، وقد يفقد الكثير من الناس تلك المروءة :

مررت على المروءة وهى تبكى فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكى وأهلى جميعا دون خلق الله ماتوا

جىء ذات يوم وفى صيف ١٩٦٥ ؛ جىء بأحد العلماء المتخصصين فى دراسة الكتاب والسنة ، وقد بلغ من الكبر عتيا ، ووضع فى قفص حديدى لما أصاب عظامه من الكسور ، فقال قائد الجلادين لزبانيته : ادخلوه زنزانة واحبسوه حبساً انفرادياً وجوعوا له كلباً ومما هو جدير بالذكر أن الكلاب فى السجن الحربى كانت تأكل ما لذ وطاب من الطعام بينما الآدميون لا يجدون فتات الموائد وكانت الكلاب مدربة على نهش لحوم البشر فانظر يرعاك الله .. وتأمل ما هى العزة والكرامة التى كان يتغنى بها زعيم البلاد ؟ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ ونفذ الزبانية الأمر وجىء بالشيخ وقد بلغ الوهن منه ما بلغ واشتعل الرأس شيباً وصار فيه دبيب الشيب فهزم العافية فى جسده الناعم ودخل الزنزانة وهو لا يدرى ماذا يراد به ولكن من كان الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ لقد اعتقلوا أبناءه من قبله فأرسل التماساً إلى أحد كبار المسئولين يقول فيه أرجو أن تُبقى لى أحد أبنائى ليقوم على خدمتى فى بيتى فكان رد ذلك المسئول رداً عملياً أرسل إليه من زبانيته من قام بإلقاء القبض عليه وقال له : إن سيادة المشير يقول لك بل

أنت الذى تذهب إليهم فى السجن ليقوموا على خدمتك هناك فاعجب معى إلى أى مدى بلغ إهدار الآدمية وتحطيم الإنسانية فى بنى البشر ؟! وإلى أى حد قست قلوب هؤلاء الجبابرة وأولئك الأباطرة الذين نسوا الله وقالوا من أشد منا قوة ؟! نعم ياربنا قتل الإنسان ما أكفره !!.

الشيخ الجليـل فى الزنزانــة

دخل الشيخ زنزانته وهو يرتل قوله تعالى : ﴿ **وقل رب أدخلنى مُدخل صدق وأخرجنى مُخرجَ صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيراً** ﴾ ثم يقرأ : ﴿ **رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين** ﴾ . واستقبل القبلة وصلى لله ركعات والصلاة كهف المؤمن كما أخبر بذلك الصادق المعصوم وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وكان يقول : « **أرحنا بها يا بلال** » فمن أراد أن يكلم الله فيصلى ومن أحب أن يكلمه الله فليقرأ القرآن وكانت عائشة تقول : كان رسول الله ﷺ **يحدثنا ونحدثه ويكلمنا ونكلمه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه** .

وفوجىء الشيخ ببعض الجلادين يدخلون معه كلبا مفزعا مخيفاً ﴿ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ وأغلقوا عليهما باب الزنزانة واستمر الشيخ فى صلواته فالصلاة روح يسرى فى قلب المؤمن يصله بالعالم العلوى والملأ الملائكى وقد قال حاتم الأصم مجيبا عن سؤال جاء فيه : كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ قال رحمه الله : إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامى ، والموت ورائى والجنة عن يمينى ، والنار عن شمالى ، والصراط تحت قدمى ، موقناً بأن الله مطلع على فإذا سلمت لا أدرى أقبلها الله أم ردها على ؟! وبعد ساعات من وضع الكلب بجانب الشيخ نادى قائد السجن على زبانيته وقال لهم بلسان الصلف والتيه والكبرياء : اذهبوا وانظروا ماذا فعل الكلب بابن الـ ... وذهب الزبانية على أمل أن الكلب قد أكل من الشيخ لحمه وعظمه وبناء عليه فسوف تصرف لهم مكافأة سنية وهكذا كانت أحوال الناس وعلاقاتهم المنفعة .. المصلحة .. المادة .. التكسب الرخيص .. الأنانية .. حب الذات .. النفاق .. الكذب .. الخيانة .. أنا والطوفان من بعدى : « أنج سعد فقد هلك سعيد » ونظروا من العين السحرية من باب الزنزانة ليخرجوا الكلب ويغسلوا الدم ولكن كانت المفاجأة تنخلع لها القلوب وتنعقد لها الألسنة دهشة وعجبا لقد وجدوا الشيخ ساجداً لله تعالى مستغرقاً فى نور الجلال والجمال والكمال عليه كوكبة تحفها السكينة والوقار ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها**

يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾ . نعم :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمــــان

وجدوا الشيخ ساجداً والكلب يحرسه كأنهما كانا على معرفة قديمة وصداقة أصيلة !! إنه الإيمان إذا تمكنت بشاشته من شغاف القلوب تكاد تجعل المستحيل ممكنا والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا ، إنه اليقين فى الله والاعتصام بحبله المتين إنه صدق النية والإخلاص .. إنها لغة « لاسلكى القلوب » لا يفهمها إلا من صفا قلبه وقوى يقينه إن هذا الإيمان يحرك الجبال ويسيِّر العوالم .

إن لله عبــاداً فطنــــا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلمـا علمـوا أنها ليست لحى سكنـــا
جعلوها لجـــة واتخــذوا صالح الأعمال فيها سفنـا

لقد رجع الزبانية إلى سيدهم وقد انعقدت على رءوسهم هالات ضخمة من الدهشة فما كان منه إلا أن قابل ذلك بالسباب والشتائم وقال لهم : ارجعوا فحرضوا الكلب لينهش لحم هذا الـ .... وفعلوا ذلك ولكن دون جدوى فالكلب وفى لأولياء الله الصالحين والود قيمة عليا له فى القلوب المؤمنة مكانة عظمى بينما بنو الإنسان حرموا هذا القدر العظيم من هذا الخلق العظيم ﴿ **إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ .

يارب ما أعظمك ! ما أكرمك ! ما أرحمك ! ما أجملك ؟ كل شىء قائم بك ، وكل شىء خاشع لك ، أنت قوة كل ضعيف ، وعز كل ذليل وغنى كل فقير ، ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمعت نطقه ، ومن سكت علمت سره ، ومن عاش فعليك رزقه ، ومن مات فإليك منقلبه يا عظيماً يرجى لكل عظيم .

يا من يرى ما فى الضمير ويسمع أنت الرقيب لكل ما يتوقع

ألست أنت القائل فى الحديث القدسى الجليل :

« **عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد** » .

يارب :

حاسبت نفسى لم أجد لى صالحاً — إلا رجائى رحمة الرحمن
وعددت أفعالى علىّ فلم أجد — فى الأمر إلا خفة الميزان
وظلمت نفسى فى فعالى كلها — ويحى إذاً من وقفة الديان
يا أيها الإخوان إنى راحل — مهما يطل عمرى فإنى فانى
يارب إن لم ترضى إلا ذا تقى — من للمسىء المذنب الحيران ؟!

لقد شكا الزبانية إلى سيدهم صمود الكلب وثبوته وصراره على موقفه من الشيخ فقال لهم وقد ظل وجهه مسوداً وهو كظيم إذاً فأخرجوا الكلب حتى لا يصاب من رائحة الزنزانة بشىء يؤذيه ونسى هذا أو تناسى أن للقلوب دولة لا يملك مفاتحها إلا الله لقد ظل الشيخ فى هذا السجن عاماً خرج بعده مسافراً إلى مملكة الحجاز حيث عاش بها متنقلا بين الحرمين الشريفين وأراد ربك أن يختاره إلى جواره هناك وأن يدفن بأرض الطهر ومنازل الوحى **﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾** .

إلهى نجنا من كل كرب بهدى المصطفى خير الجميع

وهب لى فى مدينته قراراً ورزقاً ثم دفنا بالبقيع

مشهـــد مهيـــب

يذكرنى ما حدث لذلك الشيخ الجليل مع زبانية السجن الحربى بهذا المشهد المهيب الذى أجراه الله على يدى هذا العالم الجليل القدر « أبى الحسن أحمد بن بنان » وقد دخل على أحمد بن طولون حاكم مصر فأمره ونهاه فغضب الحاكم على العالم متجاهلا قول الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه : « **اثنان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسد فسدت الأمة العلماء والأمراء** » .

غضب الحاكم ولم يبق فى قوس صبره منزع وبلغ من غضبه بعدما غلى مرجل غيظه وتفجر أنه قال لجنده خذوا هذا وادفعوا به إلى أسد جائع وأغلقوا عليهما قفصاً حتى لا يبقى من عظامه ولحمه ولا يذر وانفرد الأسد بالعالم الجليل وفى صبيحة اليوم التالى نظر الحراس فوجدوا العالم يجلس فى وقار وجلال يذكر الله ويتلو آياته البركات ووجدوا الأسد الرئبال مطأطأ الرأس فى سكينة وتواضع يستمع إلى آى الذكر الحكيم وكيف لا وهو كلام الله جل جلاله **﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم**

ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ ثم كيف لا ومنزل الكتاب سبحانه يقول . **﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾** .

لقد جىء بالعالم إلى الحاكم وقال له : ما هذا الذى سمعت عنك ؟ قال : العالم وماذا سمعت يا ابن طولون ؟ قال : كيف امتنعت عن الأسد ؟ قال : إن الذى منعنى منه هو الذى يقول : **﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾** ويقول : **﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾** قال ابن طولون : فأى شىء كنت تخشى وأنت مع الأسد ؟ قال : كنت أخشى أن يصيبنى لعاب الأسد فينجس ثوبى قال ابن طولون : فأى شىء تمثلت فى هذا المقام ؟ قال : تمثلت قوله تعالى : **﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾** فلم يسع ابن طولون إلا أن يودع العالم ويسأله دعوة صالحة يهديه الله بها سواء السبيل .

لو يعلـــم الزبانيـــة

قال رجل للإمام أحمد بن حنبل : يا إمام ، إنى أخيط للظلمة ثيابهم فهل أعتبر منهم ؟ قال : بل أنت من أعوانهم فانظر إلى أى حد عمت الشمولية ، واحتدم الأمر ؟ إن الله تبارك وتعالى لم يلق التبعة على فرعون وهامان وحدهما إنما شمل الحكم جنودهما قال تعالى : **﴿ ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾** وقال جل شأنه : **﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾** ولو يعلم الزبانية ماذا كان مصير فرعون وجنوده ؟ ما جلدوا ظهراً ، ولا انتهكوا حرمة ، ولا استباحوا عرضاً ، قال تعالى عن فرعون : **﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾** لو يعلم الزبانية موقف السادة منهم يوم القيامة **﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾** لو يعلم الزبانية هذا المصير ما أطاعوا سادتهم أو كبراءهم حتى يكونوا فى منأى عن العقاب فى يوم **﴿ يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤيه ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه ﴾** فيقال له كلا **﴿ إنها لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى ﴾** لو يعلم الزبانية كيف سيتبرأ منهم أسيادهم ما أطاعوهم فى الدنيا **﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما**

للحرب.. كنا أيام النكسة نرقص ونغنى فى الطرقات ، وكانت إسرائيل – أيام انتصارها – ترتدى ثياب الحداد وتصلى على قتلاها. فانظر معى ثم اعجب لمهزوم يرقص ويفرح ويطرب ، ولمنتصر يصلى على قتلاه !!

خنانيك يارب . اللهم ثبت علينا عقولنا واحفظ علينا ديننا .. هكذا كان خطاب الزعيم يزأر ويزمجر ، ويرسل صيحاته العالية التى تنبعث من رأس باض الشيطان وفرّخ فيه ، من رأس فارغ يشخشخ فى الهواء كرءوس التماثيل « أسدٌ علىّ وفى الحروب نعامة » .

جريمـــة التكافـــل

كان فى السجن ما يسمى بالتكافل وهو تعاون الإخوة فيما بينهم بمعنى أن من وجد يعطى من لم يجد ، وأن القوى يعين الضعيف ، ويغيث الملهوف ، وأن القادر يأخذ بيد العاجز ، وهكذا لقد كنا نتعامل مع ما يسمى (بالكانتين) الذى يقوم بشراء الفاكهة والمعلبات ، ثم يقوم القادرون بالتعامل معه ، والشراء منه ، وكان فى ذلك منفعة متبادلة ، فهى تدر الربح الوفير للقائمين عليه وتعود بالفائدة علينا ، حيث إن طعام السجن يأتى بأمراض لا يعلم مدى خطرها إلا الله تعالى !!

والشىء الذى يثير فى النفس كوامن الحزن ، ولواعج الأسى وينخلع له القلب من الهلع ، أنهم حرموا التعاون فيما بيننا !!

لم يكن فى طاقة الجميع أن يتعامل مع الكانتين لأنه عاجز عن ذلك لضيق ذات اليد ، فإنه قبل أن يدخل السجن كان يكتسب لقمة عيشه بكد يمينه ، وعرق جبينه ، فلما دخل السجن ، وقع أهله فى ضيق شديد ، فقد كان من تسول له نفسه أن يطرق بابهم ولو بالسؤال عنهم كان مصيره كما يقولون « وراء الشمس » .

فإذا ما مدّ لهم يد المعونة فتلك جريمة لا تغتفر .

أعرف رجلا كفيف البصر ظل فى السجن عامين لأن جاره قد اعتقل فذهب إلى أهله . وأعطاهم جنيهين تلك كانت جريمته !

الله تعالى يقول : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ والقانون الظالم قانون « عبد الناصر » يقول : من مد يده يجنيه سجن عاما . وهكذا قانونهم من جاء بالحسنة فله عشر سيئات . فكيف تتصور أن تأكل شيئاً من الفاكهة وأخوك بجوارك ينظر إليك ، لا يملك أن يمد إليها يدا ، بل يشم أريجها ، ويحرم من مذاقها !!

حيرنى بربك

هل تستطيع نفسك أن تقوم على مثل هذا العمل ؟!

أعرف رجلا كان بجانبى ، وكان يعمل بالبناء ، فلما اعتقل اضطرت زوجته أن تبيع حتى الأدوات التى كان يقوم بواسطتها بعملية البناء ، فكيف يتصور إنسان أن يأكل شيئا يحرم منه أخوه والرسول ﷺ يقول فى حقوق الجار : « **ولا تؤذه بريح قدرك وإذا دخلت على أهلك بالفاكهة فإما أن تعطيه منها ، وإما أن تدخل بها سرا ولا تترك ابنك يخرج بها فيغيظ بها ولده** » صدقت يا سيدى يا رسول الله يا صاحب القلب الرحيم !! والخلق العظيم !!

حادثـــة تســـلل داخـــل العنبـــر

إن من شر المصائب ما يضحك !

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنــه ضحك كالبكـــا

أذكر ذات يوم أن القائمين على شأن « الكانتين » فى سجن أبى زعبل جاءوا لنا بكمية وفيرة من البرتقال ووزعت على المتعاملين مع الكانتين وحرم منها الذين لا يجدون ما ينفقون ويحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وكنا فى العنبر قد بلغ عددنا مائة وعشرين منهم بعض أفراد لم يستطيعوا التعامل ومن هنا حرموا من البرتقال حيث لأن القوانين الصارمة تمنع منعا باتا أن يمد أحد المعتقلين يده بشىء أيا كان نوع هذا الشىء إلى أخيه فى المعتقل ومن ضبط متلبسا بذلك استدعى للتحقيق وحبس حبسا انفراديا فى زنازين التأديب حيث يصرف له رغيف واحد طول اليوم بجانب قليل من الماء وبعض حصيات الملح !!

وقد يقول قائل : ولماذا لا يمد أحدكم أخاه بشىء من المال سرا ؟ لأننا نقول إن المال كان محرماً علينا ، لأننا نرسل إلى الأهل فيرسلون النقود إلى إدارة السجن وتقوم بدورها بتوزيع بطاقات نتعامل بمقتضاها مع الكانتين فمن ليس عنده نقود يتعامل بها لا تصرف له تلك البطاقة ومن ثم يحرم من التعامل بطريق التكافل أو التعاون ، حتى يحطموا بزعمهم تعاليم الإسلام فى النفوس وحتى يخرج المعتقل إلى المجتمع إن قدر له ذلك ممسوخاً شأنها أنانيا محبا لذاته حاقدا مليئا بالشحناء والبغضاء فى ظل الاشتراكية اليوغسلافية وتعاليم « تيتو » الذى قال لزعيمهم لأن تكون زعيما مهيبا أفضل من أن تكون زعيما محبوباً .

كانت القوانين صارمة إذا ما قام أحد (البصاصين) جمع بصاص وكان هذا الاسم يطلق على كتبة التقريرات السرية .

تأمل معى يرحمك الله كيف صارت الأنانية قضية ، وكيف أضحى التعاون رذيلة ، وكيف صار المعروف منكرا ، والمنكر معروفاً ، وكيف أصبح الذئب راعيا والخصم العنيد قاضياً ؟!!

حدث ذات ليلة أن قام أحد المعتقلين فى عنبرنا بدس بعض الفاكهة إلى أحد الإخوة الذين حرموا من التعامل وتسلل على يديه ورجليه فى ضمة الليل حتى لا يشعر به أحد من كتبة التقريرات ، وأخذ طريقه إلى مكان هذا الأخ ، وبينما هو يريد العودة إلى مكانه إذ أخرج له أحد البصاصين رأسه من تحت الغطاء بعدما رآه يتسلل إلى هناك وغطى رأسه من باب التمويه وصاح قائلا : قف عندك فقد رأيتك واشهدوا يا سكان هذا العنبر على ما فعل هذا !!

وتساءلنا ماذا فعل ؟ وقال بأعلى صوته وكأنه ألقى القبض على عصابة من المهربين صاح قائلا : (تكافل – تكافل – تكامل) .

اعجب معى لقوم ضيعوا البلاد والعباد ولم يصونوا عرضا ولم يحفظوا أرضا ولا عهداً ﴿ **لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون** ﴾ .

شعرت بمرارة فى حلقى لما سمعت ورأيت وذكرنى ذلك بقول أبى العلاء المعرى :

إذا وصف الطائىّ بالبخل مادر ... وعير قسا بالفهاهة باقل
وقال السهى للشمس أنت ضئيلة ... وقال الدجى للصبح لونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهة ... وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
فيا موت زر إن الحياة مريرة ... ويا نفس جدى إن دهرك هازل

نعم ليأتين على الناس زمان يقف الحى فيه على قبر الميت ويقول يا ليتنى مكانه !!

وقامت الدنيا ولم تقعد كيف يتسلل أحدنا ببعض حبات البرتقال جادت به نفسه لأخيه المسلم إن هذا لشيء عجاب !!

إن الله تعالى ادخل رجلا مذنبا الجنة لأنه سقى كلبا كان قد اشتد به العطش فشكر الله له فغفر له ذنبه .

أليس هذا المخلوق الذى سقاه الرجل ذا كبد رطبة ؟! فما بالك بالإنسان الذى كرمه الله على كثير ممن خلق ، وفضله تفضيلا !!

إن الله تعالى سيسأل العبد يوم القيامة ويقول له : « **عبدى مرضت فلم تعدنى . فيقول العبد وكيف أعودك وأنت الله رب العالمين ؟ فيقول له : مرض عبدى فلان فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده. عبدى استطعمتك فلم تطعمنى . فيقول**

العبد : وكيف أطعمك وأنت الله رب العالمين ؟ فيقول له الله : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟!

عبدى استسقيتك فلم تسقنى !! فيقول العبد يا ربى : وكيف أسقيك وأنت الله رب العالمين ؟

فيقول الله : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى !! » .

تباركت ربنا وتعاليت فلك الحمد على ما قضيت ولك الشكر على ما أنعمت به علينا وأوليت .

إنهم يريدون تحطيم الإنسانية فى الإنسان بحيث يصير المرء فى نظرهم قرداً ، أى حيوانا مقلد لا يعرف قيمة ولا خلقا ، يريدون أن يقتلوا فينا جانب الرحمة ويقضوا على فضيلة الإيثار ، ليغرسوا فى النفوس حب الأثرة التى نعى الله تبارك وتعالى عنها وذم أهلها فى قوله : ﴿ **وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية** ﴾ .

إن رسولك الكريم يقول : « **من لا يرحم لا يُرحم** » ويقول : « **ليس منا من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم** » . ويقول : « **أيما أهل محلة باتوا وفيهم جائع برئت منهم ذمة الله** » .

ويرحم الله فاروق هذه الأمة عمر بن الخطاب الذى كان يقول بلسان حاله ومقاله .

« لو عثرت بغلة فى العراق لسألنى الله عنها لم لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟! » .

وما أجمل قول حافظ إبراهيم فى عمريته :

إن جاع فى شدة قوم شركتهم فى الجوع ... أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته ... فى الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته ... أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها ... من أين لى ثمن الحلوى فأشريها؟!
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به أولى ... فقومى لبيت المال رديها

ويرحم الله فاروق هذه الأمة كان يقول لأهله : « إن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم فاتقوا الله يا آل عمر !! » .

كان الفاروق رضى الله عنه يتردد على خيمة امرأة عجوز عمياء فى ضاحية من ضواحى المدينة أيام خلافة الصديق أبى بكر رضى الله عنه ، فكان يذهب إليها قبل أن تبرز الغزالة من

خدرها فيسارع الطيور فى البكور ، فيكنس لها خيمتها ويرشها بالماء ويحضر لها الطعام ثم ينصرف ، والعجوز لا تعلم من هذا ، وذات صباح ذهب إليها كعادته ، فوجد خيمتها قد كنست ورشت ، وأحضر لها الطعام فسألها من الذى فعل هذا يا أمة الله ؟!

فقالت له : رجل لا أعرفه !!

فذهب عمر ليأتى فى اليوم التالى فيختبىء وراء صخرة لينظر من الذى أتى إلى هذه الخيمة فإذا هو خليفة رسول الله أبو بكر الصديق !!

فقال له عمر : يا أبا بكر لله درك ما سابقتك إلى خير إلا سبقتنى !!

فانظر يرعاك الله إلى قوم وضعوا أرصدتهم فى صناديق التوفير التى كتب عليها ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ .

قوم إذا دعاهم الداعى إلى فعل الخيرات تمثلوا قوله جل شأنه : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾ . وقوله تعالى :

﴿ **فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا** ﴾ . وقوله جل شأنه :

﴿ **وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾ . وقوله تبارك اسمه :

﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ .

أى قوم كانوا ؟ وأين نحن منهم ؟

شتان بين ما كانوا عليه !! وبين ما صرنا إليه !!

كان الواحد منهم يقول : لنزح بحرين بغربالين ، وحفر بئرين بإبرتين ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين ، وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين ، خير لى أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عينى .

فماذا كانت نتيجة التحقيق فى حادثة تسلل ؟

لقد حبس كل من المتسلل والمتسلل إليه فما ذنبهما ؟

أما ذنب المتسلل ؛ لأنه ما زال حتى الآن يحمل بين جنبيه نفسا خيرة ، وأما ذنب المتسلل إليه ؛ لأنه علم ولم يبلغ !!

أرأيت أمة مثل هذه الأمة التى تحكم حكما ينزع الرحمة من القلوب ، ويحطم الإنسانية فى الإنسان .

اللهم لطفا بعقولنا ورحمة بنا !!

إنك أنت الغفور الرحيم !!

رائحة الجبن

قد يقول قائل : وهل للجبن رائحة ؟ إنه معنى من المعانى !! فكيف يوصف بما هو محسوس مادى !! وأبادر بأننى ما قصدت بالجبن هنا تلك الرذيلة التى تمثل أحد طرفى صفتين تقع فضيلة الشجاعة بينهما وهما الجبن والتهور – إنما قصدت به الجبن الذى نأكله والذى جىء به إلينا ذات يوم فى « صفيحته » فلما فتحت داخل العنبر فاحت منه رائحة أشد نتنا من جيفة الكلاب فصاح الأخ « الدسوقى ضيف » وكان تاجرا من بورسعيد وكان مكانه بجوارى صاح لما أزكمت الرائحة أنفه قال : هذا هو الجبن فى عهد « عبد الناصر » وظن أنها كلمة هو قائلها سرعان ما تذهب أدراج الرياح ولم يدر ماذا سيحدث بعدها !!

لقد كتب بها تقرير سرى إلى قائد المعتقل العقيد « عبد العال سلومة » وبين غمضة عين وانتباهتها خف سيادة العقيد إلى مكان الحادث وخلفه السادة أركان حربه وكأنهم يريدون أن يقتحموا حصنا مستعصيا أو يدكوا قلعة حصينة ووقف سيادة القائد يزأر زئير الأسود إذا ديس عرينها وسأل أين « الدسوقى ضيف » ؟ وقد أمرنا جميعا أن نجلس على ركبنا وصمتت الألسنة ، وشخصت الأبصار وفتحت الجلسة ، وثار الرجل وفار ، وتأجج وتوهج ، وأرغى وأزبد ، وهدد وأوعد ، وألقى العقاب على من قال هذه الكلمة ، وكأنه قال هُجرا ، ونطق كفرا !!

وهكذا كانت العقوبة توقع بحزم وحسم لكل من تسول له نفسه أن ينطق بكلمة تشير من قريب أو بعيد إلى الذات المصونة ، ذات الزعيم الذى أوشك أن يقول : ﴿ **ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ والذى كان لا يقبل نصحا ، ولا يرضخ لموعظة الناصحين ، بل كان يقول : أنا الذى خلقت فيكم العزة والكرامة ما أريكم إلا ما أرى .

نعم

لقد طال هذا الليل وأسود جانبه ، وحار اللسان ، وعجز البيان ، وحزن الجنان !!

صبرنا إلى أن مل من صبرنا الصبرُ وقلنا غدا أو بعده ينجلى الأمر

فكان غد عمرا ولو مد حبله ... فقد ينطوى فى جوف هذا الغد الدهر
وقلنا عسى أن يدرك الحق أهله ... فصاحت عسى من لا ولا طعمها مر
عجبت لمصر تهضم الليث حقه ... وتفخر بالسنّور ويحك يا مصر
سلام على الدنيا سلام على الورى ... إذا ارتفع العُصفور وانخفض النسر

أســـوأ من رائحـــة الجبـــن

جسنا بعد أن وقع العقاب على من قال « هذه رائحة الجبن فى عهد عبد الناصر » جلسنا فى حزن ووجوم كيف استطاع ذلك النظام أن يجعل من الناس دمى يشدها بخيط واحد ؟! وكيف استطاع كما قال أن ينيم الناس ، ويوقظهم كأنه يضغط على زر ؟! وكيف استخف قومه فأطاعوه حتى جاء اليوم الذى وقف فيه الملهم بعد أن أصيب بانفصال الوحدة بين مصر وسوريا وقف بين شرذمة من المصفقين يقول :

« لقد أمرت السفن أن تتحرك لتضرب سوريا » فالتهبت الأكف بالتصفيق ، وعلا الهتاف : بالروح .. بالدم .. نفديك يا جمال .. اضرب .. اضرب يا جمال .. أدّب .. أدّب يا جمال . حتى بحت الحناجر وكأنهم يلبون فى عرفات ، يسألون الله المغفرة والرحمة يسبحون ويحمدون ويكبرون ويهللون وبعد أن خشعت الأصوات للزعيم قال :

« لكنى رأيت أن السلاح العربى ، لا يوجه إلى صدر عربى » .

وصاحت الهتافات تدوى وتشق عنان السماء : عاش رجل السلام .. عاش رجل العزة والكرامة .. عاش رجل الحرية .. من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر .. لبيك عبد الناصر .

وعجب الناس وأكبر ظنى أنه هو نفسه كان يسخر من تلك العقول .. وهذه الأشباح لمن كان الهتاف الأول ؟ ولمن كان الهتاف الثانى ؟ ولكل منهما موضوع يناقض الآخر !! الحق أننا نعيش فى عجب !!

وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو الطيب .

جاءنى بعد حادثة رائحة الجبن « الشيخ عبد المقصود حجر » وقال لى : أيعاقبون أخا وجه نقدا إلى صفيحة الجبن ؟ ألا تدرى ماذا حدث لى فى السجن الحربى على يدى شمس بدران ؟

فقلت له : قل يا أخى أسمع وكان الحديث بيننا همسا !!

قال « الشيخ عبد المقصود » : لما دخلت السجن الحربى نودى على وذلك من قبل

« شمس بدران » وبعد سؤال وجواب قال لى : إن لم تعترف الآن بالمعروف فسوف أعرفك كيف تعترف .. سأنتزع الاعتراف من رأسك بالطريقة التى أراها ، ولم يكن عندى ما أقوله ، فليس هناك تهمة ولا ذنب ، فبماذا أعترف ؟!

ولكنهم قوم لو وزعت قسوة قلوبهم على أهل الأرض ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد من أهل الأرض ، ولما لم يجد منى أى اعتراف أمر زبانيته أن يأخذونى ، ويغلونى ، ورأيت نفسى أمام بئر من آبار المجارى ، وإذا به يصدر الأمر أن أنزل فى هذا البئر الملىء بالقاذورات والفضلات ، وكان يوماً شديد الحر كأن شمسه خرجت من بين الرمال ولم تشرق من بين السحب ، لقد سال من الشمس لعاب كالمهل يشوى الوجوه .. أمرهم أن يخلعوا ثيابى كيوم ولدتنى أمى ، وامتثالا لأمر الطاغية نزلت فى البئر ، ووصلت القاذورات إلى عنقى فقال لى الطاغية : اغمس رأسك يا ابن كذا وكذا .... وإلا حطمت رأسك بحذائى هذا !!

قال الشيخ – وهو من حملة القرآن الكريم –: فوضعت يدى على وجهى وغمست رأسى فلما رفعته قال لى بصوته المفزع : هل ستعترف ؟ فأقسمت بالله أن ليس عندى ما أعترف به .

هذا وقد اشتعل جسمى لهيبا وكان هناك من الحشرات ما يلسع ويقرض ويلدغ كلها كأنها قد اجتمعت على ، فضلا عن الرائحة التى تزكم الأنوف وتطيش لها العقول . ثم قال أخرجوه وحسبت أننى سأذهب إلى دورة المياه لأغسل ما علق بجسمى من تلك النجاسات المركزة ولكنى فوجئت بهم يأخذوننى عارياً ملوث البدن إلى مكان تركز الشمس حرارتها على فاجتمع على قيظ الهواجر ولهيب ما علق بجسمى من قاذورات وما زكم أنفى من خبيث الرائحة وظللت هكذا ساعات وساعات .

ثم ختم الشيخ هذه المأساة بقوله :

أبعد هذا كله تثور ثائرتهم ، ويقيمون الدنيا من أجل كلمة قيلت فى رائحة الجبن ؟!

إن الظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر !! يا ابن آدم إذا غرتك قوتك على ظلم الناس فانظر إلى قوة العزيز الجبار من فوقك ، ما أضعفك ! إذا غرتك قوتك.فلماذا استحكمت فيك شهوتك ؟!

وإذا غرك غناك فارزق عباد الله يوماً ، إن فى القرآن دروسا جعلها الله تذكرة لتعيها الآذان الواعية !!

تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره
وتخونه الأيام حتى لا يرى يوما يسره

لقد علقت رءوس المصلين فى المشانق وسيق الذين اتقوا ربهم تحت السياط الحامية إلى السجون وارتفعت أصوات المنافقين حتى جعلوا من شهيد الإسلام « سيد قطب » « مسيلمة الكذاب » ومن طاغية العصر أعدل من عمر بن الخطاب !!

إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا !!

إن النفاق أشد من الكفر ، لأن النفاق سم فى عسل وأخطر الناس على المجتمعات هم المنافقون !!

إنهم عالة على المجتمع ساعة السراء ، وسوس ينخر فى عظام الأمة ، إذا حلت بها البأساء والضراء . إنهم الآكلون على كل الموائد ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾ .

يقول تعالى فى حديثه القدسى الجليل : « **لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت ، لأتيحنهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران !!، أبى يغترون ؟ أم على يجترئون ؟** » تباركت ربنا وتعاليت يا من قلت وقولك الحق : ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾ .

إنهم أصحاب القلوب المظلمة ، والأفئدة المتحجرة ، إنهم الغشاشون ، الكذابون ، المترددون ، المشاءون بين الناس بالنميمة ، الملتمسون للبراء العيب ، إنهم المخادعون ، الأفاقون .

﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا** ﴾ .

إنهم الذين إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا ائتمنوا خانوا ، وإذا خاصموا فجروا وإذا عاهدوا غدروا ،

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا إن الكذوب يشين حرا يصحب
يلقاك يقسم إنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب
يسقيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

إنهم المصرون على الذنوب والخطايا ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون** ﴾

كم من صاحب يلقاك عناقا ، ويقسم بالله أنه لا يطيق لك فراقا !!

إنه ملك كريم فى مظهره .. شيطان رجيم فى مخبره يلقاك بوجه أبى ذر ، وقلب أبى لهب .

كان المسيح على نبينا وعليه الصلاة والسلام يقول : يا بنى إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ، ولكن البسوا ثياب الملوك ، وألينوا قلوبكم بخشية الله .

إن النفاق مرض اجتماعى خطير ليس طفحا جلديا ، وإنما هو سرطان فى الدم .

ولا تنبت شجرة النفاق الخبيثة إلا فى الظلم والظلمات .. عندما يولى ربيع الحرية مدبرا ، ويحل محله لظى الاستبداد ، فإذا انتكست القيم ، واهتزت المعايير ، وانقلبت الحقائق . حقا على وجه هذه الغثاء ، وويل للأمة إذا تداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، ولن يكون ذلك كذلك إلا إذا صارت غثاء كغثاء السيل، فتصاب بالجبن والخور، إنهم كثيرون، ولكن كثرتهم عبء ثقيل على كواهلهم ، عندئذ ينزع الله مهابتهم من قلوب أعدائهم فيحسبون ، ويبقى الوهن فى قلوبهم ، فيتركون الجهاد ويستكينون ، وما الوهن إلا حب الدنيا وكراهية الموت !!

وهذه خصلة من أرذل الخصال ، قال الله فى شأن اليهود : ﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون** ﴾ .

فالمجتمع الحريص على حياة أى حياة مجتمع بخيل جبان حقود مصاب بحب الذات والأنانية . شعاره : « انج سعد فقد هلك سعيد » .

شعاره : « أنا والطوفان من بعدى » .

ولن تكون هذه الصفات فى مجتمع إلا إذا ضاعت منه أقدس القيم ، وعلى رأسها الحرية التى قال عنها عمر رضى الله عنه : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟!

والمجتمع الذى يساوم على حريته قطيع من السائمة ، وقد كان الإسلام وما زال وسيظل يدعو إلى الحرية والشورى والعدل .

وما من أمة تتحلى بتلك المبادىء إلا كان السعد رائدها ، وتوفيق حليفها ، وألبسها الله لباس العز والشرف ، وما من مجتمع يتخلى عن تلك المبادىء ، إلا كان الذل رائده ، والخذلان حليفه وأذاقه الله لباس الجوع والخوف !!

وأخوف ما يخاف الناصح الأمين على بنى قومه أن يفقدوا انتماءهم ، وإخلاصهم ، فيصابون بالأنانية الحاقدة ، فيصبح هدف كل منهم نفسه ، ويصير شعاره :

لن أذود الطير عن شجـر   قد بلوت المر من ثمـره

نعم أخوف ما يخاف الناصح على الأمة حب الأثرة ونبذ الإيثار .

وفى الأثرة يقول تعالى : ﴿ **وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية** .

وفى الإيثار يقول جل شأنه :

﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا** ﴾ .

ويقول تبارك اسمه :

﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾

استوصـوا بالشبـاب خيـرا

وصية غالية وجهها سيد المخلصين وإمام المتقين إلى الأمة ، يريد لها الحياة الطيبة ، الدافقة بالإيمان ، الفياضة بكريم المشاعر ، استوصوا بالشباب خيرا ، فإنهم أرق أفئدة ، وإن الله بعثنى بالحنيفية السمحة ، فحالفنى الشباب وخالفنى الشيوخ !

نعم !

الشباب نصف الحاضر ، وكل المستقبل !!

وهو تلك الطاقة التى تدفع الأمة من حاضرها المجيد إلى مستقبلها السعيد ؛ ليكون يومها خيرا من أمسها وغدها خيرا من يومها .

لذلك عنى الإسلام بتربية الشباب تربية تقوم على الطهر والنقاء ، وطهارة الأبدان والأردان !! **فطفلك لاعبه سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعاً ، « مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع »** .

قال صلوات ربى وسلامه عليه :

« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للطرف وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

تأخذك الدهشة ويستولى عليك العجب . نعم وأى دهشة وأى عجب أشد من أن يعذب الشباب لأنه يتردد على المساجد ، ولا يذهب إلى دور السينما والمسارح ويلاقى فى سبيل ذلك ، كل ألوان المعاناة وصنوف العذاب الأليم !!

صدق ربنا فأنت القائل : ﴿ **وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض والله على كل شىء شهيد** ﴾ .

إن الأمم تبنى نفسها ببناء أبنائها

تبنى نفسها على الخلق والقيم والمثل

وليس بعامر بنيـان قوم   إذا أخلاقهم كانت خرابا

وكيف يقوم صرح ويشيد بناء على أمواج من الرمال

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم   فأقم عليهم مأتما وعويلا

وكيف تتبوأ أمة مكانة من المجد المؤثل عندما تحرض أبناءها على الفساد والانحراف ؟!

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويرحم الله شاعر النيل إذ يقول على لسان مصر :

قد وعدت العلا بكل أبى   من رجالى فأنجزوا اليوم وعدى
وارفعوا دولتى على العلم والأخلاق   فالعلم وحده ليس يجدى
أنا إن قدر الإله مماتى   لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

لقد كان كارل ماركس يقول فى جرأة وتبجح : لأنسين الناس الله بالمسرح !!

ولم تكن السينما قد اخترعت فى زمانه فما بالنا نكرر نداءه من حيث نشعر أو لا نشعر فنضع تحت العذاب الأليم شبابا مكتهلين فى شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، قصيرة عن

الباطل أرجلهم ، نظر إليهم ﷺ في جوف الليل ، وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه !!

هل الدعوة إلى الاصلاح تكون بهدم الإنسان أم ببنائه ؟ شتان ثم شتان !! وهيهات هيهات لما تقولون ولما تزعمون !!

إن « رتشارد نيكسون » عندما تولى رئاسة الولايات المتحدة قال في بيان له : « إن أمريكا لا تعانى أزمة مادية إنما تعانى أزمة روحية لقد وجدنا أنفسنا أغنياء في السلع لكننا فقراء في الروح نصل في قرب عظيم إلى القمر ، ونسقط في خلاف حاد على الأرض » .

أعلمت كيف واجه حاكم الولايات المتحدة تلك الصعاب ؟! وكيف أصاب كبد الحقيقة ؟!

أمة بلا روح ، جسد هامد لا حراك فيه !!

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يحى دينا
ومن رضى الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرينا

وهل تستقيم الحياة إذا اكتنفتها ظلمات الشهوات وغشيتها دياجير الظلام ؟!

وهل انتشرت ظاهرة الانتحار إلا في أرقى دول أوربا وأغناها وأعظمها ثراء؟!

هل انتشرت تلك الظاهرة إلا لخراب النفوس من الروحانيات الصافية وموت الإيمان في القلوب ؟!

ليست السعادة في الانتشاء بالكئوس المترعة أو الاستمتاع بالغيد الأماليد ، إنما السعادة في تقوى الله واكتساب رضاه

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

أحـــداث جســـام

جاء شهر مايو ١٩٦٧ وطالعتنا الصحف ونحن في سجن أبي زعبل بعناوين ضخمة وفي صدر صفحاتها تفيد أن الجيش قد تحرك إلى سيناء وقد أخذ وضع استعداد وأعلنت حالة

الطوارىء بعد طرد قوات الأمم المتحدة من منطقة خليج العقبة التي لم يكن أحد من الشعب يدرى أنها قد وضعت تحت تصرف اليهود في الملاحة حتى جاء ذلك اليوم . وأخذت الأحداث تتحرك بسرعة ، ولم تكن مصر مهيأة لخوض الحرب . لقد كان قادتها يعرفون بما لا يعرفون ، ويملئون الدنيا صياحاً وعجيجا وضجيجا ، وحلت بها نكبة الشعارات « سنلقى إسرائيل في البحر » « سنضرب إسرائيل ومن وراءها » وكان في إذاعة صوت العرب مذيع جهورى الصوت يكاد صوته يصم الآذان ، كان عمله مقصوراً على توجيه السباب والشتائم المقذعة للأمة العربية، كنا ندعو إلى الحرب، ولا نعمل لها حساباً ، وكانت إسرائيل تدعو إلى السلام ، وهى تستعد للحرب !!

إن اليهود قوم يحفظون جدول الضرب عن ظهر قلب وحساباتهم دقيقة ، وخططهم مدروسة ، وخطواتهم محسوبة .. أما نحن فكما قال موشى ديان :

إن العرب لا يقرءون، وإذا قرءوا لا يفهمون ، وإذا فهموا سرعان ما ينسون ، ولا يتذكرون !!!

وهذه كلمة عدو ولكن تجارب العدو لابد أن تفكر بعقلك ، لتقع على موطن الخطر في تفكيره ، ولابد أن تعلم أن العدو لا يتمنى لك خيراً ، ولو أبدى حسن ضنه ، فإذا كان عدوك نملة فلا تنم له واعلم بأن القول فصل ليس بالهزل ، ودقت طبول الحرب ، وعلا صياحها ، والحرب أولها كلام :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمو ... وما هو عنها بالحديث المرجم

المجتمـــع الممـــزق

حدثنا حقائق التاريخ أن القائد الحكيم إذا أراد أن يخوض معركته ، كان لزاماً عليه أن يقوم بتوحيد الجبهة الداخلية ؛ لأنها التي تقف وراء صفوف المقاتلين في الميدان ، وتمدهم بالعتاد والعدد وتخلفهم خيرا في أهليهم ، فإذا ما أصيبت تلك الجبهة بالفرقة ، وتصدعت وحدتها ، وتمزقت أواصرها ، وانفصلت وشائجها ، وانحلت عراها كان سهلا على العدو ينزل بها فاقرة تقصم ظهرها .

ولقد صور النبى الكريم في حديث جامع صورة المجتمع الفاضل ، والمجتمع الخرب ، فقال في بلاغة معجزة وإيجاز وجيز :

« إذا كان امراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض أولى بكم من بطنها وإذا كان امراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض أولى بكم من ظهرها » .

كما قال : **« يا معشر المهاجرين خصال خمس إذا ابتليتم بهن ونزلن بكم وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم . ولم يمنعوا زكاة مالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا . ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان وما لم يحكموا بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم ولم ينقضوا عهد الله ورسوله إلا سُلِّط عليهم عدو من غيرهم فأخذ بعض ما فى أيديهم »** كانت تلك الرذائل كلها مركوزة فى طبائع المجتمع قبل الحرب فكان على رأس مصر الزعيم الأوحد والدكتاتور المستبد الذى تمثل كلمة فرعون **﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾** وكان هناك الصحفى الأوحد صاحب المقال الأسبوعى « بصراحة » .

وكان هناك الحزب الأوحد « الاتحاد الاشتراكى » . ولم يكن هناك إيمان بالواحد القهار ، الذى عنت الوجوه لجلال جبروته ، وخشعت الأصوات لعظم ملكوته ، الذى يحى العظام وهى رميم ، وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير .

لقد قرب الزعيم الأوحد إليه أعداء الله ورسوله من المنافقين وهيئة المنتفعين ، وأبعد كل مخلص أمين ؛ فلم يصر العدو صديقا وإنما صار الصديق عدواً واختلطت الأمور وأصبح المجتمع يعيش فى جو كئيب كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج المرء يده لم يكد يراها، وصدق الله جل جلاله إذ يقرر تلك الحقيقة : **﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾** .

وإذ يقول : **﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾**

وإذ يقول : **﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾** .

وإذ يقول : **﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم ﴾** .

وإذ يقول : **﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾** .

كان المجتمع قبل الحرب ممزق النفس ، معتلا مريضاً كئيبا كاسف البال . قليل الرجاء ؛ فالفزع والخوف والقلق والإرهاب والظلم والعنف كلها أشباح رهيبة . تخيم

بأجنحتها الكئيبة على كل بيت ، والأمن والأمان ، والسكينة والاطمئنان كلها ، قد صلى عليها المجتمع صلاة الجنازة ، ومؤسسة ناصر للسجون والمعتقلات قد فتحت أبوابها ، وأخذت الزبانية أقصى وضع فى الاستعداد لتمزيق الجلود والأجساد !! فمن رفع صوته بكلمة حق يقال له : خذوه فغلوه ، وما أدراك ما غلوه : سجون لا يكف النازل فيها عن الصراخ والعويل حتى لقد كانت هناك نكتة نرددها ونحن فى السجون : كانوا إذا أذاعوا علينا قرآن الفجر وقت السحور فى رمضان كنا نسمع صوت رجل يصيح بعد أن يسكت القارىء على آخر الآى يصيح قائلا : « صل على حضرة النبى » بصوت مرتفع وذات ليلة لم نسمع صوت هذا الرجل فتساءلنا لماذا لم يظهر صوته هذه الليلة ؟ فجاء التعقيب من بعض الإخوة : لابد أنه قد اعتقل وتساءل البعض : ولماذا يعتقل ؟ فاجاب آخر : لأن صوته أعلى من صوت المعركة !!

وقد أعلن الزعيم الملهم أنه لا صوت يعلو على صوت المعركة .

وتحت هذا الشعار استبيحت أموال ، واستغل النفوذ ، وهتكت أعراض ، وتحولت الأمة إلى كتبة تقريرات ، حتى كان الولد يكتب التقرير فى أبيه ، والأخ يكتب فى أخيه !!

وجاءت الصاخة ، وفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، وانتشر زوار الفجر ، يجوبون البلاد جيئة وذهابا !! فخبرنى بربك أين الأمل فى النصر ؟!

وهل هؤلاء فعلا سيرمون بإسرائيل فى البحر ؟ لقد تحولت الآمال إلى سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجده الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب

إذا ما الظلم حل بأرض قوم   وعم الفسق وانتشر الرياء
فويل ثم ويل ثم ويل   لأهل الأرض من رب السماء

انتهى بعون الله تعالى المجلد الثالث ويليه بإذن الله المجلد الرابع من كتابنا « قصة أيامى » وسنبدأ المجلد بعنوان « عوامل النصر » والله نعم الموفق .

عبد الحميد كشك

عوامل النصر

وأعنى بها عوامل البناء ، كما أعنى بالبناء بناء النفوس ، وهل تنهار المجتمعات إلا عندما تُحطِّم النفوس فيأتى تحطيمها على البنيان من القواعد ، فيخر عليهم السقف من فوقهم ، ويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون !!

إن عوامل البناء عقيدة راسخة .. معنويات عالية .. قوة الوازع الدينى .. أسلوب علمى متطور فى حرب الأعداء مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم** ﴾ .

ولقد رزق الله الأمة الإسلامية العقيدة والمعنويات المترتبة عليها ، والثروة البشرية والموقع الجغرافى الممتاز ، والأرصدة العريضة التى صارت مجمدة أو مجندة فى بنوك الغرب ومصارف الصهيونية كما رزقها الطاقة التى تسيل ذهبا أسود فى عروق الأرض ، فالبترول عصب الصناعات وغذاء الحروب ، والورقة الرابحة على مائدة الدبلوماسية العالمية ، فهل هناك عوامل أقوى من تلك العوامل لو أنها سارت فى مسارها الصحيح ؟! إننا لسنا ضعفاء وليس عدونا أقوى منا ، لسنا ضعفاء فى ذاتنا ، إنما أتى ضعفنا من فرقتنا وتمزيق كلمتنا ، وليس عدونا بأقوى منا ، إنما جاءت قوته بضعفنا لما تفرق شملنا . إننا ألف مليون .. نملك بلايين البلايين من الدولارات والأرصدة والطاقة .. إلى غير ذلك ولقد أنجز الله وعده وهو يقول :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** ﴾ .

ولقد كان عليما خبيرا وما زال وسيظل عليما خبيرا فلقد تحركت فى النفوس بعض الهواجس: أئذا منعنا المشركين وقطعنا علاقاتنا بهم أوليس يترتب على ذلك الكساد الاقتصادى وفساد حال التجارة ؟! فأزال العليم الخبير تلك الوساوس بقوله فى نفس الآية : ﴿ **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم** ﴾ .

وقد أنجز الله عهده ، وصدق وعده ، فأجرى فى بطون أرض الإسلام من المعادن والبترول ما يمكنها من إعلاء كلمة الله تعالى خفاقة عالية باذخة الذرى ، تناطح الجوزاء ، وتزاحم الشمس فى الجلاء فهل أخذت الأمة بتلك الأسباب واستعزت بالله ؟ كما قال تعالى : **﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾** **وهل وقفت عند تلك المقولة التى قالها عمر وهو يخوض فى الطين بقدميه عندما كان فى طريقه إلى بلاد الشام ليتسلم مفاتيح المدينة المقدسة من بطريق الرومان سفرنيوس وقد قال له أبو عبيدة : أتخوض فى الطين بقدميك يا أمير المؤمنين ؟**

فغضب عمر غضبة لله وقال : يا أبا عبيدة لو غيرك قالها ؟

نعم أخوض فى الطين بقدمى لقد كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام فلو ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله .

وهذا هو الذى حدث ابتغينا العزة عند اليهود والنصارى ، والشيوعيين ، فضربت علينا الذلة والمسكنة ، وأصبح الحق باطلا ، والباطل حقا وصار المعروف منكرا ، والمنكر معروفاً وأضحى الذئب راعيا ، وبات الخصم العنيد قاضيا !!

﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون . يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ .

معـــاول الهـــدم

بعد بيان عوامل البناء نأخذ هنا فى بيان معاول الهدم وبين عوامل البناء ومعاول الهدم تقف الأمة موقف الخوف والرجاء ، والوعد والوعيد ، وبين نور الوعد ونيران الوعيد يتقرر مصيرها . والأمة التى تنسى ماضيها تستدبر مستقبلها ، والأمة التى تساوم على حريتها تتحول إلى قطيع تلهب السياط ظهره ، وتنهال العصا عليه تدمى جسمه .

ومعاول الهدم خطيرة أشد خطرا من الحرب الضروس إذ هى التى تقدم للهزيمة فإن لم تتدارك الأمة أخطاءها وتعالج جراحها فعليها العفاء !!

فإما حياة تبعث الروح فى البلى ... وتنبت فى تلك الرءوس رفاتى
وإما ممات لا قيامة بعده ... ممات لعمرى لم يقس بمماتى

معاول هدم تفسخ أخلاق ، وانحلال اجتماعى وضعف للوازع الدينى ، وهبوط معنوى ، ونفاق ناشىء عن الظلم الاجتماعى !!

وهنالك تكون الحاقة وما أدراك ما الحاقة وتقع الواقعة وتكون الهاوية وما أدراك ما هي نار حامية .

فإذا ما ضعف وازع الدين نامت النفوس على هدهدة الشهوات ، وبين قسوة العاطفة وغفوة الضمير تتفسخ الأخلاق وينحل المجتمع، وقد كانت الأمة العربية في حربها مع إسرائيل كانت بين يدي الحرب قد فتكت بها تلك المعاول حيث استشرى الفساد ، وعم الظلم ، وانتشر البلاء وكانت صورة المجتمع كما صوره القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ .

وكان المجتمع قبل الحرب كما صوره الصادق المعصوم ﷺ في أحاديثه الشريفة حيث يقول في الحديث الذي رواه أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه »** رواه البخاري ومسلم .

لقد تحول دعاة المجتمع إلى أبواق للسلطان يؤيدون الباطل ، ويخذلون أهل الحق ، حتى لقد جاءنا أحد كبار الشيوخ في السجن – لم يأت معتقلا ولا مسجونا – إنما جاء ليلقي على أسماعنا درسا في التوعية فاقسم بالله قائلا : والله الذي لا إله غيره إن الحكومة قد طبقت تسعة وتسعين بابا من الشريعة ولم يبق سوى باب واحد هو حد الحرابة وقد طبقته فيكم ثم تساءل قائلا : أتدرون ما حد الحرابة ؟ إنه قول الله تعالى :

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ .

وظن بذلك أنه أرضى سيده ، وأنه سينعم عليه بالأوسمة والنياشين فيصير وزيرا للأوقاف أو شيخا للأزهر ، أو مفتيا للديار المصرية فذهب إلى أهله يتمطى ، ونسي أو تناسى أنه سوف يدعو ثبورا ، وإن لم يغفر الله له فسيصلى سعيرا !!

صدقت يا رسول الله إذ قلت : **« رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من النار فقلت : من هؤلاء يا أخي يا جبريل ؟!**

قال : الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟! » .

لقد اشتد بي الحزن وكاد الجوع يصدع كبدي وأنا أقرأ على رسالة حملها البريد إلى أحد المعتقلين وقد جاءته من صهره ، وكان شيخاً واعظا قرأها عليّ ذلك الأخ وإذا بفضيلته يقول له فيها : لقد أحسنت الحكومة صنعا إذ اعتقلتكم يا ذوي الأغراض الدنيئة والنفوس المريضة ولقد كان الرئيس عبد الناصر أرأف بكم من أهلكم حيث لم يقطع رواتبكم عنكم ، ثم انهال شتما وسبا ولعنا بكلمات تزكم العقول فضلا عن الأنوف ، وكأنها بركان من المجاري يرسل حمما ، كريهة الرائحة ، وبعد أن فرغ من قراءتها تجاذبنا أطراف الحديث فيما بيننا: ما الذي دفعه أن يكتب هذا الكلام وكان في غنى عنه ؟ أما كان الأولى به أن يسأل الله العافية من هذا السباب والنفاق !!

فقال لي صاحبي كلمة اقتنعت بها :

قال : إن الذي دفعه إلى هذا أنه يعلم أن الرسالة قبل أن تصل إلينا ستمر على لجان الأمن المتخصصة بمراجعة الرسائل ، وقد انقدح في عقله أنهم إذا قرءوا هذا الكلام سيعلمون أنه مواطن صالح ، وداعية إلى الوطنية ، لا يلحق به ، ولا يشق له غبار ، وعندما يقتنعون بذلك سيمنحونه ترقية وينعمون عليه بالدرجات العلى .

أنسي هذا الواعظ أن رسول الله ﷺ قال : **« ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة ما أردت بها ؟ »** .

قال فكان مالك يعني ابن دينار إذا حدث بهذا بكى ثم يقول : أتحسبون أن عيني تقر بكلامي عليكم وأنا أعلم أن الله سائل عنه يوم القيامة قال : ما أردت به فأقول أنت الشهيد على قلبي لو لم أعلم أنه أحب إليك لم أقرأ على اثنين أبداً .

وقال شيخ ثالث : من الشيوخ الكبار قال ينصح الحكومة ويوجهها إلى الطريق الذي رضي عنه ، ويبين لها كيف تعالجنا نحن المعتقلين ؟ وما هو الدواء الناجع والنصح النافع لنا ؟ قال بصوته الجهوري : وجهوا لهم الضربة القاضية حتى لا يرفعوا رءوسهم مرة أخرى ، وهكذا كان هؤلاء يسافرون إلى المحافظات ويتنقلون من بلد إلى بلد يعبئون النفوس .. يحرضون الدولة على القتل والتشريد ، ويحلون دماء الأبرياء ناسين أو متناسين قوله ﷺ : **« الآدمي بنيان الرب ملعون من هدمه »** وقوله ﷺ : **« من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة ، جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله »** .

ألم يسمعوا إلى قوله ﷺ :

« إن ناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل » .

نعم كان المجتمع كما صوره الرسول ﷺ فى قوله : **« إنى لا أخوف على أمتى مؤمنا ، ولا مشركا . أما المؤمن فيحجزه إيمانه ، وأما المشرك فيقمعه كفره . ولكن أخوف عليكم منافقا عالم اللسان يقول ما تعرفون ، ويعمل ما تنكرون »** .

كانت طبول الحرب تدق ونيرانها توشك أن تستعر وألسنة لهيبها تكاد تهتك أجواز الفضاء ، ولم يكن هناك أدنى إشارة إلى توقع النصر . كان مجتمع يطفح بالظلم والفساد على جميع المستويات : من قيادة سياسية ملأت السجون والمعتقلات بالأبرياء ؛ إلى اقتصاد منهار حطمته حروب فى غير موقعها كحرب اليمن ؛ إلى مجتمع يعيش فى رعب وهلع من زوار الفجر . فخبرنى بربك : أهذه حالة فيها بريق أمل لنصر مرتقب ؟ إننى وأنا أطالع أحوال المسلمين الأوائل ، الذين خاضوا غمار الحروب بشجاعة وإيمان وسنسبان ؛ يحضرنى حال القيادة السياسية وكيف كانت على مستوى المسئولية ؟ فها هو ذا الخليفة الأول أبو بكر الصديق يوصى الفاروق عمر عندما أراد أن يستخلفه فيقول له : إنى دعوتك إلى أمر متعب لمن وليه فاتق الله يا عمر بطاعته ، وأطعه بتقواه ، فإن التقى آمن محفوظ ثم إن الأمر معروض لا يستوجبه إلا من عمل به ، فمن أمر بالحق وعمل بالباطل ، وأمر بمعروف ، وعمل بالمنكر يوشك أن تنقطع أمنيته ، وأن يُحْبَطَ عمله ، فإن أنت وَلِيت عليهم أمرهم ، فإن استطعت أن يُجفّ يدك من دمائهم ، وأن تُضمِرْ بطنك من أموالهم ، وأن تُجِفَّ لسانك عن أعراضهم **فافعل ولا قوة إلا بالله** .

(رواه الطبرانى)

مجتمـــع مفكـك العـــرى

أصيب المجتمع فى أغلى شىء يملكه كل إنسان وهو جانب الإنسانية الذى تحطمَ والذى قضى عليه الخوف ، فقد أصيب مجتمع ما قبل الحرب بعقدة الخوف من الخوف ، وتحول الناس إلى كتبة تقريرات حتى كان الولد يكتب فى أبيه والأخ يبلغ عن أخيه!!! فهل يصلح هذا المجتمع أن يخوض معركة من معارك المصير ؟ شتّان بين ما كانوا عليه وبين ما صرنا إليه : لقد كان المجتمع الإسلامى يقوم على المحبة والإيثار لا على الأنانية والأثرة . فخذ هذه الصورة الإسلامية الصافية وقارن بينها وبين ما نحن عليه :

– عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : **« من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر على مسلم ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه »** (رواه مسلم) .

– وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : **« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه ، من كان فى حاجة أخيه ، كان الله فى حاجته ومن فرّج عن مسلم كُربة فرّج الله عنه كُربة من كُرَب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة »**

(رواه أبو داود)

– وعن دخين أبى الهيثم كاتب عقبة بن عامر قال : قلت لعقبة بن عامر : إن لنا جيرانا يشربون الخمر وأنا داع لهم الشُرَطَ ليأخذوهم . قال : لا تفعل وعظهم وهددهم . قال : إنى نهيتهم فلم ينتهوا ، وأنا داع لهم الشرط ليأخذوهم ، فقال عقبة : ويحك لا تفعل فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« من ستر عورة فكأنما استحيا موءودة فى قبرها »** .

(رواه ابن حبان وأبو داود والنسائى)

– وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع ، فقال : **« يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفض الإيمان إلى قلبه : لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ، ولو فى جوف رَحْله »** .

ونظر ابن عمر يوما إلى الكعبة فقال : **ما أعظمك وما أعظم حرمتك والمؤمن أعظم** حرمة عند الله منك ... (رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه) إلا أنه قال فيه : **« يا معشر من أسلم بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه لا تؤذوا المسلمين ، ولا تُعَيِّروهم ، ولا تطلبوا عثراتهم »** الحديث .

وكيف يرجى الخير من قوم تحولوا إلى جواسيس يبتغى كل منهم العيب للبرىء ، ويبتغى أميرهم الريبة فى قومه ، فما أعظم ما أرشد به النبى ﷺ إذ يقول : **« إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم »** (رواه أبو داود) .

وإن العدل هو ميزان الأمة الذى به تستقيم معاييرها وتسير سفينتها فى جو معتدل ، لذا ركّز الإسلام على العدل خاصة فى الأمراء . قال ﷺ : **« يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة ، وحد يقام فى الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين عاما »** .

(رواه الطبرانى)

ومن صور العدالة الاجتماعية أن العدل لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ، فالعدل هو العدل على جميع المستويات لا فرق بين الملوك والسوقة ، تأمل معى هذا المشهد المهيب الذى ينطق بالعدالة الاجتماعية فى أسمى معانيها وأعلى مراقيها : عن عائشة رضى الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التى سرقت فقالوا : من يُكَلّم فيها رسول الله ﷺ ؟ ثم قالوا : من يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ ، فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ : « يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب فقال : إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

(رواه البخارى ومسلم)

إن إقامة الحدود هو صمام الأمن للأمة ، إذ فى إقامتها تحقيق الحق والعدل والمساواة ، وفى تنفيذها يعيش المجتمع آمنا مطمئنا يأتيه رزقه رغدا من كل مكان . فمن الحقائق الثابتة أنه لن يرتفع صوت الباطل إلا إذا غفل أهل الحق . عندئذ يزأر الباطل فى عرصات الدنيا يملؤها ظلما وجورا وانحلالا وتفسخا . وإذا تُرك العابثون وما يعملون ، فإن نار عبثهم ستحرقهم وتحرق غيرهم . قال تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ وإذا تُرك أهل الفجور وما يصنعون ، اكتوى المجتمع كله بنار استهتارهم . من ثَمّ فإن مبعوث العناية الإلهية صلوات ربى وسلامه عليه يبين لنا الصورة الرائعة للمجتمع الذى يقيم حدود الله فيكون قد أخذ طريق النجاة له سبيلا . وللمجتمع الذى لا يقيم حدود الله فيكون مآله الدمار ، ومصيره الدرك الأسفل من النار . فاستمع معى إلى هذا التصوير البلاغى الرائع فى قوله ﷺ : « مثل القائم فى حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خرقا ، ولم نُؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » .

(رواه البخارى)

وشر ما يُبتلى به المجتمع أن يباشر ما حرّم الله ، وعلى رأس تلك المحرمات إباحة الخمر وهى أم الكبائر وأصل الخبائث ، وكفاها سوءاً أنها تغتال أغلى شىء فى الإنسان وهو العقل . وهل إباحتها إلا إعلان حرب على الله ؟ وماذا بعد إعلان الحرب على الله ؟ إن الله تعالى لا تغلبه قوة ولا تقهر إرادته أهل السماوات والأرض ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

إذا كانت الخمر أم الكبائر فكيف تُحتسى فى أمة دينها الإسلام ؟ أليس ذلك حربا على جبّار السماوات والأرض ؟ أليس ذلك عدوانا على تعاليم خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ؟

لقد جاءت النذر فيها نيران الوعيد لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . قال ﷺ : « إن الله حرّم الخمر وثمنها ، وحرّم الميتة وثمنها ، وحرّم الخنزير وثمنه » .

(رواه أبو داود)

– وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « لعن رسول الله ﷺ فى الخمر عشرة : عاصرها ومعتصرها ، وشاربها وحاملها ، والمحمولة إليه وساقيها وبائعها وآكل ثمنها ، والمُشترى لها ، والمُشترَى له » . (رواه ابن ماجه)

– وروى عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يبيت قوم من هذه الأمة على طعم وشرب ولهو ولعب ، فيصبحوا قد مُسِخوا قردة وخنازير ، وليصيبهم خسف وقذف حتى يصبح الناس ، فيقولون : خُسِفَ الليلة ببنى فلان ، وخسف الليلة بدار فلان خواصّ ، ولترسلَنّ عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط على قبائل فيها ، وعلى دورٍ ، ولترسلن عليهم الريح العقيم التى أهلكت عادا على قبائل فيها ، وعلى دور بشربهم الخمر ، ولبسهم الحرير ، واتخاذهم القينات . وأكلهم الربا وقطيعتهم الرحم » . (رواه أحمد)

– ورُوى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء ، قيل : ما هى يا رسول الله ؟ قال : إذا كان المغنمُ دُولاً والأمانة مغنما ، والزكاة مغرما وأطاع الرجل زوجته ، وعقّ أمه وبرّ صديقه ، وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات فى المساجد وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأُكرم الرجلُ مخافة شره ، وشربت الخمور ، ولبس الحرير ، واتُخذت القينات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء ، أو خسفا ومسخا » . (رواه الترمذى)

نفـــاق رخيـــص

أخطر أمراض المجتمع النفاق إذا ابتليت به أمة أضحى الذل رائدها ، والهزيمة عاقبتها ، وأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ؛ ذلك لأن النفاق كشهادة الزور يقلب الحق باطلا ، والباطل حقا ، يقرب الأعداء ويبعد الأصدقاء ، ومن ثم لا يصير العدو صديقا إنما يصبح الصديق عدوا ، ومدرسة النفاق تخرج الآكلين على كل الموائد ، وحملة القماقم

الذين لا عهد لهم ، ولا ذمة ، ولقد فتح القرآن الكريم أبوابه ، يلقى الدروس النافعة حتى تسلم المجتمعات من هذا الداء العضال ، وما أمر ثعلبة ببعيد ، إنه ذلك الفقير الذى جعل من مسجد رسول الله ﷺ موطنا وسكنا ومنهلا حتى سمى بحمامة المسجد ، تحركت نفسه ذات يوم طمعا فى الدنيا ، فقال للرسول الكريم سل الله أن يغنينى يا رسول الله !!

فقال له صاحب الخلق العظيم ، والقلب الرحيم بصوت فيه الجلال والجمال والكمال :

« **يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تؤدى شكره** » ، لكن ثعلبة ألح فى الطلب على السيد الكريم وعاهد الله إن آتاه من فضله ليصدقن وليكونن من الصالحين ودعا الرسول ربه ... « **اللهم أغن ثعلبة بما شئت** » ودعوة رسول الله ليس بينها وبين الله حجاب أليس هو الذى زكى الله عقله ، فقال : ﴿ **ما ضل صاحبكم وما غوى** ﴾ وزكى لسانه فقال : ﴿ **وما ينطق عن الهوى** ﴾ وزكى شرعه فقال : ﴿ **إن هو إلا وحى يوحى** ﴾ وزكى جليسه فقال : ﴿ **علمه شديد القوى** ﴾ وزكى فؤاده فقال : ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ وزكى بصره فقال : ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى** ﴾ ، وزكى رسالته فقال : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ وزكاه كله فقال : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ .

واستجاب الله الدعوة ورزق ثعلبة بألوان من الأنعام من غنم وبقر ، وإبل وتناسلت وتكاثرت . حتى صارت كالدود فى كثرتها وضاقت بها شعاب المدينة ، فما كان منه بعد ذلك ، إلا أن ترك الصلاة وراء الرسول الكريم ، وهجر المسجد النبوى العظيم وسأل الرسول عنه ، ولكنه علم أن ماله شغله ونعوذ بالله من ذلك ، الله تعالى يقول فى الحديث القدسى الجليل : « **ابن آدم عندك ما يكفيك ، وأنت تطلب ما يطغيك . لا بقليل تقنع ، ولا من كثير تشبع ، إذا كنت معافى فى بدنك آمنا فى سربك عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء** » !!

لقد طارت حمامة المسجد من بيت الله فتمرغت فى طين الأرض وأوحالها فما استطاعت أن تحلق بعد ذلك فى أجواء الروحانيات الصافية بعد أن تمرغت فى حمأة الطين المسنون . إن ثعلبة كان لا تفوته تكبيرة الإحرام خلف الصادق المعصوم فماذا دهاه ؟ وأى بلاء نزل به .

لقد أرسل الرسول ﷺ إليه عامله على الزكاة فما كان من ثعلبة إلا أن قال بلسان النفاق : « بلغ صاحبك أن ليس فى الإسلام زكاة ، إنها أخت الجزية » هنالك زلزل عامل بيت المال زلزالا شديداً !! فقال له : أو لا تراه لك صاحبا ، ولما بلغ رسول الله الكريم ذلك الخبر الشنيع قال : « **يا ويح ثعلبة** » ذلك لأن الله أنزل قرآنا يتلى إلى يوم القيامة قال جل شأنه : ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما**

آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾ .

لقد حمل ثعلبة المال إلى الصادق المعصوم فلم يقبله ، وجاء به إلى أبى بكر فى خلافته فرده ، كما رده عمر وعثمان ؛ ذلك لأن النفاق قد غزا قلبه فأفرخ الإلحاد بعدما عشش فيه الزندقة ، وقف معى عند قوله تعالى : ﴿ **إلى يوم يلقونه** ﴾ إنها كلمة تنخلع لها القلوب ، وتنفطر من هولها الأفئدة ، وتنصدع لها الأكباد وتسيل لها النفس مرارة !!

إن المنافقين فى أى مجتمع سلبيون ، هدامون ، معاول هدم ، وليسوا عوامل بناء ، لقد كانوا فى مجالسهم يسخرون من ضعفاء المسلمين وفقرائهم !!

إن أحد الفقراء من أصحاب رسول الله عمل أجيرا ، وجاء آخر النهار بحفنة من الشعير إلى رسول الله على سبيل التبرع لجيش العسرة ، جاء بها والمنافقون جالسون فأخذوا يلمزون ، ويطعنون ، ويستهزئون ، فأنزل الله فى ذلك قرآناً قال جل شأنه : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم . استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾

إنهم المعوقون المثبطون المرجفون المروجون للشائعات ﴿ **فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون** ﴾ إنهم لا أمان لهم ولا عهد عندهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ﴿ **فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ .

ثم ينهى الله نبيه عن الصلاة عليهم بعد موتهم أو القيام على قبورهم ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** ﴾ إنهم مهما أوتوا من الأموال والأولاد فإنما ذلك وبال عليهم ﴿ **ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ إنهم المتآمرون على الأمة المحرضون عليها هم الذين يقولون : ﴿ **لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا** ﴾ ألا يعلم هؤلاء أن الله جل شأنه يقول : ﴿ **ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون** ﴾ إنهم الطاعنون فى أصحاب الهمم العوالى ، والقمم السامقة ، يقولون : ﴿ لئن

رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ أثم يعلم هؤلاء أن الله جل شأنه يقول : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ .

الإيمان قــوة والنفــاق ضعــف

تلك حقيقة لا يختلف عليها إلا من اختلت موازين الأمور عنده فالمؤمن لا يعرف النفاق ؛ لأنه قوى بالله متوكل عليه معتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ من هنا نعلم : أن ما قدر على فكيك أن تمضغه فلابد أن تمضغه فامضغه بعزة ، أما النفاق فإنه ضد الإيمان لا يجتمع معه فى قلب مؤمن ؛ لأن النفاق شجرة خبيثة . اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

ومن هنا فقد سجل القرآن الكريم للمؤمنين خمس صفات جمعت فى قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وبعد هذه الصفات الخمس يأتى الحكم من الحكم العدل فى قوله تبارك اسمه : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ .

وكما سجل القرآن للمؤمنين تلك الصفات وحكمه لهم بهذا الحكم سجلت السنة المطهرة للمنافقين خمس خصال فالمنافق : « إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

من هنا فقد حكم الله على المنافقين بقوله : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾ .

وبين قوة الإيمان وضعف النفاق نقف بين أبى بكر الصديق وثعلبة بن حاطب فها هو ذا الصديق رضى الله عنه يأتى بماله كله إلى رسول الله ﷺ فيسأله الرسول الكريم : « ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر ؟ » وبلسان اليقين ومنطق حق اليقين يجيب على جناح السرعة : « تركتُ لهم الله ورسوله !!

أما ثعلبة فتطلب منه الزكاة المفروضة فيأبى ويبخل فما السر فى هذين الموقفين ؟!

إن أبا بكر ملك الدنيا فى يده ، ولكنه لم يسمح لها أن تتسرب إلى قلبه فهانت عليه ، فردها بيسر وسهولة !! أما ثعلبة فلم يملكها بقلبه فتربعت على سويدائه فوجدت قلبا خاليا

فتمكنت منه فضل تمكن فصار عسيراً عليه أن يخرجها من قلبه وهذا هو الفرق بين الموقفين !!

ذات ليلــــة

بينما نحن نيام فى سجن أبى زعبل وفى ليلة من الليالى الحزينة قبيل النكسة والجو متوتر إذا بنا نقوم من نومنا فزعين وكل منا يشعر بألم فى إصبعه كأن دبوسا وخزه وخزا شديداً ، فلما استيقظنا علمنا أن أحد الأطباء المعتقلين ، أراد أن يجامل السلطة فقدم لها نفاقا رخيصا ، أخذ الدم من أصابعنا ونحن مصابون بفقر الدم ، أخذه منا ونحن نيام : لماذا ؟ ليكتب وثيقة بالدم للقيادة يقول فيها : نعاهدكم على الوقوف خلفكم ، أبشروا بالنصر وكم كان أسفى شديداً وأنا أرى النفاق يطفح بموقف هذا الذى ظن أنه بذلك الموقف المخزى سيعجل بالإفراج عنه ، ونسى أو تناسى أن كل شىء بقضاء ، ولكن لم أجد ما أعلق به أبلغ من قول رسول الله ﷺ : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

سيــــف الحيـــاء

لما أوشكت الحرب أن تقع بيننا وبين إسرائيل فى يونيو سنة ٦٧ أذاعت القيادة علينا فى معتقل وأعنى بها « الإذاعة الحية فى السجن » أذاعت أن من أراد أن يتطوع بالمال للقوات المسلحة فباب التطوع مفتوح ، وظن الناس الذى يقبعون وراء القضبان ظنوا أنه بقدر ما يكون مقدار التطوع بقدر ما يقترب يوم الإفراج ، فتقدم الأغنياء بمبالغ هائلة ، متطوعين عسى أن يكون ذلك سببا فى كسر ذلك الحاجز الحديدى والكل يعلم أن النفوس قد غارت وتعمقت جرحها بسبب الظلم ، وقد بلغت القلوب الحناجر ، وغلت مراجل الغيظ ، وأن ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام ، ولا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه ، والذى أحزننى كثيرا أنه كان بجوارى أخ كريم كان يعمل بالبناء وكان يعول أسرة تتكون من زوجة وسبعة أبناء اضطروا أن يبيعوا أدوات العمل ليحصلوا على لقمة العيش بعد اعتقال عائلهم فلما طلب منا أن نتبرع لما سموه بالمجهود الحربى ، سألنى ذلك الأخ عن رأيى : هل يتبرع وهو لا يملك فى الأمانات سوى خمسة وعشرين قرشا ، أبقى عليها ليشرب منه قدحاً من شاى بعد تناول طعام السجن الذى يغلى فى البطون كغلى الحميم ؟ فقلت له يا عم حسن إن رأيى أن تكتب اسمك فى سجل المتبرعين ولو بخمسة قروش حتى لا يوضع اسمك فى القائمة سوداء ويقال عنك من الأكاذيب والأباطيل ما أنت عنه فى غنى ؛ فقد يقال : إنك من الثورة المضادة أو من النشاط المعادى ، أو من أعداء النظام ، أو من الحاقدين على الزعيم الملهم

أو غير ذلك ، من العبارات التى كانوا يتشدقون بها ضد الأبرياء الأتقياء الأنقياء الأطهار الأبرار الأخيار !!

ولما مر علينا المسئول عن كتابة الأسماء والمبالغ المتبرع بها تقدم الأخ حسن بتبرع مقداره خمسة قروش فرأيته وسمعته بعد أن دفعها ، وكأنه تذكر أولاده فاشتدت عليه وطأة الظلم ، سمعته وقد توجه إلى القبلة وأخذ يبنه بقلب صديع ويدعو الله قائلا : اللهم اجعل ما دفعته حارا ونارا وغضبا من غضب الجبار على كل من تسبب وتوعد فى هذا المكان وقطع صلتنا بأولادنا . وشعرت كأن الأرض زلزلت زلزالها فإنها دعوة مصدوم ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب يرفعها الله تعالى فوق الغمام فتفتح لها أبواب السماء ويستقبلها الرب عز وجل . ويقول لصاحبها وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

موقـــف نبيـــــل

كان من بيننا رجال شاركوا فى حرب اليهود فى سنة ١٩٤٨ وكان على رأسهم قائد المجاهدين الأخ « محمود عبده » والذى عرف عنه أنه كان يعلم كل ذرة من رمال فلسطين أراد هؤلاء الرجال أن يعذروا إلى الله فكتبوا مذكرة إلى الزعيم الأوحد يعاهدون الله فيها على الصدق فى قتال اليهود على أن يعودوا بعد انتهاء المعركة - إن قدر لهم ذلك - إلى السجن مرة أخرى فإن نالوا الشهادة فذلك الفضل من الله ولما عرضت المذكرة على المسئولين قوبلت بالرفض وقال الزعيم يومها : إن الهزيمة على أيدى اليهود خير من النصر على أيدى هؤلاء !! وهكذا ركبه الغرور وعشش الشيطان فى رأسه (فبئس مثوى المتكبرين) .

لقد فاضت العيون من الدمع لما قوبل طلب هؤلاء بالرفض ؛ لأنهم كانوا يرددون : « الجهاد سبيلنا والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا » ولكنهم أعذروا إلى الله وألزموه الحجة أمام من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور وهكذا كانت الأيام تمر . والأحداث تتلاحق ، والزعيم يخطب ويقول : (أنا مش خرع مثل إيدن) و حرب أولها كلام ، والجمعان يكادان يصطدمان على الحدود ، والمعتقلات والسجون قد ملئت بالمظلومين ، والظلم طافح ، ملأ طباق الأرض ، حتى كاد يخيل إلى أن الظلم لو انقسم إلى مائة جزء لكان تسعة وتسعون جزءاً منه فى مصر ، والجزء الباقى يطوف بالدنيا ، ثم يبيت ليله فى مصر . لقد تمزقت وشائج المجتمع ، وانفصلت عراه ، وتقطعت أرحامه ، وأصبح الابن جاسوساً على أبيه ، والأخ عدوا لأخيه ،

والظلمات بعضها فوق بعض ، وأخرست الألسنة ، ومات الناصحون ، وانتشر المنافقون ، والغشاشون ، وضيعت الأمانة ، ووسد الأمر إلى غير أهله .

دعـــوة غريبـــة !

فى صبيحة يوم من أيام مايو ، وقبل وقوع النكسة بأيام قلائل ، استيقظنا ذات يوم على بكاء أخ كنا نعرف فيه الشجاعة والرجولة والشهامة والتقى والصبر ، كان يبكى وينتحب وقد جرت على لسانه دعوة يقول فيها : (اللهم خبطهم) وسألناه ما يبكيه وعلمنا أنه قد وصله نبأ وفاة ابنه ، والرجل كان يود أن يكون حاضراً موته ، وتشييع جنازته ، لكنه حيل بينه وبين ذلك ، وأخذت شفتاه ترسلان لهبا للمرجل الذى يغلى ، إنه وراء الأسوار المنيعة العالية الحصينة أيحرم من تشييع جنازة ابنه ؟! أبلغ الظلم بالعباد إلى هذ الحد ؟! إن هذا الأخ المبتلى كان قد حضر المحنة التى وقعت بالمسلمين عام ١٩٥٤ ودخل السجن الحربى وقص على طرفاً مما لقيه من العذاب فى تلك المحنة .

أصيبت أذنه بالتهاب حاد فالتمس العرض على الطبيب فقال له طبيب السجن الحربى فى ذلك الوقت ، قال له فى غلظة وفظاظة وقلب قد من حديد بل يتأذى الحديد إذا وصف القلب به ، نهره الطبيب قائلا : مم تشكو ؟

قال : أذنى كأن فيها جمرة من نار !!

قال له : أى أذنيك ؟

قال له : اليمنى .

وظن الأخ الفاضل أن الطبيب وهو رسول الرحمة ومنقذ الشاكى ، وملجأ الملهوف ظن أنه سيوقع عليها كشفا ، فيشخص الداء ويصف الدواء .

لكن الأمر كان بخلاف ذلك تماماً لقد رفع الطبيب يده وصفعه على أذنه المصابة صفعة جعلت عينيه ترميان بشرر كالقصر فأغمى عليه إغماءة لم يفق بعدها إلا وهو منفى فى أرض الزنزانة .

أهذا هو الإنسان الذى كرمه الله فى كتابه فقال : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ ؟! .

أهذا هو المواطن الذى كان الزعيم الملهم ابن مصر الذى ولد فى بنى مر كان يخاطبه ويقول له : ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد ؟!

ولسان الحال والمقال يقول :

ارفع رأسك يا أخى لأقطعها

أهذا هو الإنسان الذى أسجد الله الملائكة لأبيه إذ يقول :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون ؟ ﴾ .

أتلك هى الحرية التى منحها الله الإنسان وقال عنها الفاروق عمر : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟!) .

أتلك هى مسئولية الراعى عن رعيته والتى قال عنها الفارق : (لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى الله عنها لم لَمْ تصلح لها الطريق يا عمر ؟!) .

أتلك هى الإنسانية التى أعطاها الله من الحقوق ما يحفظ عليها كرامتها وعزتها والتى أدخل الله من أجل تلك الحقوق ؛ أدخل امرأة النار فى هرة حبستها لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ، ولكن ماذا تقول لقوم لا يسمعون وإذا سمعوا لا يستجيبون ؟!

أصحاب قلوب لا يفقهون بها

وآذان لا يسمعون بها

﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ .. ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ .

اقتربت الساعة

مرت الأيام والموقف بيننا وبين إسرائيل يحتدم ويزداد سوءاً على سوء وأحيت أم كلثوم حفلا ساهراً قبل وقوع الواقعة وقالت : ستكون حفلتنا القادمة فى تل إبيب ورد عليها وزير الحرب الإسرائيلى قائلا : أتحداك لو استطعت أن تقيمى حفلك القادم فى القاهرة بعد المأساة !!

ويا للخزى !!

لقد مرت إحدى السفن الأمريكية قبيل النكسة بأيام مرت بقناة السويس وكانت سفينة حربية ضخمة سميت بجزيرة الحب ونشرت الصحف يومها صورة امرأة من منطقة

القناة ترفع حذاءها عاليا بيدها تشير إلى بحارة السفينة كأنها تهددهم بسلاح قوى لا يبقى ولا يذر وعلمنا أن المسألة هزل لا جد فيها وأن البلد قادم على مأساة لا يعلم مداها إلا الله !!

لقد ظن القادة السياسيون أن تعبئة الجيش لا تعدو إلا أن تكون تهديداً تعقبها الأناشيد الحماسية الكاذبة ، وسموا هذا الموقف سياسة « حافة الهاوية » وبعد ذلك يرقص الراقصون على أوهام نصر خادع فقد هددنا إسرائيل وحشدنا لها الحشود ثم انتصرنا بتخويفها وتهديدها بالخطب الحماسية الرنانة ، ونسى هؤلاء أو تناسوا أن الحرب أولها كلام وأوسطها حديد ونار وآخرها إما إلى صداحة تطرب الورى ، وإما إلى نواحة فى المآتم .

يوم النكسة

استيقظنا صبيحة الخامس من يونيو كالمعتاد فصلينا الفجر فى وقته ، وجلسنا كالعادة نقرأ ورد الصباح إلى أن أشرقت الأرض بنور ربها واستعددنا لصلاة الضحى مصداقا لقول الصادق المعصوم : « **من صلى الفجر فى جماعة ، ثم جلس فى مصلاه يذكر الله حتى طلعت الشمس فقام وصلى الضحى كتب الله له ثواب حجة وعمرة تامتين تامتين** » .

لكننا بعد طلوع الشمس سمعنا أزيز الطائرات يدوى فى سماء مصر فى سرعة لم يسبق لها مثيل ولما انتصف النهار لم نكن ندرى ماذا حدث لقد أمر قائد السجن بمنع الإذاعة أن تذيع علينا أى أخبار ، كما أمر بمنع الصحف ؛ حتى لا نعلم بما وقع وما حدث من هزيمة منكرة حتى لا نشمت !!

ولما غربت شمس هذا اليوم أذاع علينا بيانا من تأليفه وتلحينه : بأن الجيش قد انتصر ، وكان يردد فى ذلك ما كان يذيعه مدير إذاعة صوت العرب بصوته الجهورى ، والذى أعلن فى إحدى كلماته وبياناته الحربية بأننا قد أسقطنا للعدو مائتين وخمسين طائرة ، وكان ذلك كذبا مفضوحا إذ لو كانت الطائرات ذبابا ما استطعنا أن نسقط منها هذا العدد !!

لقد كانوا يذيعون على الشعب أن الطريق إلى فلسطين ، ما هو إلا نزهة خلوية فى ليلة صيف مقمرة حتى كانوا يقولون فى إذاعتهم هذه العبارة الممجوجة : (ألح إسرائيل وقعت فى الفخ) .

ولما أمر الجيش بالانسحاب بطريق تدعو إلى الأسى وإلى الألم أذاع قائد السجن علينا بيانا قال فيه : إن الجيش لم ينسحب إلا لخطة عسكرية سيجعل فيها للعدو كمينا يكون مقبرة له . وكانوا يقولون لنا هذا الكلام كأننا العدو الذى يجب أن يخدروه ، وكأن الحقيقة ستظل

فى خفاء ، ونسى هؤلاء أو تناسوا أنه لابد أن تتضح الحقائق ، وأن الليل لابد أن ينجلى ، مهما طالت ظلمته ، وأن حرارة الشمس ستذيب ثلوج الباطل ، وأن الحق أبلج ، والباطل لجلج ، وجاءت الحقائق تترى فقد ضُربت طائراتنا وهى رابضة فى حظائرها ، كالبط على وجه الماء ، وانتهت الجبهة المصرية ، كما قال قائد الحرب الإسرائيلى يومها :

« لقد ضربت الجبهة المصرية فإذا هى هشة عندما اصطدمنا بها ، وكأنه صدام بين مطارق الحديد ، وأوانى الفخار » ، هكذا قال موشى ديان ، كما قال أيضا : بينما كنت أتدرب على حرب الأدغال فى فيتنام كان المشير ورجاله فى مصر مشغولين بحل مشاكل النوادى الرياضية ، يقضون ليلهم ونهارهم مشغولين بالكرة ، وإن تعجب فعجب ما قاله قائد سلاح الجو الإسرائيلى : مردخاى هود قال : إن ما حدث فى مصر يفوق أكثر أحلامى جنونا لقد سقطت الجولان ، والضفة الغربية ، ومدينة القدس ، كما ضاعت غزة .

ومع ذلك فلقد ظللنا فى السجون نقاسى ما نقاسى على أيدى القادة المنهزمين الذين أرسلوا بالجيش ، وقالوا له انسحب فانسحب !!

لقد كان كل شيء قبل الحرب يُنذر بالهزيمة وعلى رأس هذه الأشياء الظلم الاجتماعى ولكنهم لا يقرءون وإذا قرءوا لا يفهمون وإذا فهموا سرعان ما ينسون ولا يتذكرون .

فى عام ١٩٥٤ كانت السجون قد ملئت برجال مسلمين ونساء مسلمات فوقعت الهزيمة فى عام ١٩٥٦ على أيدى ثلاث دول : انجلترا وفرنسا وإسرائيل ذلك بعد ظلم ، وقتل ، وتشريد وتجويع . لقد علقت رءوس الشهداء فى المشانق وعلى رأسهم شهيد الإسلام العظيم « عبد القادر عودة » الذى كتب فى الإسلام كتابه الشهير (التشريع الجنائى فى الإسلام) وهو موسوعة علمية يستعين بها الذين يريدون أن يطبقوا شرع الله ومنهم سلطان العلماء الشيخ « محمد فرغلى » الذى حار فيه الانجليز على ضفاف القناة حتى أنهم جعلوا مكافأة عظمى لمن يأتى به حيا أو ميتا فقدم الزعيم الخالد رأسه مجانا وهكذا نسوا أن فى السماء مملكة كتب على بابها : ﴿ **ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون** ﴾ .

لقد تناسوا قول رسول الله ﷺ : « **إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته** » اقرءوا إن شئتم :

﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ .

إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما جهز جيش المتوجه بإذن الله إلى بلاد فارس والتى كان على رأسه سعد بن أبى وقاص خال رسول الله ﷺ وهو قائد موقعة القادسية ماذا قال عمر وهو يودع الجيش ؟ قال يا سعد :

« أوصيني وإياك بتقوى الله ولا يغرنك أن قيل خال رسول الله ﷺ فإن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه أو حسبه ، إننى لا أخشى على الجيش من أعدائه ، إنما أخشى عليه من ذنوبه ، فإننا إذا عصينا الله تساوينا مع عدونا فى المعصية ، وزاد علينا فى العدد والعُدد » .

كان عمر ينظر من وراء الحجب ويستشف الغيوب ، ليلقننا هذا الدرس الذى لبثنا وعيناه . إنه ينطلق من قاعدة تقول : إن النصر للأتقى ، فإن لم يكن هناك أتقى ، كان النصر للأقوى ، ونحن يوم النكسة ما كنا أتقياء ، ولا أقوياء بل كان الظلم يخيم على كل بيت ، فوقع ما وقع من العدوان الثلاثى ، الذى سمح لإسرائيل بالمرور فى خليج العقبة ، والذى أدى بعد ذلك إلى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ عندما أردنا أن نسترد حقنا ، ونمنع إسرائيل من المرور فى الخليج ، فليتنا نعى دروس التاريخ فالتاريخ أستاذ لمدرسة الدهر ، يعمل فى هذه المدرسة بواسطة الأيام والليالى ولكننا لم نتعظ، ولم نعتبر بل عادت الأمور أسوأ مما كانت، ملئت السجون والمعتقلات فى ١٩٦٥ ، وبعد ذلك نصبت المشانق ففى التاسع والعشرين من أغسطس ١٩٦٦- كان رأس الشهيد « سيد قطب » معلقا فى حبال المشنقة ليقدم هدية خالصة إلى موسكو فكانت النكسة فى عام ١٩٦٧ عقب هزيمة منكرة وقعت على جبال اليمن ضاع فيها من الأموال أربعة مليارات من الدولارات!!! هذا هو المال، والمليار ألف مليون وفى مصر أربعة آلاف قرية لو أن كل قرية خُصصت بمليون لأصلح الله حالها أما عن القتلى والجرحى فحدث ولا حرج وأنشد المطربون ، ورقص الراقصون وسموا تلك الحرب الشعواء رحلة نصر جميلة .

أبعد هذا الضلال ضلال ؟ ولكن إذا عُرف السبب بطل العجب !

إن القيادة السياسية تملك من تزييف الحقائق ما تستطيع به أن تحول الهزائم المنكرة إلى نصر مبين .

لقد كانت النكسة أمرا منطقيا بعدما حدث فى اليمن . إن العدو غادر ولئيم إنها القوى العالمية تخطط ولا تنام ونحن فى غفلة معرضون وعن الله بعيدون وهو سبحانه يخاطبنا قائلا : « فأين تذهبون ؟ » تنبيها عما نحن فيه من الضلال سائرون إن ذهبتم إلى موسكو فإنهم أعداء الله . وإن توجهتم إلى واشنطن فإنهم أعداء الله فالصلاة لا تصح إلى هناك ، ولا إلى هنالك ، إنما تصح بالتوجه إلى بيت الله .

لقد جربتم الشرق الملحد فلم تفلحوا وجربتم الغرب المنحل فخسرتم خسرانا مبينا فجربوا صراط الله مرة إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم إن الظلم لا يدوم وإذا دام دمر ولقد علمنا رسولنا الكريم هذا الدرس كان إذا أراد أن يغزو غزوة قال لأصحابه : ابغونى فى ضعفائكم أى أحضروهم فيسألهم الدعاء بالنصر ويقول كلمته التى تفيض نوراً وبهاءً وجلالا ووفاءً : « **إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم** »

كان هناك سجون ومعتقلات فى ١٩٥٤ فكانت هناك هزيمة فى ١٩٥٦ وكان هناك سجون ومعتقلات فى ١٩٦٥ فكانت هناك هزيمة سموها نكسة وهى وكسة ونكسة وعار وشنار فى سنة ١٩٦٧ وما زالت دعوة هذا الأخ الكريم ترن فى أذنى عندما بلغه نبأ وفاة ابنه فأخذ يدعو الله قائلا : (اللهم خبطهم) .

لقد صعدت هذه الدعوة من قلب مكلوم جريح ، ونفس ملتاعة مظلومة .

فرفعت فوق الغمام وفتحت لها أبواب السماء ، وقال لها رافع السماء بلا عمد لأنصرن صاحبك .

فكانت الواقعة وما أدراك ما الواقعة كانت فى يونيو سنة ١٩٦٧ خافضة غير رافعة بست الجبال بسا فكانت هباء منبثا ورجت الأرض رجا فضربت الطائرات فى حظائرها وقذفت أطنان القنابل ﴿ **ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد** ﴾ .

مع البهائيين فى أبى زعبل

فى أثناء الحرب التى سموها كما يزعمون حرب الأيام الستة وهى فى الحقيقة حرب التسع عشرة دقيقة التى تم فيها ضرب الطيران فانتهت بذلك الحرب الخاطفة أثناء تلك الأيام تم اعتقال ما يقرب من ثلاثين شخصا يدينون بالبهائية .

ولقد كانت فرصة سانحة أن نلتقى بهم ونحاورهم ونبين زيفهم وضلالهم فكونا فريقا من الإسلاميين كنت واحداً من أعضائه وكان معنا لفيف من الشخصيات الممتازة أمثال الدكتور ، عبد الله رشوان ، المحامى والأستاذ ، محمود شاكر ، الباحث الإسلامى والأستاذ ، محمد رشاد المنيسى ، وغيرهم كما قام البهائيون بتكوين فريق منهم فكنا نلتقى بعد صلاة العشاء من كل يوم ، فيستمر الحوار بيننا إلى قبيل الفجر . وكنا نرى فى ذلك متعة عقلية ورياضة فكرية ، والبهائية تضم أشكالا من المعتقدات والملل ففيها من ينتمى إلى الإسلام اسماً ، ومنها من ينتمى إلى النصرانية واليهودية ، ولعل اعتقالهم فى أثناء الحرب مع إسرائيل يعطى إشارة قوية لصلتهم بإسرائيل وقد دار الحوار فى العقيدة والشريعة والشعيرة وسألنا السؤال الأول لمن ينتمون إلى الإسلام اسما : هل أنتم مسلمون ؟

قالوا : نعم .

قلنا : فما الدين الذى جاء به البهاء ؟

قالوا : الإسلام .

قلنا : إن كان هو الإسلام فكيف يأتى بدين بعدما قال تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ فكيف يأتى بإسلام بعدما أكمل الله الدين وأتم النعمة ؟!

وإذا لم يكن قد جاء بالإسلام فلا شىء بعد الإسلام إلا الكفر ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ .

ثم سألنا : بما تقولون فى البهاء أنبى هو ؟ قالوا : نعم ؟ قلنا : لا نبوة بلا وحى فهل نزل عليه وحى وكيف نزل عليه ؟ وما حقيقة الوحى ؟ فكان جوابهم السكوت .

قلنا : وكيف يكون نبيا والله تعالى قد ختم الرسالة بسيد المرسلين محمد قال تعالى : ﴿ **ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ .

قالوا : إن محمداً ختم النبيين ولم يختم الرسل وغيروا رأيهم فى البهاء فقالوا إنه رسول لا نبى ، فإذا كان محمدٌ ختم النبيين فلم يختم المرسلين .

قلنا لهم : أيهما أعم ؟ وأيهما أخص ؟ النبوة أم الرسالة ؟ وعرفوا النبوة والرسالة فكان الجواب بالجهل وعندئذ ذكرنا لهم القاعدة الأصيلة فى العقائد : بأنه لا نبوة بلا وحى ، ولا رسالة بلا نبوة وحيث ثبت أنه لم يوح إليه ، فإنه ليس نبيا وحيث انتفت نبوته فقد انتفت رسالته ، إذ لا رسالة بلا نبوة ، فالنبوة أعم من الرسالة ، فيكون من بدائه الأمور أن من ختم الأعم ختم الأخص فالأنبياء مائة وخمسة وعشرون ألفا ، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولا فمن ختم الأكثر ختم الأقل لاندراجه فيه .

ولقد تبين لنا من النقاش بعد ذلك أنهم لا يكتفون بأنه رسول ، بل يذهبون فى النهاية إلى ألوهيته . ولكى نأتى بالصورة واضحة جلية فإننا نذكر تفصيلا جليا لهذا الدين الذى صنعه الاستعمار وجعل الجهاد باطلا وجعل السلام استسلاما فليكن القارىء على ذكر من هذا فقد تعددت اللقاءات حتى أجهزنا عليهم فكريا ومع ذلك فإن أهل الجدال قد يقتنعون حسيا وعقليا ولكنهم يكابرون ظاهريا ويستكبرون عن قبول الحق ومهما يكن من أمر فقد ظهر الحق وبرح الخفاء ولزمتهم الحجة فى ساحة الحساب يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون .

ولقد كان القرآن الكريم يستشف الغيوب وهو يحدثنا عن هؤلاء الذين ادعوا النبوة أو الرسالة بعد رسول الله ﷺ فيقول : -

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » .

حقيقـــة البهائيـــة

س ١ : ما هو إيمان البهائية ؟

ج ١ : يؤمنون بالله وكتبه ورسله والقيامة والباب والبهاء ، الإيمان بالله هو رأس الإيمان عندهم ولكنه غير إيمان المسلمين .

فالمسلمون يقولون : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . اتصف بصفات لا يمكن لمخلوق أن يتصف بها ، لأنه ليس كمثله شيء . وإن كل ما في الوجود قائم به ومفتقر إليه .

أما البهائية فيقولون : إن الله حي قادر قيوم ، ليس كمثله شيء إلا أنه ليس له وجود مطلق بأسمائه وصفاته التي وصف بها نفسه على ألسنة أنبيائه ولا سيما في القرآن . وإنما وجوده مفتقر إلى مظاهر أمره . وهم الأنبياء والرسل يظهر فيهم ويتجلى لعباده فيهم كما تتجلى الشمس في المرآة الصافية وحينئذ يكون هذا النبي أو الرسول قد امحى وجوده لمن تجلى فيه كما تمحى تلك المرآة الصافية ويكون هو لله فإذا خاطبته فإنما تخاطب الله . وإذا كلمتك كان المتكلم هو الله . ويقولون أيضا : إن الله مفتقر إلى خلقه كافتقار الملك إلى رعيته فكما أنه لا ملك بلا رعية كذلك لا خالق بلا مخلوق ، ولا رازق بلا مرزوق لهذا فاعتقادهم أن الكون أزلي أبدي كأزلية الله وأبديته .

ويزعمون أن كل الأنبياء والرسل الذين جاءوا إنما جاءوا ليبشروا بالمظهر الأبهى الذي سمى نفسه فيما بعد « بهاء الله » والذي هو على زعمهم موعود كل الأزمنة ، وكل الأديان التي جاء بها الأنبياء إنما جاءت تمهيداً لدينه وكلها ناقصة لا يكملها إلا هذا الدين الذي هو دين البهاء .

س ٢ : هل تؤمن البهائية بالبعث ؟

ج ٢ : تؤمن البهائية بالقيامة لكن إيمانا ليس كإيماننا إذ أن عقيدتهم فيها تخالف كل الأديان السماوية فهم يقولون : إن الإنسان إذا مات قامت قيامته ، فهو بعد الموت إلى نعيم مقيم أو إلى عذاب أليم وإن الأجساد هذه تعود إلى الأرض كما بدأت منها ، وتفنى فيها وما العذاب والنعيم إلا على الأرواح ، لأنها المسيرة لهذه الأجسام ويستدلون على ذلك بآيات وأحاديث إسلامية يؤولونها كما يشاءون من ذلك قوله تعالى :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله » .

ويقولون : إن الله يخلق لهذه الأرواح أجساداً لائقة بالنعيم أو بالعذاب وأن العذاب ينتهى ويسمون هذه القيامة (الموت فما بعده) القيامة الصغرى .

وهناك قيامة كبرى وهى البعث أو الساعة أو الحشر ، وهى انتهاء أمر رسول وأمته ، وبعث رسول جديد وكل قيامة أنبأ بها الأنبياء هى عندهم تعنى بعث البهاء كذلك يؤمنون بما يسمونه الباب وما يسمونه البهاء ، وإليكم بيانا عنهما :

من هو الباب ؟

ولد فى شيراز فى ١ محرم سنة ١٢٣٥ هـ الموافق ٢٠ أكتوبر سنة ١٨١٩ مولود للسيد محمد رضا بزاز فى شيراز أسماه بعد ولادته على محمد ويقولون : إنه يتصل نسبه بالحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وهذا ما عليه كتبهم .

وقال غيرهم مات أبوه وهو طفل لم يفطم، فكفله خاله وكان تاجرا ضعيف الحال اسمه ميرزا سيد على وفى السنة الخامسة أدخله خاله الكتاب فتعلم ما يتعلمه أبناء الفقراء فى كتاتيب إيران ولكنه برز فى الخط حتى كان نادرة زمانه جودة وسرعة فى الكتابة وتنسيقها وقبل أن يبلغ الحلم ترك المدرسة لاحتياج خاله إليه ولما بلغ السابعة عشر من عمره استقل بعمله عن خاله ، وأقام فى أبى شهر تاجراً خمس سنين ، ثم رجع إلى شيراز وانقطع للعبادة ، على الطريقة الصوفية ثم رجع إلى أبى شهر ، وزعم أنه يستطيع تسخير روحانيات الكواكب ، وكان يقضى معظم نهاره فوق سطح منزله ، حاسر الرأس تاليا الأوراد منهمكا فى تلاوة الأذكار تحت الشمس فى أبى شهر المحرقة فاعتراه بسبب ذلك ذهول حصر قواه ، فأرسله خاله إلى كربلاء مستشفيا بزيارة المقامات الشريفة هناك وفيها اجتمع بالسيد كاظم الرشتى خليفة الشيخ أحمد الأحسائى زعيم الشيخية الذى مزج التصوف والفلسفة بالشريعة ، والذى قال : « إن الغائب المنتظر المسمى بالمهدى هو الآن من سكان عالم روحانى غير هذا العالم الجسمانى وأن جسمه كأجسام الملائكة نورانى » وقد قال الباب بقولة شيخه هذه ثم انقطع فجأة عن مجلس الشيخ واعتكف على العبادة ولازم الرياضة بالمسجد مدة . ثم ظهر للناس بمظهر جديد قال فيه : إنه : على المعنى بالحديث أنا مدينة العلم وعلى بابها وأن الوصول إلى الله لا يمكن إلا عن طريق نبى ، وأنه لا يمكن الدخول فى هذا الطريق إلا عن الباب وأنه هو الباب .

ثم ادعى أنه هو الباب للمهدى المنتظر وبعد مدة قليلة قال : إنه هو المهدى نفسه الذى بشر به الأنبياء ، وبشر به محمد ﷺ وفى ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٦٠ هـ الموافق مايو

١٨٤٤ قال : إن الله اختاره لمقام البابية ، ومعناه (كما زعم البهائيون) أنه جاء رسولا من عند الله مبشراً بظهور شخص محتجب خلف ستار الغيب الإلهى وهذا سيكون رسولا من الله إلى البشرية لينقذهم من الفتن والحروب ويدخلهم فى السلم كافة وهكذا قال البهائيون فى كتبهم عند ترجمة الباب .

أما البابيون أنفسهم فينكرون ذلك ويقولون : لم يأت الباب مبشرا برسول ، وإنما منع الرسالة بعده لمدة ألفى سنة عدد حروف (المستغاث) بالأبجدية .

قال فى البيان : « كل من ادعى أمرا قبل سنى المستغاث فهو مفتر كذاب اقتلوه حيث ثقفتموه » .

وفى أخريات أيام الباب ادعى الألوهية وسمى نفسه : الأعلى وبعضهم يقول عنه الرب الأعلى وسمى نفسه النقطة ويعنى بها النقطة التى تحت باء « باسم الله » لأن الباء : للاستعانة بالله ، ولا يمكن الاستعانة باسم الله إلا بواسطته ، أما البهائية ففسروها على حسب هواهم وجعلوه النقطة الفاصلة بين نهاية أمر محمد عليه الصلاة والسلام وظهور غيره وهو (البهاء) .

بعد أن أعلن الباب دعوته واقتنع بها اجتمع حوله ممن استجابوا له ثمانية عشر سماهم حروف أل « حى » لأن الحاء بالأبجدية : ثمانية والياء : عشرة ووزعهم على البلاد ومن هؤلاء المُلاّ حسين البشروئى الذى سماه باب الباب وهو أشدهم إخلاصاً فى الدعوة وقيل إنه المحرك لها وأنها من فعاله ومنهم الملا على البارفروشى الذى سموه القدوس ومنهم : الملاّ على البسطامى ثم تابعتهم بعد ذلك : زرين تاج بنت ملا صالح القزوينى البرقانى التى كانت تسمى هند وتكنى بأم سلمى تحالم ، ولجمالها سميت زرين تاج بمعنى التاج الذهبى وسماها الباب (قرة العين) وسماها بعد ذلك : الطاهرة وكان لها مواقف عظيمة فى نصْرة البابية حتى نفتها الحكومة الإيرانية إلى العراق وحبستها الحكومة التركية فى بيت الشهاب الألوسى فأقامت نحو شهرين ثم رجعت إلى إيران .

وهناك اشتدت دعوتها وقويت عصبيتها وصار لها جيش لجب يخشى بأسه ويرهب جانبه ، وأصبحت تعيث فى الأرض إلى أن قبضت عليها الحكومة بعد عدة مقاومات فقتلت ، ثم أحرقت وكان ذلك فى سنة ١٢٦٤ هـ وبقى الباب فى دعوته هذه سبع سنين اجتهد بها وأتباعه فى نشر مبدئهم وقاتلوا دونه ، وتمكنت السلطة منه ومن بعض أتباعه وتفنن أولياء الأمور فى حبسهم وضربهم وتعذيبهم وتقتيلهم ، ولاقى هو من الحجر والحبس ما لاقى إلى أن نفى إلى أذربيجان وفى اليوم الثامن والعشرين من شعبان سنة ١٢٦٦ هـ نفذ حكم الاعدام فى الباب فقتل رميا بالرصاص فى مدينة تبريز هو وأحد أتباعه وطرحت جثتاهما على حافة الخندق

وفى اليوم الثانى فقدت الجثتان فلم يرهما أحد قيل إن الكلاب أكلتهما وزعم البهائيون أن أتباع الباب سرقوا الجثة واخفوها زمنا طويلا داخل صندوق فى مصنع رجل ميلانى إلى أن آمنوا فنقلوها إلى حيفا بفلسطين ودفنوها فى سفح جبل الكرمل فى مدفن فخم هناك وقيل : إن الجثة المدفونة هى جثة مزعومة والله أعلم بالحقيقة .

ماذا قال الباب فى دعوته ؟

قال الباب : « لعمرى أول من سجد لى محمد ثم على ثم الذين هم شهداء من بعده ثم أبواب الهدى أولئك الذين سبقوا إلى أمر ربهم وأولئك هم الفائزون وأن أول ذلك الأمر أو يوم القيامة – يعنى قيامه دعوه – كل على الله يعرضون – يعنى يعرضون عليه – إن الذين عرضوا على وهم كانوا بالله وآياته مؤمنين فأولئك هم أصحاب الرضوان قد جزيناهم فى الكتاب بأحسن مما اكتسبت أيديهم وكذلك نجزى المخلصين ثم يقول فيه وإنا قد نزلنا من قبل أنه أنه لا إله إلا أنا إياى فاتقون لتوقنن إن لم يكن أولا قبلى ولا آخر بعدى ولا ظاهر غيرى ولا باطنا دونى ولا آية من عندى كذلك يمحص الله الذين كلهم أجمعين ولعمرى إن أمر الله فى حقى أعجب من أمر محمد رسول الله من قبل لو أنتم فيه تتفكرون ، قل إنه ربى فى العرب ثم من بعد أربعين سنة قد نزل الله عليه الآيات وجعله رسوله إلى العالمين ، قل إلى ربيت فى الأعجمين ونزل على من بعد ما قد قضى من عمرى خمس بعد عشرين سنة آياتى التى كل عنها يعجزون وقد جمعته الحكومة الإيرانية بعلماء الشيعة ومجتهديها فناقشوه ، وناظروه فلم يقنع واشتد عنادا ، وطغى ، ولما عابوا عليه عدم فصاحته قال : إن القرآن خالف فصاحة العرب وقال أيضا : إن الحروف والكلمات كانت قد عصت واقترفت خطيئة فى الزمن الأول وعوقبت على خطيئتها بأن قيدت فى سلاسل الإعراب وبما أن بعثتنا جاءت رحمة للعالمين فقد حصل العفو عن جميع المذنبين والمخطئين حتى الحروف والكلمات فاطلقت من قيدها تذهب إلى حيث شاءت من وجوه اللحن .

وقرر الباب وأنصاره فى مؤتمرهم الذى عقدوه فى صحراء بورشت سنة ١٢٦٤ هـ نسخ الديانة الإسلامية لأن للباب الخيار المطلق فى تغيير الأحكام وتبديلها لذا كان عليه أن يأتى بصلاة وصيام وحج وكان لقرة العين فى هذا المؤتمر الصوت الأعلى واللسان الأطول .

انتهى بحمد الله المجلد الرابع من كتابنا (قصة أيامى) ويليه المجلد الخامس بإذن الله تعالى .

عبد الحميد كشك

مخالفات الباب

وقد خالف الباب المسلمين فى الأذان ، وفى الصيام ، وفى الأعياد ، وفى المواريث ، وأباح خمسة أيام من كل سنة جعلها أيام حرية يفعل البابى فيها ما يشاء بلا قيد ولا شرط !!

وبعد الحديث عن الباب نتحدث عن البهاء فما اسمه ؟

اسمه ميرزا حسين على المازندرانى النورى وأبوه الميرزا عباس . ويسميه البهائيون ميرزا بوزرك ، ومعناه الميرزا الكبير ومعنى كلمة ميرزا أمير زاده بالتركية او ابن الأمير بالعربية ، وهى كلمة تركية الأصل يمنحها السلاطين الأتراك والفرس لمن يشرفونه .

وقد ولد البهاء بطهران يوم الثلاثاء ٢٠ محرم سنة ١٢٣٣ هـ الموافق ١٢ نوفمبر ١٨١٧م أى انه ولد قبل الباب بسنتين .

يقول البهائيون :

« إن الباب لما علم بقرب أجله وأنه سيعدم جمع مخطوطاته وخاتمه ومقلمته ومصحفه فى جعبة وأرسلها فى صحبه ملا باقر ليسلمها إلى الملا عبدالكريم القزوينى فى مدينة قم ، ولما وصلت الأمانة إلى الملا عبدالكريم قال : انه مأمور بايصالها إلى الميرزا حسين على المازندانى ، وبسبب ذلك انتزع الميرزا حسين على من كبار البابيين مقام الرئاسة عليهم وسمى نفسه بهاء الله » انتهى كلام البهائيين »

كيف يفسر البهائيون القرآن ؟

يعتمد البهائيون فى تفسير القرآن الكريم على التضليل واتباع المتشابه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله كما يعتمدون على تحريف الكلم عن مواضعه ، ومن يستمع إلى تفسيرهم يعلم علم اليقين أنهم أجهل الناس بلغة القرآن ؟ لأنهم لا يميزون بين الحقيقة والمجاز ؛ اذ أن من القواعد اللغوية الثابتة أن اللفظ يظل حقيقة لا يتحول عن ذلك إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة مع وجود قرينة مانعة من ارادة المعنى الأصلى فمثلا إذا قال الله تعالى **﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾**

فهل يراد بالظلمات هنا ظلمات الليل ؟

وهل يراد بالنور نور النهار ؟

إن الحقيقة هنا متعذرة ؛ إذ ما الفائدة من إخراج الناس من ظلمة الليل الى نور النهار وهذه سنة الله فى كونه ليست فى حاجة إلى إرسال رسول ، ﴿ **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله** ﴾ ثم ما وظيفة الكتاب الذى أنزله الله على رسوله بالنسبة إلى ظلمة الليل ونور النهار ؟ إن هذا المعنى متعذر ، وغير مراد لله إذن فنلجأ إلى المجاز ؛ حيث تعذر المعنى الأصلى .

وعندئذ يراد بالظلمة ظلمة الشرك والضلال والشبهات ، ويراد بالنور نور التوحيد الحق والصدق ، والمجاز كأن تقول أيضا : سمعت أسدًا يخطب الناس فليس المراد بالأسد هنا الحيوان المفترس فذلك معنى متعذر عندئذ يصار إلى المجاز فيراد بالأسد الذى يخطب الرجل الشجاع لوجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى وهكذا

أما البهائيون فقد استعملوا الحقيقة فى المجاز بغير قرينة مانعة ، فمثلا تجدهم يفسرون البعث بعد الموت بإحياء القلوب عن طريق الهداية .

ويفسرون قبور الموتى بأنها قبور الغفلة ومن ثم فقد أنكروا البعث بعد الموت وإليك بعض النماذج من تفسيرهم للقرآن الكريم :

﴿ **فقد ضلوا وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل** ﴾ ، فإن الله قد أنزل القرآن عربيا مبينا فلا يفسر بغير العربية وقواعدها المقررة .

نماذج من تفسيرهم

قولـه تعالى :

﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة** ﴾

يفسرها القوم :

بأنه متى انتهى دور رسولكم ببعث رسول غيره تنقسمون إلى فريقين – كما انقسمتم أمام رسولكم لما دعاكم – فريق استمع له وآمن بدعوته ؛ فاهتدى ، وفريق أعرض فحقت عليه الضلالة ، فشقى .

فهم يفسرون قول الله تعالى .

﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ ، ويتركون ما قبلها للمغالطة ، فهم والحال هذه يؤمنون ببعض الكتاب ، ويكفرون ببعض .

قولـه تعالى :

﴿ **وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون . ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون . ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ماشاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ .

فسـرها القـوم :

بأن ذلك إنذار بنهاية أجل أمة محمد وأنه لما سئل عن ذلك قال : « **إنما أنا بشر لا أعلم ولا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا وإنما لكل أمة أجل ونهاية** » .

وهنا تناقض فى قول الجماعة فإذا كان محمد هو الله كما يقولون – تعالى الله عن ذلك – فى زمنه فكيف لا يعلم متى النهاية ؟

وكيف يقول :

﴿ **لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون** ﴾

ولما قال كفار قريش : ﴿ **مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا** ﴾ .

قال له ربه : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد** ﴾ .

وإليك نموذج ظهر فيه ضلالهم جليا فى تحريف الحقائق والصيرورة إلى المجازات دون أن تكون هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ودون أن تكون هناك علاقة بين الحقيقة والمجاز فلا قرينة ولا علاقة .

قولـه تعالـى :

﴿ **إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت وإذا العشار عطلت وإذا الوحوش حشرت وإذا البحار سجرت وإذا النفوس زوجت وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت وإذا الصحف نشرت وإذا السماء كشطت** ﴾ .

فســـروها :

كورت الشمس : أى ذهبت شمس أحكام دين محمد . ويفسرون دائما السماء والشمس بالدين أو العلم وأبدلت باحكام وضعية ، وانتصر الحكم الوضعى على السماوى الشرعى .

وانكدرت النجوم : والنجوم هم العلماء أى ضعف أمر علماء أمة محمد وسيرت الجبال ذللت ، وعبدت فركبتها السيارة ، وخرقها القطار . ولم يبق طريق صعب بها .

وعطلت العشار وهى : الإبل واستبدلت بالمراكب النارية والكهربائية .

وحشرت الوحوش : بحدائق الحيوان وعرف الإنسان ما كان يجهل منها .

وزوجت النفوس : الحيوانية والنباتية ، وظهر منها حيوانات ونباتات ذات مميزات وصفات لم تعرف من قبل .

وسجرت البحار : بما سار فيها من مراكب نارية ، أو بما يفجر فيها من قنابل وطرابيد . ونشرت الصحف ، ويعنون بها الجرائد والمجلات .

وكشطت السماء : وعرف أن ليس هناك جرم صلب ، وبما هو لا نهاية أو أن سماء العلم المحمدى كشطت . وهكذا حرفوا الكلم عن مواضعه وأولوه بغير ما أنزلت لأجله .

فأنت ترى أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه بل حرفوه من بعد مواضعه واستعملوا المجاز فى الحقيقة دون أى علاقة بينهما ودون قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى وهذا هو أسلوب الذين قال الله فيهم :

﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ .

والآيات التى فسروها من الشمس والنجوم وغير ذلك لا تمت إلى ما قالوه بأدنى سبب ؛ لأنها وردت فى شأن القيامة . وإلا فماذا يقولون فى الآيات التى ختم الله بها هذا المشهد **﴿ وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت ﴾ .**

سبحانك ربى هذا بهتان عظيم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

نمــوذج آخــر

ســورة الجاثيــة :

﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ .

ومما هو معلوم لديهم ان لفظ الساعة فى القرآن الكريم يراد به البهاء عندهم فاعجب معى ، ما الصلة بين الساعة التى يراد بها القيامة ، والتى قال الله فيها :

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ .

وقال الله فيها : **﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ﴾**

فأى علاقة بين تلك الساعات وبين بهائهم ؟!! سبحانك هذا بهتان عظيم!!! قالوا فى تفسير هذه الآيات (أى) البهائيون : إذا قام البهاء خسر المبطلون الذين أعرضوا عنه ، وحكم بين البهاء وكل أمة كتابها المرسل به رسولها ، وقيل لهم هذا كتابنا الذى بعثناه مع رسولكم ينطق عليكم بصدق دعوى البهاء .

فماذا يقول البهائى فى قوله تعالى : **﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ .**

اعرض عنها لانها لا تفيده ولا يستطيع لها تأويلا ، ولأنهم درجوا على الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر ، فما وافق تأويله هواهم جاءوا به ، وما كان صريحًا تركوه .

قال أحدهم لأحد علماء المسلمين :

نحن نعظم محمدًا أكثر منكم . قلت كيف ؟ قال : لو أن محمدًا قال لى يا فلان ، لقلت لبيك اللهم لبيك قلت : أستغفر الله من ذلك .

قال : لأنه ينطق بلسان الله ولا ينطق عن الهوى ، فيده يد الله ولسانه لسان الله ، وأمره أمر الله ، ووجهه وجه الله ، فقمت وأنا أستغفر الله من ذلك وأقول اللهم ثبت قلبى على دينك ... وصدق الله العظيم إذ يقول : **﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾** وصدق رسوله الكريم إذ يقول : **« لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم فإنما أنا عبدالله ورسوله ، فقولوا عبدالله ورسوله »**

ومن تأويلاتهم الباطلة ما ذكروه فى هذه الآيات الكريمة : ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾ .

قالوا : إن الرحمن علم القرآن محمدًا وخلق الإنسان أى الباب وعلمه البيان يقصدون بالبيان الكتاب الذى نسبه الباب إلى نفسه وأنه قد تنزل عليه ، وعجبا لقولهم هذا !! انهم يعتقدون أن الباب إله فمن الذى أنزل عليه الكتاب آنزله على نفسه ؟! .

فانظر إلى أى مدى يتمادون فى ضلالهم وبهتانهم ، إن عقيدتهم مجموعة من المتناقضات والمتشابهات والضلالات وهم يغلفونها بغلاف إنسانى ليكون كالشراك والمصايد والشبك والمكايد .

إنها الفخاخ التى يقع فيها الصيد ويُقضى فيها على الضحايا .

فإذا سألت ذلك الذى اسمه « عباس » عبدالبهاء عن البهائية أجابك قائلا : لأن تكون بهائيا يجب أن تحب العالم ، وتحب الإنسانية وتجتهد فى خدمتها ، وتعمل للسلام العام والأخوة العامة .

ولقد أخذ الجاهلون بالإسلام هذا القول أحسن مأخذ ، ووضعوه فى الدرجة العليا لأنهم ظنوا أن البهائية جاءت بشىء جديد ، لما رأوا من اضطراب العالم وارتباك جوه بعواصف الحروب ونيران الطمع ، والحقيقة أن البهاء لم يأت بشىء جديد ، وأن ما جاء به سرقه من الإسلام ، والإسلام منبع الفضائل ومصدر المحاسن لقد جاء القرآن قبل ألف وأربعمائة عام بما هو خير مما جاء به البهاء وعبده عباس فقد قال الله لنا فى القرآن :

﴿ ادخلوا فى السلم كافة ﴾

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾

﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾

ويبدأ المسلم دخوله المسجد بالسلام ويختم صلاته أينما كان بالسلام ويقول نبى الإسلام عليه السلام **« لن تؤمنوا حتى تحابوا »** ويقول : **« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »**

ولكن المسلمين جهلوا دينهم واتخذ الدعاة هذا الجهل ذريعة لنشر ضلالهم وبث فسادهم من تشريعات البهائية .

لم يحرم البهاء فى « كتابه المسمى الأقدس » لم يحرم ما حرم القرآن من نكاح الأخوات أو البنات أو العمات أو الخالات وإنما حرم زوجات الآباء فقط فقال قد حرمت عليكم أزواج آبائكم » .

أما عن الميراث :

فبعد تجهيز الميت تجهيزًا كاملا يأخذ من التركة من كل مائة تسعة عشر لبيت العدل والباقى يوزع على الثين وأربعين سهما يعطى للأولاد منها ثمانية عشر يسوى فيه بين الذكر والأنثى وللزوج أو الزوجة ستة سهام ونصف وللأب خمسة سهام ونصف وللأم أربعة سهام ونصف وللإخوة ثلاثة سهام ونصف وللأخوات سهمان ونصف وللمعارف سهم ونصف .

أما عن دفن الموتى :

فان الميت يكفن بدون غسل فى أنقى ملابسه البيضاء ويجعل فى أصبعه خاتم من العقيق ، ويوضع فى صندوق من خشب أو حديد أو نحاس أو بلور ، وأبركها عندهم ما اتخذ من البلور ثم يدفن فى أبعد عمق ممكن من الأرض وإن شق له فى الصخر كان أبرك .

أما صلاة الجنازة عندهم : فقد شرعها الباب وأثبتها البهاء فى كتابه الأقدس .

يقول البهاء :

قد نزلت فى صلاة الميت ستة تكبيرات من الله منزل الآيات والذى عنده علم القراءة له أن يقرأ ما نزل قبلها يشير بذلك إلى ما كتبه الباب فى بيانه بأن يكرر بعد كل تكبيرة تسع عشرة مرة .

إنا كل لله عابدون بعد الأولى

إنا كل لله ساجدون بعد الثانية

إنا كل لله قانتون بعد الثالثة

إنا كل لله ذاكرون بعد الرابعة

إنا كل لله شاكرون بعد الخامسة

إنا كل لله صابرون بعد السادسة

اما الصلاة التى يصلونها :

فقد قال البهاء « قد كتب عليكم الصلاة تسع ركعات لله منزل الآيات حين الزوال وفى البكور والآصال وعفونا عن عدة أخرى فى كتاب إنه لهو الأمر المقتدر المختار .

ويسمى هذه الصلاة الصلاة الكبرى وهى مشروحة فى كتبهم لها تلاوات خاصة وركوع بلا سجود ، يصليها الإنسان مرة واحدة فى اليوم ، بشرط أن يكون فارغ القلب من جميع الشواغل ، وهناك صلاة وسطى وهى ركعة واحدة وجلسة واحدة يصليها الإنسان

مع الفجر ، وفى الظهر وبعد غروب الشمس ، يتوجه فيها شطر عكا وتشتمل هذه الصلاة على قيام وركوع وقنوت وتعدد ، وكلمات يقولها فى تعظيم البهاء ، واتباع البهاء وكل صلواته لا سجود فيها .

وهناك صلاة صغرى للعمال وأشباههم ممن تكثر شواغلهم وهى كلمات يقولها القائل مقابلا القبلة التى هى قبر البهاء وتكون هذه الصلاة وقت الزوال فقط .

فانظر معى أهناك وحى نزل على هذا البلاء بهذا التشريع ؟!! سبحانك ربى يا من قلت : **﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾** ؟!

فأنت ترى فيما قاله البهاء ما يدل دلالة قاطعة على أن البهائية تخالف العبادات الإسلامية بعد مخالفتها للعقيدة التى بعث بها خاتم الأنبياء ﷺ فحق فيهم قول الله تعالى :

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ .

﴿ كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ .

أما عن عدد الشهور التى قال الله فيها : **﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم ﴾** .

فإن البهاء يقول فى كتابه المسمى « الأقدس » : إن عدة شهور السنة تسعة عشر شهرا فى كتاب الله قد زين أولها بهذا الاسم المهيمن على العالمين - يعنى اسم نفسه »

وأسماء الشهور هى :

« بهاء ، جلال ، جمال ، عظمة ، نور ، رحمة ، كلمات ، كمال ، أسماء ، عزة ، مشيئة ، علم ، قدرة ، قول ، سائل ، شرف ، سلطان ، ملك ، علاء »

وكل شهر من هذه الشهور تسعة عشر يوما والخمسة الأيام الباقية يسميها أيام البهاء : وهى أيام راحة وحرية وزيارات وأنس .

وكما غير حساب السنة وبدل أسماء الشهور جعل لكل يوم من أيام الأسبوع اسما جديدا فسمى الأحد و (جلال) والاثنين بـ (جمال) والثلاثاء بـ (كمال) و الأربعاء

بـ (فضال) والخميس بـ (عدال) والجمعه بـ (استجلال) والسبت بـ (استقلال) .

أما عن الحج فإنهم لا يحجون إلى « مكة » وإنما يحجون إلى « مدفن البهاء » وقد كتب عن الحج فقال : « قد حكم الله لمن استطاع منكم حج البيت - ويقصد به مدفنه فى عكا - دون النساء عفا الله عنهن رحمة من عنده إنه لهو المعطى الوهاب »

وهم مزاران مقدسان الأول فى « شيراز » وهو مولد الباب ، والثانى فى « بغداد » وهو المكان الذى أذن فيه البهاء بضلاله .

أما عن عبادة الصيام فإنه تسعة عشر يوما كل عام تبدأ من الثانى من شهر مارس وتنتهى فى العشرين . واليوم الحادى والعشرون من مارس هو يوم العيد ويكون موافقا ليوم « النيروز » .

ويقول فى كيفية الصيام :

كفوا أنفسكم عن الأكل والشرب من الطلوع إلى الأفول ، وإياكم أن يمنعكم الهوى عن هذا الفضل الذى قدر فى الكتاب . » .

فأين هذا الصيام من الصيام الذى شرعه الله تعالى وأمر به فى قوله :

﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ .

من أى تشريع سماوى جاء البهاء بهذا الصيام **﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾** .

بعدما علمنا ما شرعه البهاء لأتباعه فى العبادات ننتقل إلى ما شرعه فى الحدود فقد حد الله تعالى لعباده حدودا حسب الجرائم فللزنا حده إما جلدا أو رجما وللسرقة حدها وهو القطع وللقذف حده وهو ثمانون جلدة وكذلك حد الخمر .

وللحرابة حدها المبين فى قوله تعالى : **﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾** .

وللبغى حده المبين فى قوله تعالى : **﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾** .

وللردة حدها المبين فى قوله ﷺ **« من بدل دينه فاقتلوه »** .

أما البهاء فله تشريع فى الحدود اتبع فيها هواه لما أغفل الله قلبه عن ذكره ، وكان أمره فرطا .

يقول فى الزانى والزانية :

قد حكم الله لكل زان أو زانية دية مسلمة إلى بيت العدل . وهى تسعة مثاقيل من الذهب . وإن عاد مرة أخرى عودوا بضعف الجزاء هذا ما حكم به مالك الأسماء فى الأولى وفى الأخرى قدر لها عذاب مهين .

ومن هذه العبارة نفهم أن الرجل إذا عاد يضاعف عليه الجزاء فى الغرامة أو الضريبة والمرأة إن عادت يقدر لها العذاب المهين .

حكمه فى السارق « قد كتب على السارق النفى والحبس وفى الثالث فاجعلوا فى جبينه علامة يعرف بها لئلا تقبله مدن الله ودياره وإياكم أن تأخذكم الرأفة فى دين الله اعملوا ما أمرتم به » .

حكمه فى أن لا نجاسة أبدا : قال فى أقدسه وكذلك رفع الله حكمه دون الطهارة عن كل شىء وعن ملل أخرى موهبة من الله إنه هو الغفور الكريم، قد انغمست الأشياء فى بحر الطهارة فى أول الرضوان إذ تجلينا على من فى الإمكان بأسمائنا الحسنى وصفاتنا العليا ، هذا من فضل الذى أحاط العالمين »

أما عن الأسرة البهائية والزواج وأحكامه فإن البهاء يحتم الزواج على من استطاع الزواج فيقول فى كتابه المسمى الأقدس :

« قد كتب الله عليكم النكاح إياكم أن تجاوزوا حد الأثنين والذى اقتنع بواحدة من الإماء استراحت نفسه ونفسها » .

ويشترط لصحة الزواج عند البهائيين رضاء ستة أفراد : الزوجين وأبوى الزوج وأبوى الزوجة إن كانوا على قيد الحياة أو من كان منهم حيا ويحدد المهور فيجعلها للقروى والبدوى تسعة عشر مثقالا من الفضة إلى خمسة أضعافها ، ويجعلها للمدنى تسعة عشر مثقالا من الذهب إلى خمسة أضعافها .

ويقول فى كتابه « والذى قنع بالدرجة الأولى خير له فى الكتاب » .

ومن كره صحبتها أو كرهت صحبته يفترقان سنة كاملة - يسمونها مدة الاصطبار - لعلهما أن يندما فإن لم يتفقا فلا بأس من إيقاع الطلاق ولا يوقع الطلاق غير « المحفل المحلى »

وعدة الطلاق مدة الاصطبار وإن لم يتزوجا بعد الطلاق فللزوج حق استرجاع زوجته مهما طال الأجل ولكن بعد مراجعة المحفل .

أما عدة الوفاة فقد أوقفت مدتها إلى بيت العدل وإذا اختلفا فى السفر من بلدهما فعليه أن يعيدها إلى أهلها أو إلى بلدها ويعطيها نفقة سنة كاملة وإذا سافر الزوج من بلده عليه أن يحدد أجل سفره وإذا تأخر عن الأجل عليه أن يخبرها بتأخره وإلا كان لها الحق أن تشكوه إلى المحفل .

لا جهـاد فى البهائيـة

ترتكز البهائية على ركيزة تدور حولها دائما وتدعو لها وتحشد فى سبيل دعوتها كل ما لديها من إمكانات وتلك الركيزة هى أنه لا جهاد ولا قتال وبهذا فإنها تدعو إلى الذل والهوان والاستكانة ، وبهذا تنفى ركنا ركينا من أركان الإسلام ، وتلغى فريضة محكمة من فرائضه انتشرت فى طول القرآن الكريم وعرضه **﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾** .

لقد شرع الله تعالى الجهاد لنشر دعوة الإسلام والدفاع عن بيضته والذود عن حياضه فما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ضربت عليهم الذلة ومن مات ولم يغز أولم يحدث نفسه بغزو مات ميتة الجاهلية والشهيد يوم يقتل يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ويرى مكانه فى الجنة ويقيه الله فتنه القبر ويشفع لسبعين من أهله ويزوج باثنين وسبعين حورية ويلبسه الله تاج الوقار أقل يا قوتة فيه خير من الدنيا وما فيها **﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾** .

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا
فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
فالشر إن تلقه بالخير ضقت به
ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم
قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
بقتل نفس ولا جادوا بسفك دم

جهل وتضليل أفهام وسفسطه
غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم

ثم ماذا يكون موقف المسلمين إذا اعتدى عليهم العدو كما هو واقع الآن فى شتى بقاع الأرض على أرض « أفغانستان » و « لبنان » والدول العربية المجاورة لإسرائيل ، وكما هو حادث فى « أريتريا » و « الصومال » وعلى أرض « السودان » ماذا يقول البهائيون الذين يحكمون بالإعدام على الجهاد مع تنفيذ الحكم .

أيضرب المسلمون بالطيران والصواريخ والقنابل برا وبحرا وجوا ثم يقولون للمعتدى وعليكم السلام اضرب ماشئت ، واقتل من شئت فإننا سنرد عليك بالسلام .

أهذا عقل أو ذاك منطق ؟

وماذا يقول السفهاء من الناس أمام هذه البدهيات العقلية ؟

أمن العدل أنهم يردون الـ ماء صفوا وأن يكدر وردى
أمن الحق أنهم يطلقون الـ أسد منهم وأن تقيد أسدى
نظر الله لى فأرشد أبنا ئى فشدوا إلى العلا أى شد

إن القوة الغاشمة لا علاج لها إلا قوة تماثلها فلكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار مضاد له فى الاتجاه وما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة إن العاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين وما استعمل الإسلام السيف إلا للقضاء على السيف وجل جلال الله إذ يقول :

﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾

وما أعظم قوله جل شأنه :

﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ .

هذا هو المنطق الذى تنادى به الفطر السليمة والألباب الحكيمة .

عقائد البهائيين

تختلف عقائدهم عن العقيدة الإسلامية الصحيحة كل الاختلاف ؛ ذلك لأن الإيمان عندهم غير ما عند أهل الملة التى بعث بها خاتم الأنبياء والمرسلين ونزل بها الروح الأمين وجاء بها القرآن الكريم .

فلما اختلفت العبادات بيننا وبينهم من صلاة وزكاة وصيام وحج اختلفت العقائد كذلك بحيث أصبح الإسلام والبهائية نقيضين لا يجتمعان وضدين لايلتقيان، إن الأمين جبريل لما سأل الرسول ﷺ عن الإيمان قال له الصادق المعصوم: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره. فما هو تصور البهائيين فى الإيمان بهذه العقائد ؟ وماذا يقولون فيها ؟

١ - يزعم البهائيون : أن البهاء رب الأرباب وسيد المظاهر ، والعالم المحيط علمه بكل شيء وأنه هو الله .

قال عبدالبهاء عن أبيه « تجلى رب الأرباب والمجرمون خاسرون وهو الذى أنشأ لكم النشأة الأخرى وأقام الطامة الكبرى وحشر النفوس المقدسة فى الملكوت الأعلى »

وكتب البهاء عن نفسه :

يا أهل النفاق قد ظهر من لا يعزب عن علمه شيء .

وقال أيضا عن نفسه « لا يرى فى هيكلى إلا هيكل الله ، ولا فى جمالى إلا جماله ولا فى كينونتى إلا كينونته ولا فى ذاتى إلا ذاته قل لم يكن فى نفسى إلا الحق ولا يرى فى ذاته إلا الله .

٢ - توجيه العبادة إلى مظهر الأمر الذى هو النبى أو الرسول وأن الله يتجلى فيه ، كما تتجلى الشمس فى المرآة ، ويخاطب بما يخاطب به الله .

٣ - لا معجزات للأنبياء وما داموا يؤمنون بأن الأنبياء هم آلهة وأنهم مظاهر أمر الله فلا حاجة للمعجزات .

يقولون فى معجزات موسى « العصا - هى عصا الأمر - » .

والحية « هى ثعبان المقدرة » واليد البيضاء هى بيضاء المعرفة »

ويقولون فى معجزات عيسى إنه أبرأ الأكمه والأبرص ويعنون بالأكمه الجاهل وإبراؤه بالعلم والأبرص يعنى « الضال » وإبراؤه بالهداية .

وأولوا إحياء الموتى لسيدنا عيسى بتعليم الجهال .

٤ – لا انقطاع للوحي وقد كتب البهاء في رسالته السلطانية ما معناه إن هؤلاء العباد لا يقولون باستحالة ظهور مظاهر الأحدية ولو أن قائلا قال بهذا فأي فرق بينه وبين قوم يقولون يد الله مغلولة ؟!

ويقولون : إن القول بانقطاع الوحي بعد محمد ليس له سند في منطق الواقع .

٥ – لا بعث لهذه الأجساد وإنما هي الأرواح فقط فكل من مات قامت قيامته وهو إلى نعيم أو إلى عذاب والعذاب ينتهي والنعيم دائم أبدي .

٦ – القيامة الكبرى قيامة نبي ، وانتهاء دور نبي بدلا منه ، أو قيام أمة ، وهلاك أمة .

٧ – الملائكة وهم قوم عاشوا صالحين فرضي عنهم ربهم فقربت أرواحهم إليه وضدهم الشياطين وشيطان الإنسان نفسه الخبيثة . وأما الجن : فإنها حيوانات خبيثة لا تدرك بالأبصار ، ولعلهم يقصدون بذلك الجراثيم .

٨ – ليس هناك رسل من الملائكة تنزل على الأنبياء أو الرسل وينكرون أن جبريل نزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، ويقولون : ورد في القرآن : ﴿ **نزل به الروح الأمين** ﴾ أو ﴿ **قل نزله روح القدس** ﴾ .

وهو الله تجلى في محمد فنطق محمد بالقرآن وكذلك في البهاء ، معنى ذلك

إن هذا النبي ينطق بلسان الله أو أن الوحي هو الله !! أستغفر الله من إفكهم وضلالهم ونعوذ بالله من عقائدهم .

٩ – ويعتقدون أن لله في الأرض بيتين :

الأول في شيراز ، وهو الذي أعلن فيه الباب دعوته ، والثاني في بغداد ، وهو الذي أعلن فيه البهاء دعوته ، وكلاهما يجب أن يبقى ، ويقول البهاء في كتابه :

وارفعن البيتين في المقامين ، والمقامات التي استقر فيها عرش ربكم الرحمة – يعني البيوت التي نزل فيها أو سجن فيها .

كذلك يأمركم مولى العارفين إياكم أن تمنعكم شئونات الأرض عما أمرتم من لدن قوي أمين . وقد ملك البهائيون السجن الذي سجن فيه الباب في [illegible] ، ويحاولون أن يتملكوا بيت بغداد وغيره .

١٠ – ويعتقدون في أن البهاء واحد أحد وليس له شريك في العصمة ولا في عظم الشأن يقول البهاء في أقدسه « ليس لمطلع الأمر شريك في العصمة الكبرى إنه يظهر ، يفعل ما يشاء في ملكوت الإنسان قد خص الله هذا المقام لنفسه وما قدر لأحد نصيب من هذا الشأن العظيم المنيع » .

١١ – إن البهاء إله وقد صرح هو نفسه في كتابه بقوله : يا ملأ الإنشاء اسمعوا نداء مالك الأسماء إنه يناديكم من شطر سجنه الأعظم .

إنه لا إله إلا أنا المقتدر المتكبر المتسخر المتعالي العظيم الحكيم » .

وكتب لي أحد المقربين من ولي الأمر هذه العبارة لما رآني مصغيا لأقواله وخز عبلاته ومسجلا بعض كلماته :

قال : « وفي الحال عرضت إلى ساحة قدس مولانا المحبوب حضرة ولي أمر الله كل ما شاهدته فيكم من الإخلاص والانجذاب في سبيل خدمة ربنا البهي الأبهى .

وتمنيت من ساحته القدسية لكم بكل تضرع وابتهال تأييداته الإلهية ولا شك في أن حضرتكم بعناية حضرة جمال القوم – يعني البهاء – جل جلاله سوف تنالون بفتوحاته الباهرة والانتصارات العظيمة في سبيل خدمة أمر المحبوب الأبهى وذلك بفضله ومنه وعنايته . . . الخ » .

أيام يقدسها البهائيون

للبهائيين تسعة أيام يقدسونها ويحرمون العمل فيها وهذه الأيام هي :

اليوم الأول ، واليوم الثاني ، من شهر الله المحرم (ميلاد الباب والبهاء) .

اليوم الخامس : من جمادى الأولى (بعثة الباب) وأعوذ بالله من قولهم . وأقول بل يوم افترائه اليوم الحادي والعشرون : من شهر مارس (عيد الفطر أو يوم النيروز ومما يندى له جبين الحياء خجلا . ويتقاطر له الوجه عرقا من شدة ما فيه من أسى أن اتخذت بعض الشعوب الإسلامية هذا اليوم عيداً سموه عيد الأم أو أصبح الاحتفال به أكثر من الاحتفال بعيد الفطر ، وعيد الأضحى وهل للأم عيد ؟ وهل لإكرامها وقت محدود ؟ إن مما يدعو للأسى والأسف أن نرى المسلمين يقدمون الهدايا لأمهاتهم مستجيبين في ذلك لدعوة نادى بها أحد الصحفيين وجعل هذا اليوم بالذات يوما يحتفل فيه بالأم وهو في الحقيقة ليس احتفالا إنما هو يوم الأحزان يوم أحزان الذين فقدوا أمهاتهم .

سبحانك ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾؟

واعجبا لهؤلاء القوم يحتفلون بالأم يوما ، ويعقونها ويقطعون رحمها بقية أيام العام ؟!

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه

وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

فياقوم اتبعوا سبيل المصلحين ، ولا تتبعوا سبيل المفسدين ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل .

ومن الأيام التسعة التي يقدسونها اليوم الحادي والعشرون ، من شهر إبريل : (دعوة البهاء أو بعثته) افتراؤه على الله

وكذلك اليوم التاسع والعشرون من إبريل : تاسع أيام بعثة المفتراة .

٢ مايو : إعلان الدعوة وختام أيام الرضوان

٢٩ مايو : موت البهاء .

واليوم الثامن والعشرون من شهر شعبان : موت الباب .

سبحانك هذا بهتان عظيم !! ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ماكنتم تزعمون ﴾ .

لقد تبين لنا ما افتراه البهائيون على الله وما ابتدعوه من كذب واختلاق فعبدوا من دون الله الباب والبهاء وأسندوا اليهما ما لا يليق بأحد إلا بالله وأولوا آيات القرآن تأويلا باطلا حرجوا بها مدلولها عن مراد الله .

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذبا ﴾ .

وعز وجل وتقدس الله إذ يقول : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾

واللهم إنا نشهدك ونشهد ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك أنك أنت الله وحدك لا شريك لك وأن محمدًا عبدك ونبيك ورسولك . رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا .

عليها نحيا وعليها نموت وفي سبيلها نجاهد وعليها نلقى الله .

وبعد : فهذه كلمة بها حقائق تاريخية . لقد إمتدت الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب وساد نفوذه على فارس والروم فودع الروم جزيرة العرب وبقي فيها اليهود وقد فقدوا سلطانهم الروحي على الأميين وذالت دولة الفرس وخمدت نيران المجوس ، وانمحت ظلمة الشرك .

فحقد أحبار اليهود وكهان الفرس والروم لزوال عزهم وقامت منهم طرائق أو جمعيات لكيد الفاتحين والدين الفاتحين . مجتمعين أحيانا ومفترقين أحيانا أخرى .

وأول هذه الجمعيات تلك التي قتلت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم تلك التي أشعلت نار الفتنة العاتية التي قضت على عثمان رضي الله عنه ، وفرقت المسلمين إلى فئتين متقاتلين ثم انتهت بقتل علي .

ثم تكاثرت تلك الجمعيات السرية الهدامة تظهر حينا وتختفي حينا آخر ، وتتخذ لها الظهور وجها لاختلاف مختلف الأسماء ومختلف الغايات فتارة تنادي باسم الدين ، وتارة باسم الخلافة وتلبس لكل حالة لبوسا . والهدف واحد هو أنهم يريدون أن يطفئوا نور الإسلام والله يأبى إلا أن يتم نوره ، وأعظم مهد لهذه الجمعيات كانت فارس ، وفارس مليء بالعجائب وفيها في كل عصر متنبئ مولود جديد لأن فارس بعيدة عن مركز الخلافة وميدانها واسع واقاليمها كثيرة وأهلها أتباع كل ناعق .

وأخيرا وليس بآخر يظهر من شيراز دجال اسمه « علي محمد » يدعي النسبة إلى السلالة النبوية الطاهرة وما أكثر المدعين نسبتهم اليها في كل عصر وفي كل قطر !!

لقب هذا الدجال نفسه بالباب وأنه : باب مدينة العلم ثم ادعى المهدوية مستولا حديث (المهدي من عترتي) ثم ادعى النبوة أو الرسالة ثم الألوهية . فهل صدق في واحدة منها ؟ لاشك أن من كذب في واحدة فهو في الجميع كاذب ثم يقتل محكوما بكفره !!

ومما سطره في كتبه أن من ادعى الرسالة قبل مرور ألفي عام فهو كاذب فاقتلوه وبدأ الدجال الثاني بعد مرور اثني عشر عاما يدعي الرسالة بعد أن ادعى خلافة سلفه ويدعي أن سلفه جاء مبشرا به . وأنه بالنسبة إليه « كيحيى لعيسى » ثم بعد قليل يدعي الألوهية لكن يحيى وعيسى قالا : إنهما عبدان لله فيحيى كان نبيا وعيسى قال لقومه :

﴿ **اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ وقال لربه : ﴿ **سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد** ﴾

أما الباب وأما البهاء فقد امرا الناس بعبادتهما والبهاء خاصة أمر الناس أن يتوجهوا له بالدعاء وأن يخصوه بالعبادة ، ووصف نفسه بأوصاف الله الكريمة وسماها بأسماء الله الحسنى وأمر أتباعه أن يولوا وجوههم شطره فى صلاتهم وقال : إنه على كل شىء قدير .

ولكن العجب لأولئك الطغام الذين اتبعوه وأقروا بربوبيته مع أنهم يرون عجزه عن خلاصهم وخلاص نفسه من التعذيب والتشريد والإهانة والضرب والسجن وإلا فما قيمة إله لا يدفع عن نفسه أذى عباده ولا يملك القدرة على حماية نفسه ؟

أرب يبول الثعلبان برأسه
لقد ذل من بالت عليه الثعالب ؟!
فلو كان ربا كان يمنع نفسه
فلا خير فى رب نأته المطالب
برئت من الأصنام فى الأرض كلها
وآمنت بالله الذى هو غالب

ولقد بالغ البهاء وعبده فى تزويق بهائيتهما وطليها بالدهان الخادع ونوعا الأردية فهى مع المسلم برداء ومع اليهودى برداء بينما لها مع المسيحى والبوذى والمجوسى أردية أخرى متباينة .

وهكذا فلها مع كل نحلة وجه ومع كل دين مقابلة ، إنها مبدأ تشكيك تستغل جهل الجاهل بدينه ، فتفتح له باب التأويل . وللتأويل عند العامة مكانة ؛ لأنهم أخطأوا الفهم بأن القرآن نزل عربيا غير ذى عوج وفسروا قول الله تعالى : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ فوصلوا الآية وقطعوها عند قوله تعالى « والراسخون فى العلم » وجعلوا الراسخين فى العلم : شركاء مع الله فى علمه .

اما أولئك الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب فقالوا على الله الكذب واتبعوا ما تشابه من التنزيل وأولوه ابتغاء الفتنة فقلبوا الحقائق وخدعوا الجاهلين وضلوا وأضلوا .

وبعد : فقد قدمنا للقارىء الكريم معالم الطريق عن البهائية وقد تبين أنها مذهب خطير على الإسلام والمسلمين يبدد قوتهم ويفرق جمعهم ، فليحذر المسلمون عاقبة اتباع هؤلاء

المفسدين ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

قال ﷺ ستكون فتن. قال على رضى الله عنه : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله » .

لقد كان لنا مع البهائيين فى سجن أبى زعبل صولات وجولات قضينا فيها ليالى ذوات العدد من بعد العشاء إلى أن ينشق عمود الفجر ، وكان النصر دائما للمسلمين ؛ لأن الإسلام حق .

وكان الذين يتصدون للدفاع عن البهائية من أفواههم فكرا وأرجحهم عقلا ، ولكن الحق أقوى وأقوم قيلا ، وأهدى سبيلا والباطل لجلج كالزبد يذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ، لقد جادلناهم بالحكمة والموعظة الحسنة لعلهم يتقون ، أو يحدث لهم ذكرا ، ولكنهم دخلوا الحلبة بأفكار مسبقة كان من الصعب عليهم أن يتزحزحوا عنها ، والباطل هو الباطل يظل يعربد فى عرصات الدنيا إلى أن يتصدى له الحق فيدمغه فإذا هو زاهق !!

الافـراج عن البهائيين :

استيقظت ذات صباح فى سجن أبى زعبل فسمعت من يطرق باب الزنزانة فإذا هو رئيس البهائيين ونادى علىّ فى شماتة ظاهرة وحقد دفين وقال يا شيخ كشك لقد أفرج عنا اليوم ، ثم قال بلهجته العامية « وخلىّ القرآن ينفعكم » وكان لهذه الكلمة ألم يبيع على النفس لأن الشماتة تورث النفس لوعة ولكن سرعان ما عادت النفس إلى أصولها الأصيلة ومنابعها الصافية فى قوله تعالى : ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ .

وناديت عليه قبل أن ينصرف وقلت له : إنى ناصحك بنصيحة قبل أن تغادر السجن فقد لا نلتقى . قال : فيم تنصحنا؟ قلت له: أسلم تسلم ، والرجوع للحق فضيلة ، فقد أقمنا عليكم الحجة ، وقطعنا عليكم المعاذير بتلك الجلسات التى دار بيننا الحوار لعلمى فيها . ولكنه لم يحر جوابا ، وانصرف وأبى واستكبر وكان من الكافرين ، وعشش الشيطان فى رأسه وباض فيها الإلحاد ، وأفرخ الزندقة ، ثم ذهب إلى أهله يتمطى فرحًا بالإفراج من سجن صغير إلى سجن كبير ، وقد يعقبه سجن أليم وشديد فى زنازين القبور . وبعد يومين من الإفراج عنهم إذا بضابط السجن يأتينى بجريدة الاهرام ويقول لى : أتذكر فلانا البهائى الذى أفرج عنه منذ قليل ؟ قلت : نعم . قال : لقد مات أمس وهذا نعيه .

قلت : سبحانه الله !! ﴿ **وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير** ﴾

لقد مضى إلى ما قدم والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا وإلى الله مرجعنا فيحكم بيننا وهو خير الحاكمين .

« كشف به دفعة كبيرة قد أفرج عنها »

نودى ذات ليلة على أكثر من ثلاثمائة من المعتقلين الإسلاميين وذلك للإفراج عنهم ثم توالت بعد ذلك كشوف الإفراج على مستوى السجون ولم أكن من بين هؤلاء الذين أفرج عنهم فى تلك الآونة . وبقيت أعداد قليلة ، والتقى بى قائد السجن ذات يوم وقال لى : هل بينك وبين وزير الداخلية شىء من سوء التفاهم ؟ وكان يومها (شعراوى جمعة) فقلت له : إننى لم ألتق به ولم يجمعنى به مكان ، فقال : إننى كلما رشحت اسمك للإفراج أشار بقلمه الأحمر إلى اسمك ، فقلت له : إذا أذن الله بالإفراج فإنه لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وتحرك الفلك ومضت الأيام ونودى على أسماء كثيرة فى معتقل كنت واحداً منهم وظنناه إفراجاً ، ولكنه كان ترحيلا من سجن القلعة إلى سجن طرة . وجىء بعربات الترحيل ليُشحن الناس فيها كالسائمة .. وبينما نحن فى ساحة السجن استعداداً للترحيل إذا بى أفاجأ بمن يهمس فى أذنى ويقول : « أنا ضابط الترحيل ولدى مذاكرة وعندى امتحان فى الشريعة وسأجلسك بجانبى فى السيارة لتشرح لى أصول علم الميراث » . وأظهرت استعدادى وأجلسنى بينه وبين سائق السيارة ، وفى المسافة بين السجنين كنت قد أعطيته فكرة واضحة عن ميراث أصحاب الفرائض والعصبات . واخترقت السيارة أبواب السجن العتيق ، ثم ألقت برحالها ودلفنا من السيارة وعدنا إلى طرة مرة أخرى . ورأى ذلك الضابط أن يرد إلىّ شيئا من المعروف ، فحمل عنى المتاع حتى دخلنا إلى مكان لا يعرف الخليل فيه حبيبه ، ذلك هو مكان التفتيش حيث تجلس القرفصاء ويقوم بعض القائمين على شئون السجن بتفتيشنا تفتيشا دقيقا خشية أن يكون مع أحدنا شىء من الممنوعات كالقلم والورق والسكين والنقود فكل هذه تعتبر فى سجون مصر مخالفات كبيرة لا يُسمح بدخولها فى العنابر والزنازين .. وكانت إسرائيل فى تلك الأيام قد رسخت أقدامها على ضفة القناة بعدما أحكمت سيطرتها على شبه جزيرة سيناء . وقت سبحان الله سمحوا لإسرائيل بدخول مصر ولم يسمحوا لنا بدخول قلم من الرصاص أو ورقة بيضاء . فبينما إسرائيل تطالب بحقها فى المرور فى قناة السويس إذ عبثت الملاحة فيها . إذا بحكام مصر المغاوير يمنعوننا حقنا فى إرسال ورقة إلى أهلنا الذين لم نعلم عنهم شيئا ، ولم يعلموا عنا شيئا . فهم لا يعلمون أين نحن ؟ وكيف نقضى تلك السنين ؟ لقد طال بيننا أمد الفراق وأصبحنا لا نراهم إلا فى المنام والرؤى فى

السجون هى الوسيلة الوحيدة للاتصال بالعالم الخارجى .. ومازلت أذكر أن والدى رحمه الله تعالى كان يزورنى فى المنام وهو فى العالم الآخر كل ليلة وأنا نزيل سجن القلعة ، وكان يظل معى إلى أن يؤذن الفجر فيذهب هو إلى مستقر الأرواح وأستعد أنا للوقوف بين يدى الله تعالى فى الصلاة . وسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

ولما طالت الفرقة بيننا وبين ذوينا أصيب بعض الناس بضغوط عصبية شديدة : كان بجوارى فى سجن طرة شخص كان يشغل منصبا رفيعا . فكنت أستيقظ من النوم على صوته وهو جالس يتحدث مع نفسه ويخاطب أهله كأن فى يده سماعة الهاتف فيسألهم عن أحوالهم . وهل تناول الأولاد طعام الإفطار ؟ وهل ذهبوا إلى المدارس ؟ وهل هم فى حاجة إلى نقود ؟ وفجأة تذهب السكرة ، وتحل الفكرة فيفيق بعدما تعود به حقائق الدنيا إلى واقعه الملموس . فيعود إلى النوم ، ففى النوم تسليم وتفويض لخالق الأكوان ، والنوم نعمة كبرى . وآية من آيات الله . قال تعالى : ﴿ **ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ . فسبحان ربى كل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له ، عز كل ذليل ، وقوة كل ضعيف ، وغنى كل فقير ، ومفزع كل ملهوف من تكلم سمع صوته ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه .. لقد كانت الرؤى فى السجون فيها العزاء والسلوان لنفوسنا ، وهذا أمر قد ذكره القرآن الكريم فى قصة يوسف . قال تعالى : ﴿ **ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمرا . وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين** ﴾ .

فتح بـاب الزيـارة

صرحت إدارة السجن للمعتقلين بالزيارة ، وعلى المعتقل أن يستعد ليزوره بعض أهله الأقربين . وفوجئت ذات يوم بأننى مطلوب للزيارة ، فبعدما يقرب من عامين رأيتنى وجها لوجه أمام إخوتى ومعهم ابنى الذى وُلد دون أن أراه . والذى تركته جنينا فى قرار مكين إلى قدر معلوم . ولقد رأيته فى المنام قبل الزيارة يفصل بينى وبينه الباب الحديدى للسجن ، ومد يده من بين القضبان فصافحته وسألته عن اسمه فقال لى : « أنا ابنك سند » . وعلمت أن هذا من الله سند وعونا لكل مغلوب ومظلوم .

كن عن همومك معرضا	وكل الأمور إلى القضا
وانعم بطول سلامة	تسليك عما قد مضى
فلربما اتسع المضيق	وربما ضاق الفضا
ولرب أمر مسخط	لك فى عواقبه رضا
الله يفعل ما يشاء	فلا تكن متعرضا

وانتهى وقت الزيارة الذى استمر دقائق معدودات فكانوا يحسبون علينا الزمن حسابا دقيقا . ونادى السجان معلنا انتهاء الزيارة ، واختُطف ابنى من بين ذراعى ، ولم أجد بين ذراعى سواى ، وودعنى الحوق بعد أن أوصانى شقيقى الأكبر بالصبر والاحتمال والتسليم والتفويض لله تعالى وتلا على مسمعى قوله جلّ شأنه : ﴿ **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ .

شىء عجيب !!

جاءوا لنا ببعض المتحدثين ليُلقوا علينا دروسا بقصد التوعية ولا ينال هذا الشرف إلا الذين نالوا الرضا السامى من السادة الأكابر . وكان على رأس هؤلاء الحاضرين شخص كان سجينا فى محنة ١٩٥٤ لكنه عرف الطريق المؤدى إلى الجلوس على كراسى المناصب فسلكه حتى ارتقى فى سلم المجد الزائل الزائف . ولما وقعت النكسة واحتلّ اليهود أطهر بقعة فى أرض مصر ، لم يجد ذلك الشخص فى أبواب النفاق ما يذكره تسلية لسيده المهزوم أو المنهزم إلا أن يشبه النكسة بغزوة أحد . وفى الإشارة ما يغنى عن العبارة فإذا كانت النكسة التى على رأسها بطل الهزائم وطاغية العصر شبيهة بيوم أحد التى كان على رأسها خير البرية الذى اصطفاه الله تعالى وأرسله رحمة للعالمين ، فإن النتيجة الحتمية تقتضى أن صاحب النكسة أصبح شبيها بمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربّانية . وقد استحق بذلك أن يصل إلى كرسى الوزارة ، وأصبح سيادة الدكتور وزيرا وصاحب كلمات فى أجهزة الإعلام مسموعة ومقروءة ومرئية . ولو أنه أنصف لعلم تمام العلم أن الفرق شاسع والبون بعيد بين النكسة ويوم أحد ، فالنكسة كانت هزيمة منكرة ، ويوم أحد كان مدرسة غربل الله فيها النفوس.قال تعالى فى سورة آل عمران وقد تحدثت فيها ستون آية عن غزوة أحد من أول قوله تعالى : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم** ﴾ إلى قوله جلّ شأنه : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ . قال الله فى هذه الآيات يخاطب الجماعة المؤمنة ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ فكيف يحكم الله تعالى لهم بأنهم هم الأعلون . ويأبى سيادة الدكتور الوزير إلا أن يعقد شبها بينهم وبين الظالمين الذين أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .. شتان بين الثرى والثريا وهيهات هيهات ما بين التراب والسحاب . وفرق شاسع بين مسابح الأسماك ومدارج الأفلاك .

لم تكن غزوة أحد هزيمة ، إنما كانت تربية وتمحيص . قال الله جلّ شأنه : ﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا . ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق**

الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ . لم تكن غزوة أحد هزيمة إنما كانت غربلة للنفوس وتطهيرا للصف الإسلامى من شوائب النفاق . قال تعالى : ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء** ﴾ وكيف تكون غزوة أحد هزيمة ، وقد جمع المسلمون الصف عندما أُشيع بأن الكفار لن يرجعوا إلى مكة ، إنما سيعودون ليهجموا على المدينة ، فاستعد المسلمون لنزالهم ، وهو ما عرف فى كتب السيرة بيوم « حمراء الأسد » . وفى هذا يقول تعالى : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ فهل يُشبه هؤلاء الذين صمدوا حتى ردوا المشركين مهزومين مدحورين ؟ هل يُشبهون بأصحاب النكسة ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم !! إن كل ما يقال يوم أحد لا يعدو أن يكون فشلا فى نظام المقاتلين ، قال تعالى : ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين** ﴾ .

إن الهزيمة تتحقق بأحد أمور ثلاثة : أولها : تغيير العقيدة فهل ارتدت الجماعة مؤمنة بعد إيمانها كافرة ؟ .

ثانيا : تتحقق الهزيمة بالقضاء على الجيش . فهل استطاع المشركون يوم أحد أن يقضوا على الجيش ؟ كلا لقد استشهد من المسلمين سبعون وكان عددهم سبعمائة كان من بينهم أسد الله حمزة ، لذلك يُطلق بعض الكاتبين على غزوة أحد « يوم حمزة » فهل يعتبر هذا قضاء على الجيش فى الوقت الذى قتل فيه من المشركين اثنان وعشرون كان على رأسهم أبى ابن خلف الذى أصرّ على قتل رسول الله ﷺ ، فقال الرسول لأصحابه : خلوا بينى وبينه فقتله ، وشر الناس من قتل نبيا أو قتله نبى .

ثالث هذه الأمورالتى تتحقق بها الهزيمة ضياع الأرض . فهل ضاع من أرض المسلمين شبر واحد يوم أحد لقد ظلت المدينة هى القاعدة الأمينة ورجع المشركون إلى مكة لم ينالوا خيرا . فكيف يُقال عن يوم أحد إنه كان يوم هزيمة ؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

لقد أعدت ساحة السجن الكبير لإلقاء دروس التوعية وجلسنا على الأرض أمام السيد الدكتور ، وعندما وقف ليحاضر ، أمطرت السماء مطرا غزيرا ولم يكن المكان مسقوفا فقمت

مسرعين إلى العنابر ، كما أنه ولّى مدبرا إلى مكاتب الادارة يقى نفسه ماء المطر . وبعد قليل طلعت الشمس وصفا الجو ، وعدنا إلى الاستماع وعاد يقف على المنصة وقبل أن يتحدث انفتحت أبواب السماء بماء منهمر وانفض الجمع وهرول الدكتور مسرعا إلى مبنى المكاتب وبعد قليل طلعت الشمس وعدنا للمرة الثالثة وما أن وقف السيد الدكتور حتى غضبت السماء هذه المرة غضبة لم تسمح له بالعودة إلى الحديث فقد ظلت تمطر كأنها ترثى لحال المسلمين وما وصلوا إليه . لقد كان هذا الدكتور من قوم موسى فبغى عليهم . لقد أمروه أن يحاضر فعز على نفسه ألا يحاضر عندما غضبت السماء ، ولو أنه كان يملك شيئا من خشية الله لعلم أن خير محاضرة تُلقى علينا أن يقول للذين أرسلوه الظلم مرتعه وخيم ، والظلم لا يدوم ، وإذا دام دمّر ولقرأ عليهم قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ﴾ ولذكرهم بالحديث القدسي : « يا عبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا » ويقول رسول الله ﷺ : « اتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب » .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

موقف حرج

أرادوا أن يضعونى فى موقف حرج فطلبوا منى أن أقوم بإلقاء كلمة على الإخوة المعتقلين . والحقيقة أننى قضيت تلك الليلة التى وصلنى فيها هذا الأمر ، قضيتها مؤرقا مسهدا وتذكرت قول الإمام ابن الجوزى رضى الله عنه : « إنى لأقضى الليل أتقلب فى فراشى بحثا عن كلمة أرضى بها السلطان ولا أغضب بها الله فلا أجد » . وتذكرت للإمام ابن الجوزى موقفا من المواقف التى بلغت من الحرج أقصاه فقد خطب الجمعة فى مسجد به سنة وشيعة ، فسأله أحد الحاضرين على الملأ يريد إحراجه فقال له : أيها الإمام أيهما أفضل عند رسول الله (ص) : أبوبكر أم علىّ ؟ وعلم الإمام أن صاحب هذا السؤال ما أراد بسؤاله هذا إلا ابتغاء الفتنة ، والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها ، فألهمه الله بإجابة أدق من ميزان الذهب فقال : أفضلهما عند رسول الله ﷺ من كانت بنته تحته . كلمة من نور فبنت أبى بكر تحت رسول الله ، وبنت رسول الله تحت على ولقد سألت الله أن ينجيني من تلك الشدة التى يُراد بها الفتنة . وما ابتلى المؤمنون بقدر ما ابتلوا بالسجون . وألهمنى الله تعالى من فضله أن أتحدث عن الداء والدواء ، فأشخص الداء وأصف الدواء . فتحدثت عن عوامل البناء ، ومعاول الهدم ، وأردت بذلك بناء الأمم وهدمها ، فلخصت عوامل البناء فى عقيدة راسخة ، ومعنويات عالية نابعة من ثقة صادقة ، وقدوة صالحة ، وأسلوب علمى صحيح ، ولخصت عوامل الهدم فى ضعف الوازع الدينى ، تفسخ الأخلاق ، الانحلال الاجتماعى ، وحمدت الله

على أن نجّانى من شباكهم التى نصبوها وعلى أن ألهمنى الله أن أقول الحق دون أن أسمح للآخرين أن يتسلقوا على كتفى .

يوم الإفراج

الليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ولله تعالى فى كل نفس مائة ألف فرج ، ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً . ولن يغلب عسر يسرين .

استيقظت صبيحة يوم السبت الثلاثين من شهر مارس ١٩٦٨ وقد طالعتنا صحف الصباح أن الزعيم الأوحد سيلقى بيانا مساء هذا اليوم . وبينما أنا أجلس مع بعض الإخوة نطالع الصحف . وقد أرسلت الشمس أشعة هادئة إذا بى أسمع اسمى فى مكبر الصوت فذهبت إلى مكاتب الإدارة . فقالوا لى : أحضر أمتعتك ، ولم أسأل : لماذا ؟ فقد سئمنا السؤال ، وأخذنى أحد المسئولين فى الأمن ، حيث ركبنا سيارة خاصة وكنا ثلاثة : السائق والحارس وأنا ، وساد الصمت العميق فلم يتكلم أحد منا بكلمة ، وأخذت الأفكار تداعب عقلى ، إلى أين ؟ هذا إفراج ؟ لو كان ذلك كذلك لسمعت كلمة تهنئة إذن فماذا يكون ؟ أهو ذهاب إلى سجن القلعة للتحقيق فى قضية اكتشفوها حديثا ؟ أهو ذهاب إلى سجن أبى زعبل مرة أخرى حيث التخزين إلى أجل غير مسمى ؟ كل هذه الأفكار والسيارة تطوى الأرض تحت عجلاتها طيا إلى أن وقفت بنا فى مكان لا أعرفه ورأيت بعض الأفراد يفتحون باب السيارة ويحملون عنى الأمتعة وقد وضع أحدهم ذراعه فى ذراعى واقتادنى إلى داخل المبنى وقد اعتدت أننى إذا دخلت فى مكان مجهول أعلم أن الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود . اعتدت أن أردد هذا الدعاء .. يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث » وهمس بعضهم فى أذنى قائلا : أبشر فإنه إفراج ولكنك ستنتظر فى هذا المبنى قليلا لمقابلة تتم بينك وبين مدير المباحث . وبعد برهة تم اللقاء ، وإذا به يُلقى على محاضرة فى بطولة الزعيم المنهزم ، وأن العرب لم يكن لهم أى وزن فى العالم لولا جمال عبدالناصر هو الذى رفع سمعة العالم العربى وجعل من العرب أمة يحسب لها العالم ألف حساب » .

ويعلم الله ويشهد رسوله أن قائل هذا الكلام قد لا يؤمن به فما جاء جمال عبدالناصر إلا ليحقق ثلاثة أهداف : أولها القضاء على الإسلام ، وثانيها تمزيق الصف العربى ، وثالثة تثبيت مكانة إسرائيل فى المنطقة .. ولما نفذ هذا المخطط المرسوم له قال له أسياده : لقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة فمت . فأخرجوا له شهادة الوفاة فى الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ وشيعوا جنازته الرسمية فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ حيث أدرج فى أكفان القدر . وما أن انتهى حسن طلعت من إلقاء محاضرته حتى شعرت كأننى وضعت عن كاهلى جبلا ثقيلا ، وأذن

لى بالانصراف ، ظننت أننى سأنصرف إلى بيتى ، ولكن قيل لى : إنك ستنتظر حتى الساعة السادسة مساء لمقابلة تتم بينك وبين السيد الوزير ، ومرت الدقائق كأنها شهر والساعات كأنها دهر ، واقترب الوعد المضروب بيننا ، والتقيت به فى مكتبه وأنا أسأل الله العافية . ولقد مدَّ الرجل يده وبها عشرون جنيها وقال لى : خذ هذه النقود البسيطه واستعن بها فى نفقة أولادك فسألته : وبأى وجه أستحقها ؟ إن كانت على سبيل الصدقة فلست فقيرا ، فأرجو أن تعافينى من هذا الحرج . وألح فى الأخذ وألححت فى الرد وعافانى الله منها ، فنزح بحرين بغربالين وحفر بئرين بإبرتين وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين ، وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين خير لى أن أقف على باب غير باب الله يضيع فيه ماء عينى .

وانتهت الزيارة وانصرفت حيث كان بصحبتى أحد الضباط وتوجهنا إلى المنزل بعد غيبة استمرت حولين كاملين ، وطرقت باب المنزل وكانت الزيارة مفاجئة للأهل ، أما الأم فقد انعقد لسانها من الفرحة فلم تستطع الكلام وأما الإخوة فقد فاضت من أعينهم دموع الفرحة ، وصليت لله ركعتين ، وقلت : « الحمد لله على جزيل نعمه فقد أحسن بى إذا أخرجنى من السجن يا فاطر السماوات والأرض ، أنت وليّى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » .

وفود الناس تأتى للتهنئة

ظللت شهورا أستقبل وفودا من الناس يأتون مهنئين جمعت بيننا محبة الله فى الرحاب الطاهرة والبقاع المقدسة ، فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار .

إن هؤلاء الذين جاءو مهنئين قد خلت قلوبهم من الرياء والسمعة والنفاق ، فنحن لم نتعارف على مغنم أو منصب أو منفعة . فلو كان ما يجمعنا شيئا من هذه الأعراض الزائلة لكانت صداقتنا ومحبتنا ومعرفتنا زائلة . لكن الذى كان يربط بيننا أوثق من ذلك وأرسخ . إنها المحبة فى الله التى قال الله تعالى فيها : ﴿ **وألّف بين قلوبهم . لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم** ﴾ .

إن علاقة السياسيين الذين تربطهم الوصولية علاقة لا أساس لها ولا جذور ، بل إنها سرعان ما تنقلب إلى عداء سافر ولا ننسى ما كان بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد أو ما كان بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر .. لكن أصحاب العقائد تقوى صداقتهم على

مر الأيام لأنهم كلما ازدادوا من الله قربا ازدادت قلوبهم مودة وحبا . إنهم على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين . إنهم تحابوا فى الله لغير منفعة أو دنيا . فوالله إنهم لنور ، وإن وجوههم لنور لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يفزعون إذا فزع الناس ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فى حقهم فى حديثه القدسى : « **وجبت محبتى للمتحابين فىّ ، المتباذلين فىّ ، المتجالسين فىّ** » . إنهم الذين قال فيهم الصادق المعصوم ﷺ : « **سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله** » وذكر منهم « ... **رجلان تحابا فى الله ، اجتمعا عليه وافترقا عليه** » وذكر منهم : « **ورجل قلبه معلق بالمساجد** » فما بالك بهؤلاء وهم أوتاد المساجد جلساؤهم الملائكة إن غابوا افتقدوهم فإن كانوا مرضى عادوهم وإن كانوا فى شدة دعوا الله لهم ..

ليس من العسير أن نقيم المصانع ونشيد ناطحات السحاب ، ونبنى البوارج ، وننشىء الجوارى فى البحر كالأعلام ، ونصنع أساطيل الطائرت ، ولكن من الصعب أن نبنى النفوس على العقيدة الراسخة ، والمعنويات العالية والقدوة الصالحة ، وقوة الوازع الدينى ، لذا قال « ريتشارد نيكسون » عندما تولى حكم الولايات المتحدة : « إن الولايات المتحدة لا تعانى أزمة مادية إنما تعانى أزمة روحية . لقد وجدنا أنفسنا أغنياء فى السلع لكننا فقراء فى الروح ، نصل فى قرب عظيم إلى القمر ، ونسقط فى خلاف حاد على الأرض » .

إن المجتمع الإيمانى قد حدد الله معالمه فى قوله : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ .

واقعة عجيبة !!

قديما قالوا : « إن من شر المصائب ما يضحك » فقد زارنى أخ كريم هو عندى ثقة صدوق وسألنى أثناء زيارته : فى أى سجن كنت فى اليوم الثانى والعشرين من فبراير عام ١٩٦٨ ؟ قلت له : كنت فى سجن طرة . ثم سألته : لماذا تسأل هذا السؤال ؟ فقال : أظنك قد علمت أنه فى هذا اليوم قامت مظاهرات صاخبة وعنيفة من طلبة الجامعات : قلت له : علمت ذلك من الصحف . فقال : لقد كنت أحضر مؤتمرا انعقد فى هذا اليوم وقام فيه أحد كبار المسئولين خطيبا ، وكان ذلك المؤتمر فى أحد مقار الاتحاد الاشتراكى وكان المتحدث يعمل وزيرا للمعلومات ، قال فى خطابه : إن الشيخ كشك كان وراء المظاهرات التى قامت

فى جامعة عين شمس . فسألته : من أنباك هذا ؟ قال : رأيته بنفسى يقود سيارة من طراز مرسيدس . فقلت له : أنت لا تعرفه إذ كيف يقود سيارة وهو كفيف البصر . فبهت ، ولكن أهل الباطل لا يستحون ، إنهم يهرفون بما لا يعرفون . ومن الخطأ أن يقول الإنسان ما لا يعلم وأن يعلم قبل أن يتعلم ولا يخاف أن يأثم ، وإذا أثم لا يندم .

وهكذا قامت دولة التقريرات على الأكاذيب والشائعات فضاع ضحية ذلك الأبرياء المظلومون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

فرس الغنى وبقرة الفقير

ذكرتنى هذه الواقعة العجيبة التى قصّها علىّ ذلك الصديق بقصة فيها من الظلم ما يتضاءل بجانبه كل ظلم . فقد ذكروا أن غنيا كان له فرس وكان لجاره الفقير بقرة فولدت بقرة الفقير عجلا ، فقال له الغنى : إن هذا العجل ابن فرس ولابد أن أضمه إلىّ وعبثا حاول الفقير أن يقنعه ، وأخير لجأ إلى القضاء . وكان القاضى رجلا صالحا ، فلما تمثلا بين يديه وسمع لكل منهما ؛ قال القاضى : لا أستطيع الفصل فى تلك القضية هذا اليوم لأننى أشعر بأن دم الحيض قد نزل علىّ ، فقال له الغنى . وقد استولى عليه العجب وأخذته الدهشة : وهل يحيض الرجال يا سيدى ؟ فقال له القاضى : وهل تلد الفرس عجلا يا سيدى ؟

نعم إنه الظلم ، وإن للظالمين لغة يجيدونها ويعاملون الضعفاء بها :

إن الغنى وإن تكلم بالخطا   قالوا أصبت وصدقوا ما قالا
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم   أخطأت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم فى المجالس كلها   تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة   وهى السلاح لمن أراد قتالا

هذه لغة أهل الجاهلية الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ويحسبون أنهم على شىء ، ألا إنهم هم الكاذبون استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان إلا إن حزب الشيطان هم الخاسرون .

العــودة إلى المســجد

طُلب إلىّ أن أعود إلى المسجد الذى كنت فيه قبل دخول السجن وأن أعود فى الجمعة القادمة بعد الإفراج ، فقد أفرج عنى فى اليوم الثلاثين من مارس ، وكان يوم

السبت ، وطُلب منى أن أعود يوم الجمعة الخامس من إبريل دون أن أنال قسطا من الراحة بعد عناء السجن ، وانتشر خبر العودة ، واغتص المسجد بالروّاد من كل حدب وصوب .
ومازلت أذكر هذا اليوم ، فقد كان يوما مشهود من أيام الإسلام ، فقد اخترقت صفوف المصلين إلى المنبر بصعوبة بالغة شعرت كأن القلوب قد قفزت إلى الحناجر فرحاً ، واستضاءت بنور الله بشراً وكرماً ومازلت أذكر موضوع هذه الخطبة التى بدأتها بقولى : « لقد عدت إليكم بمشيئة الله بعد مائة أسبوع » .

قد يجمع الله الشتيتين بعدما   يظنان كل الظن ألا تلاقيا

وقد ألهمنى الله تعالى أن يكون موضوع هذه الخطبة فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله . ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ .

وقد نزلت هذه الآيات فى واقعة خطيرة وفى يوم من أيام الإسلام الخالدة . لقد نزلت بعد أن استشهد أسد الله حمزة وخفّ الرسول إلى مكان الحادث ، وألقى نظرة على الجسد الطهور وقال فى كلمات تفيض حزنا . « والله يا عم ما أُصبت فى أحد كما أصبت اليوم فيك ، وما وقفت موقفا مثل موقفى هذا عليك ولئن أمكننى الله منهم لأُمثلنّ بسبعين أو مائة » .

فماذا كان رد العلىّ القدير على ناشر الهدى وواسع الندى صلوات ربى وسلامه عليه ؟
كان الرد برقية عزاء عاطرة : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ .

وأذكر يومها أننى عرّفت الصبر بتعريفات كثيرة ذكرت منها : أنه مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد للقبائح ، وبأنه ثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات ، وبأنه احتمال الكد .

وقسمته إلى بدنى ونفسى ، وقد يكون النفسّى قناعة وحلما وشجاعة وعفة باعتبار ما ينسب إليه الصبر .

وكان يوما حافلا ، ولقاءً مشهودا ، فلقد ظللت بعد الصلاة أصافح المصلين وأتلقى التهانى بالعودة حتى أدّينا صلاة العصر وما استطعت الانصراف إلا بشق الأنفس ، إنها دولة القلوب إذا عرفت الله أصبحت نورانية تحلق فى آفاق الطهر وساحات الرضا ، إنها الممالك التى أقامها الله تعالى فى صدور عباده المؤمنين ، سعادتها فى رضا الله عنها ، وليس فى الانتشاء بالكئوس المترعة أو الاستمتاع بالغيد الأماليد ، إنما ترى السعادة فى تزكية النفس بالإيمان

وإشراق العقل بالمعرفة وانتصار بالاستشراف إلى العالم العلوى والملأ الملائكى ، إنها تردد هذه الدرة النبوية: « إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى » إنها تهتف هذا النشيد :

فليتك تحلو والحياة مريرة   وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر   وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين   وكل الذى فوق التراب تراب

إنها تشدو بهذه المعانى الرفيعة :

رضاك خير من الدنيا وما فيها   يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها   سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك ياسؤلى ويا أملى   خير إلىّ من الدنيا وما فيها

وسارت سفينة الدعوة باسم الله مجريها ومرساها ، وأخذت تجرى فى موج كالجبال فمن ركب تلك السفينة فقد نجا ، ومن قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء كان من المغرقين ، وازداد إقبال الناس على المسجد ، وجدوا فيه للنفوس روحا وريحانا وجنة نعيم ، وحرصوا على حضور دروس المساء التى كانت تُلقى ما بين المغرب والعشاء .

وهكذا عرفنا الإسلام تصهره الشدائد وتزيده قوة وتكسب عوده صلابة .

فكم زالت رياض من رباها   وكم بادت نخيل فى البوادى
ولكن نخلة الإسلام تنمو   على مر العواصف والعوادى
ومجدك لى حمى الإسلام باق   بقاء الشمس والسبع الشداد

قاهـــر الجبابـــرة

سبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، خشعت الأصوات لعظم ملكوته ، وعنت الوجوه لجلال جبروته ، هو القوى العظيم وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ، سبحانه أوجب الوجود لذاته ، وكتب الفناء على غيره .

فى اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٧٠ جاء من يخبرنى بأن عبد الناصر قد مات وعلىّ أن أعد حقيبة المعتقل فقد تكون هناك حركة اعتقالات واسعة للذين تم اعتقالهم من قبل تأمينا لظهر الثورة . وقلت : سبحان الله آشقى به حيًا وميتًا ؟! إن هذا الرجل الذى ملأ طباق الأرض ظلما وجورا أصحيح قد مات ؟ نعم إنه قد مات ، فليس هناك من يستعصى على الموت مهما كان جبروته وصولجانه . إنه كان فى مؤتمر القمة الذى

عقد بالقاهرة بين الملوك والرؤساء العرب ، كان بينهم مختالا كالطاووس مزهوا بنفسه ، مغرورا كعادته ، ولكنه فى الواقع كان كما قال القائل :

كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

وكما قال آخر :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة

لقد انفض مؤتمر القمة وكان هو فى وداع أمير الكويت ، وعاد إلى بيته حيث كان على موعد مع ملك الموت ، وعبثا حاول الأطباء فقد أحاطوا به حيث قال لهم أحد المقربين : لابد أن تفعلوا شيئا وكأنهم يستطيعون أن يمنعوا الروح من الخروج . وسبحان من يقول : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ .. لقد بذل الأطباء قصارى الجهد فهذا يقيس ضغطا وذاك يقوم بتدليك القلب وذلك يقف على حقيقة النبض ، ولكن .

ومن نزلت بساحته المنايا   فلا أرض تقيه ولا سماء
وأرض الله واسعة ولكن   إذا نزل القضا ضاق الفضاء

ماذا يفعل الأطباء إذا انقضى الأجل ؟

إن الطبيب له علم يدل به   إن كان للمرء فى الأيام تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلته   حار الطبيب وخانته العقاقير

ويرحم الله هارون الرشيد لما شعر بدنو الأجل ، أمرهم أن يحفروا قبره ليراه قبل أن يموت ثم أمرهم أن يحملوه إليه فجلس على شفير القبر وفاضت عيناه من الدمع ، ودعا رب العزة قائلا : « يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه » .

لقد مات جمال عبدالناصر وأُدرج فى أكفان القدر ، وطويت صفحة عمره ، وتنفسنا الصعداء ، وتذكرت قول الصادق المعصوم ﷺ : « إن العبد المؤمن إذا مات استراح بالموت من عناء الدنيا والفاجر إذا مات استراح منه البلاد والعباد والشجر والدواب »

الله أكبر لا شماتة بميت   لكن زوال القحط بشرى للورى

فسبحان قاهر الجبابرة ومحطم القياصرة ومدمر الأكاسرة ، ومبيد الأباطرة :

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة   لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضى   فتفنى جميعا والمهيمن باق

إن الفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله متى شاء .

موقف حرج

مات الزعيم يوم الاثنين وطفح النفاق كما تطفح الأرض بماء المجارى وأرسلوا فى المدائن حاشرين ، وجمعوا الناس لميقات يوم معلوم لتشييع الجنازة يوم الخميس ، وفى هذا مخالفة لشرع الله ، فإكرام الميت فى الإسلام دفنه .

ومرت هذه الأيام ثقيلة متباطئة ، وجاءت ساعة الدفن وأنا أجلس بجانب المذياع أترقب مصير هذا الذى كاد يقول أنا ربكم الأعلى وأوشك أن يصيح بأعلى صوته : أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟ وجىء به على شفير القبر وكأن القبر يناديه بلسان حاله : أيها الجبّار العنيد : أجمعت الدنيا أم الدنيا جمعتك ؟ أتركت الدنيا أم الدنيا تركتك ؟ أعجلت المنية أم المنية عاجلتك ؟ لقد خرجت من التراب وعدت إلى التراب . خرجت من التراب بغير ذنب ، وعدت إلى التراب بكل ذنب ...

لقد وورى الجثمان الثرى وأفضى صاحبه إلى ما قدّم ، وصار رهينا بعمله وكأنى أسمع النداء من ربّ العزة يقول له : عبدى رجعوا وتركوك ، وفى التراب دفنوك ، ولو ظلوا معك ما نفعوك ، ولم يبق إلا أنا وأنا الحى الذى لا أموت .

وهكذا سحب الدهر عليه أذيال النسيان والفناء .

أتيت القبور فناديتها ... فأين المعظم والمحتقر
وأين المدلّ بسلطانه ... وأين المزكى إذا ما افتخر
تساوَوْا جميعا فما مخبر ... وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدوا بناتُ الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلى عن أناس مضَوْا ... أمالك فيما مضى معتبر؟

وورى الجثمان يوم الخميس ، وجاء يوم الجمعة ، وأقبلت أفواج المصلين على المسجد كعادتها عندما يقع حدث أو تنزل نازلة تُضاعف الأعداد بحيث لا يُصبح هناك شبر من الأرض إلا وفيه قائم أو قاعد أو راكع أو ساجد . وفى مثل هذه المواقف تنتشر كتبة التقارير فى أرجاء المسجد ، ويصبح الموقف بذلك عصيبا . فإذا كان سيدهم قد مات فإنه ما يزال يحكم من داخل قبره حتى أن عِلْية القوم إذا مروا بقبره جيئة أو ذهابا كانوا ينزلون من السيارة ليؤدوا له التحية العسكرية أمام قبره .. ما هذه الوثنية وما تلك الجاهلية يا قوم ؟

اجعل بربك كل عز ... يستقرّ ويثبت
فإذا اغتررت بمن يمـ ... ـوت فإن عزك ميت

إذن فالموقف يحتاج إلى حكمة ، والحكمة تقول : **ليست الشجاعة هى التهور ، بل أن** تقول الحق دون أن تسمح للآخرين أن **يتسلقوا على كتفيك ، إن العيون مبثوثة هنا وهناك ،** والظلمة هم الظلمة ، والسجون هى السجون ولابد للمسلم أن **يقول كلمة الحق لذلك** كان الموضوع الذى تحدثت فيه يوم الجمعة قد استوحيته من **الأحداث : فالعاقل من يأخذ من** أحداث الأيام عبرة ، والدهر مدرسة أساتذتها الأيام والليالى .

يا نائم الليل مسرورا بأوله ... إن الحوادث قد يأتين أسحارا

لقد كان موضوع الخطبة جوابا عن سؤال طرحته وقلت فيه : لماذا كانت صلاة الجنازة أربع تكبيرات تُؤدى قياما لا ركوع فيها ولا سجود ؟ واستلهمت الحكمة وعلمت أن الجنازة توضع أمام المصلين ، فلو ركعنا أو سجدنا لتُوهم أن هذا الركوع والسجود لذلك العظيم الذى وُضعت جثته أمامنا ، وجاء التكبير فيها إشارة إلى أن الله أكبر من هذا الجبار وأبقى سبحانه هو القائل : ﴿ **ولا تدعُ مع الله إلها آخر لا إله إلا هو ، كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون** ﴾ .

وسبحان القائل : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون** ﴾ لقد جاءت هذه الآية فى سورة العنكبوت بعد سلسلة من تاريخ الأنبياء مع الجبابرة ، فقد ذكر الله تعالى فى هذه السورة قوم نوح وقوم إبراهيم وقوم لوط كما ذكر مدين وعادا وثمود وقارون وفرعون وهامان ، ثم حكم عليهم بالفناء . كما شبه الذين اتخذوهم أولياء بتشبيه رائع يأخذ بالألباب فقال : ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** ﴾ .

وانقضى يوم الجمعة ، وانصرفت وفى ذهنى هذه الأبيات :

نبكى على الدنيا وما من معشر ... جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الأولى ... جمعوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه ... حتى ثوى فحواه لحد ضيق
خُرْس إذا نودوا كأن لم يعلموا ... أن الكلام لهم حلال مطلق

مصارع الظالمين

﴿ **ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين** ﴾ وحاشا لله أن يكون غافلا ، وكيف يكون غافلا وهو الذى قال : ﴿ **فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين** ﴾ . وحاشا لله أن يكون غائبا ؛ وكيف يكون ذلك كذلك وهو الذى يقول :

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم ﴾ .

فقد تنزه سبحانه عن الغفلة والغيبة ، ولذا قال : **﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾** فإذا كان سبحانه وتعالى يمهل ، فإنه لا يهمل ، إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم . إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته اقرءوا إن شئتم : **﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾** .

وجميل أن يقول أمير الشعراء :

إذا ما ملكت النفوس فابـــ	ـغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأســ	ـر فكيف الخلائق العقلاء ؟!
يحسب الظـــالمون أن سيسو	دون وأن لن يؤيد الضعفـاء

ولى السادات حكم مصر بعد أن هلك سلفه ، وقد كان امتداداً لمن كان قبله فى اضطهاد كل عمل إسلامى ، فلئن كان عبدالناصر يجاهر بالظلم وتعثى زبانيته فى الأرض فسادا ، فإن السادات جاء فقنن هذا الظلم ، فسنَّ القوانين الظالمة التى سموها فيما بعد « سيئة السمعة » وهى قوانين تكاد السماوات يتفطرن منها وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أسمعت بهذه الديمقراطية التى كان يقول عنها : « إن لها أنيابا ومخالب » إنه قول ينطبق عليه قول علماء المنطق : « سلب الشىء عن نفسه » كأن تقول : الإنسان لا إنسان ، وهو ضرب من ضروب السفسطة .

وإذا كانت الديمقراطية التى كان يتغنى بها ، كما كان يتغنى سلفه بالعزة والكرامة – إذا كان لها أنياب ومخالب ، فماذا تكون الديكتاتورية ؟ وما الفرق بينهما ؟ إنها الديكتاتورية فى أسوأ معانيها ، وشر مغزاها ومبناها . لقد جاء يوم على هذا الحاكم قال فيه : « ما يبدل القول لدىَّ وما أنا بظلَّام للعباد » . هكذا قرأ الآية . وهى فى كتاب الله : **﴿ وما أنا بظلَّام للعبيد ﴾** والذى لا يُبدل القول لديه هو الله وحده ، فهذا الوصف خاص بمن يقول للشىء : « كن فيكون » . ولكن ماذا أقول ؟ ومن بين علماء الأزهر من قال عنه : والذى نفسى بيده لو أنَّ لى شيئا من الأمر لرفعت هذا الرجل (يقصد به السادات) إلى قمة لا يُسأل عما يفعل . وقد ردَّ عليه الشيخ عاشور فيما سموه بمجلس الشعب وقال له : هذا كفر يا مولانا ! فقال له الشيخ الوزير : أنا أعرف بالله منك .

وذكرنى هذا الموقف بذلك الشاعر الذى دخل على الحاكم ذات يوم فقال له :

ماشئت لا ماشاءت الأقــدار	فاحكم فأنت الواحد القهار

وقد قيل لعبدالناصر ذات يوم على لسان أحد المنافقين :

بشراى إن صلاح الدين قد عاد	وأصبحت هذه الأيام أعياد
أجمال مالك من بين الأنام أخ	فى الشرق والغرب ممن ينطق الضادا
لو كان يعبد من بين الأنام فتى	كنا لشخصك دون الناس عبادا

ويوم وقعت النكسة وهى فى الحقيقة هزيمة ووكسة ، قام أحد أعضاء مجلس الأمة يرقص فرحا وابتهاجا بسلامة الرئيس كما غصَّت شوارع القاهرة بالمصفقين والهتافين والراقصين المطالبين ببقاء الزعيم بطل الهزائم وقائد ثورة الغصب والنهب والسلب ، كانوا يرقصون وهم المهزومون ، وكان الناس فى إسرائيل يعلنون الحداد ويصلون على قتلاهم ، فاعجب معى لشعب منهزم يرقص ، وشعب منتصر يندب قتلاه .. إنه الفرق بين الإحساس بالمسئولية واللا مبالاة . كانت إسرائيل تنادى بالسلام وهى تستعد للحرب ، وكنا ننادى بالحرب دون أن نستعد لها فوقعت الواقعة ، وكانت خافضة رافعة . لقد طفح النفاق ، وكثر المنافقون ، وحملة القماقم . حتى وقف أحد المدرسين الذين كان السادات تلميذا عندهم يقول فى أحد المحافل أمام سيده السادات « إن فى خلق السماوات والسادات لآيات لأولى الألباب » ثم أضاف قائلا : لقد منح الله سيدة مصر الأولى نصف الجمال ، وقسم النصف الآخر على نساء العالمين .

إن المنافقين فى كل زمان ومكان عالة على المجتمع وقت السراء وسوس ينخر فى عظام الأمة أوقات الضراء ، يُراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وصدق الله تعالى إذ يقول : **﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾** .

وجاء اليوم الذى قدَّم فيه أحد أعضاء مجلس الشعب اقتراحا بأن يُطلق على السادات لقب « سادس الخلفاء الراشدين » وقال له أحد كبار المسئولين فى الولايات المتحدة فى خطاب ألقاه فى أحد المؤتمرات : إن الله خلق السماوات والأرض فى ستة أيام اختص منها يوما خلق فيه المسيح بن مريم وأنور السادات .. والعجب فى هذا الكلام أن هذا المغرور يصدق هذا الهراء . لقد قالوا قديما فى الأمثال : إذا كان المتكلم مجنونا فليكن المستمع عاقلا . ولكن صاحبنا هذا كان أشد جنونا من المتحدث فقد قال للوفد الذى كان يرافقه فى تلك السفرة : « انشروا هذا الكلام فى الصحف المصرية عندما نعود » . ولكن شاء الله ألا يُنشر هذا الكلام فى مصر حتى لا يصاب الناس بصدمة تتعلق بالعقيدة وهى أغلى ما يملكه المسلم . **﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون ﴾** .

وأعجب معى لهذا الذى كان يتشدق بالديمقراطية ويهدد بأن لديه مفرمة ، وأن من خالف أمره واتبع غير سبيله فسوف يفرمه . والمعروف أن المفرمة إنما عُدَّت للحوم الحيوانات ، ولكن الرجل لما كان مطموس البصيرة قاسى القلب ، أصبح لا يميز بين لحم ولحم . وشاء ربك أن يجعل بين هذا الحاكم وبين أقطاب الظلم يوما سموه « ثورة التصحيح » ولم يكن فى حقيقته كذلك ، إنما كان فى الحقيقة « يوم الصراع على السلطة » **﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ﴾** . وكان هذا اليوم يوافق الخامس عشر من شهر مايو ١٩٧١ ، تآمر كل من الفريقين على الآخر فكان الصدام العنيف : فريق مراكز القوى (كما أطلقوا عليه) وعلى رأسه شعراوى جمعة ، وفريق على رأسه السادات . وشاء ربك أن يذوق هؤلاء الزبانية مرارة الكأس وسوء المصير وأن يدخلوا السجون التى دخلها أصحاب الدعوات فالبر لا يبلى والذنب لا يُنسى والديّان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تُدان « ولا تحسبنّ الله غافلا عما يعمل الظالمون » .

يا نائم الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد يأتين أسحارا

قد سيق الظالمون إلى السجون ، فذاقوا وبال أمرهم : **﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذّابا وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾** .

لا أمان للدهر ولو صفا ، ولا أمان للمال ولو كثر ، ولا أمان للسلطان ولو قرب منك .

مازالت الأيام شيمتها الغدر وبعد صفو الليالى يحدث الكدر

فاسألوا التاريخ عن جبابرة العالم . اسألوا التاريخ عن هتلر وموسولينى ، ولينين ، وستالين ، وجانكيز خان وهولاكو ، وعبدالناصر وشاه إيران ، وكمال أتاتورك . وعن فراعنة مصر أين هم ؟ **﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ، ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا . وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجى الذين اتقوا ، ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾** .

الأحقـاد تتحـرك

قد يختلف بعض الظالمين مع بعض ، ولكن تزول الخلافات ويتحد الجهد إذا كان العدو هو الإسلام . لقد سارت مواكب الدعوة الإسلامية فى المسجد سيرا أحمد الله عليه ، فأصبح الناس يملئون كل فراغ يحيط بالمسجد ، وأقبل المسلمون بمسجلاتهم يسمعون

ويسجلون ، يأتون رجالا وراكبين وقلوبهم تطير من الفرح ، فقد صارت صلاة الجمعة عندهم عيداً إسلاميا حقيقيا ، يلتقى فيه الأحباء والأخلاء الأتقياء يتعارفون على محبة الله ويلتقون على طاعته جلّ فى علاه .

وذات يوم من أيام عام ١٩٧١ فوجئت بعد صلاة العصر بثلاثة من المسئولين عن الدعوة فى وزارة الأوقاف ، يدخلون فى غرفة الإدارة ويقولون لى : لقد جئنا من قبل السيد الدكتور الوزير (وكان من شيوخ الأزهر بعدما ترك وزارة الأوقاف) قلت : خيرا إن شاء الله . قالوا والشماتة بادية فى كلامهم وتكاد الفرحة تعقد ألسنتهم ، قالوا : إن السيد الوزير أصدر تعليماته إليك بأن تؤدى خطبة الجمعة القادمة فى مسجد الظاهر بيبرس وسوف يصلى الجمعة هناك . وسألت : لماذا لا يصلى معنا هنا ؟ قالوا : لأن المسجد هناك أوسع وأرحب . قلت : وهنا أيضا أرض الله واسعة . وقلت : إننى إذا تركت المسجد يوم الجمعة ، وفوجىء رواد المسجد بهذا فسوف تكون هناك فتنة وشائعات ، وقد يُخطأ الحساب / فتأتى أوخم العواقب والفتنة نائمة ، ونسأل الله العافية . قالوا : لا شأن لنا ، فنحن مأمورون بكتابة هذه الاشارة فى دفتر الأحوال ، ومن حقك أن تذهب إلى الوزير وتناقشه فى هذا الأمر .. وكتبوا الإشارة وكان نصها : « على إمام المسجد أن يؤدى خطبة الجمعة بمسجد الظاهر حسب تعليمات السيد الدكتور الوزير » . ثم طلبوا منى أن أختم بالموافقة ، ولكنى أبيت ، فقد كنت موقنا بأن الله سيجعل بعد عسر يُسراً ، وقد استقر فى يقينى أن الأمر أشد من أن يكون خطبة فى أحد المساجد الأخرى . وألحوا علىّ أن أختم ، فقلت لهم : من حقكم أن تكتبوا ماتشاءون ، ومن حقى ألا أوافق على ما تكتبون . فانصرفوا . وكان هذا يوم الأحد وكنت قد تهيأت لإلقاء درس المساء بين المغرب والعشاء ، وأحطت المصلين علما بما حدث ، وقد تعمدت ذلك لأننى أعلم أن هؤلاء الذين أصدروا هذا الأمر كانوا يودون أن تقضى الأمور فى طى الكتمان ، ويقلقهم أن يُحاط المصلون علما بمثل هذه المؤامرات ، والله لا يهدى كيد الخائنين .

وبعد أن صلينا العشاء صافحنى أحد المصلين وقال هامسا فى أذنى : اطمئن فلن تُنقل من هذا المسجد ، وسوف يعتذر الوزير عما فعل ، وسألته : من أنت يرحمك الله ؟ فقال : عبد من عباد الله . قلت : سبحان الله ، وما يعلم جنود ربك إلا هو . وصدق الله تعالى إذ يقول : **﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾** فقد وقف العضوان الممثلان للمنطقة فى مجلس الشعب يندّدان بهذا العمل ، ويحملان الوزير مسئولية ما سيحدث من فتن إذا أصرّ على أمره ، وطارت البرقيات إلى المسئولين . وفى يوم الأربعاء من نفس الأسبوع جاء الذين كتبوا الإشارة ليكتبوا إشارة أخرى تنسخها .. وخطبت الجمعة فى مسجدى الذى كان يعتبر قلعة شامخة فى منطقة « دير الملاك » .

لكنى أردت أن أعرف ماذا وراء هذه الإشارة التى أراد بها الوزير أن ينقلنى من مسجد زرعت فيه زرعا فأخرج شطأه فآزره وأراد أن يقتلعنى قبل أن يستغلظ هذا الزرع ويستوى على سوقه ؟ ما هو الدافع إلى هذا ؟ والناس يأتون من أقصى محافظات القطر زرافات ووحدانا . يأتون وهم يعلمون أن لهم بكل خطوة يخطونها إلى بيوت الله رفع درجة ومحو خطيئة وكتابة حسنة .. وطلبت من أحد رواد المسجد وكان صديقا للوزير أن يسأله : ما هو الدافع وراء تلك الإشارة ؟ وسمعته بنفسى وهو يحدثه فى المسرة فقال له الوزير : وهل يعجبك يا أحمد بيه جلوس الناس فى الشوارع ؟ فردّ عليه قائلا : كل المساجد هكذا يوم الجمعة . ثم سأله قائلا : يا فضيلة الوزير هل كان المقصود بتلك الإشارة أن يخطب هذه الجمعة فى مسجد الظاهر ثم يعود إلى مسجده ؟ فأجابه الوزير : لا . لقد أردت أن يتنقل فى المساجد وأن يذهب فى كل جمعة إلى مسجد .. وانتهت المكالمة ، وعلمت أن المقصود من هذا تمزيق الصف وتشتيت هذا الجمع الذى يأتى كل أسبوع ليستمع إلى منهج المتكامل الذى أصبح دعوة منهجية لابد فيها من التسلسل والمتابعة ، فقد أقمت هذا المنهج على أسس أهمها : الندوة والقصة وتجدد الموعظة والضرب على الأحداث والحديد ساخن .. ولكى يكون هناك منهج لابد أن يكون هناك اتصال فى الحديث ، وهكذا أرادوا تمزيق هذا الجمع ، ولكن يد الله تعمل فى الخفاء والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

عقارب البغضاء

لم يكن هذا الموقف الذى هُزم فيه الوزير يمر مرَّ السحاب ، بل لقد ترك فى نفسه جرحا غائرا فأراد أن ينتقم لنفسه ، والنفوس إذا حقدت أظلمت وعميت عن الحق ، وصار صاحبها لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ماأشرب من هواه ، لا يسمع إلا نفسه الأمارة ، وإن لنعم الله أعداء وهم الذين يحسدون الناس على ماآتاهم الله من فضله .

ألا قل لمن بات لى حاسدا ... أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى صنعه ... وأنك لم ترض لى ما وهب
فكان جزاؤك أن خصّنى ... وسد عليك طريق الطلب

إن الحسد إذا غزا القلوب ، أشعل فيها نار العداء ، وصحيفة الحاسد كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا ، فما له من نور .

صبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

توالت الاستدعاءات ، فكلما خطبت خطبة يوم الجمعة ، جاء الاستدعاء يوم السبت ، وكان التحقيق يوم الاثنين .. هكذا من كل أسبوع واختلفت أنواع التحقيق وتعددت نماذجه ، فمرة تكون التهمة الموجهة إلىّ أننى أثير الفتنة الطائفية لأن المسجد يقع فى منطقة دير الملاك وهى إحدى قلاع الصليب . وسألت : ما هو الكلام الذى أثار الفتنة فى الخطبة ؟ وقال المحقق وكان يعمل وكيلا لوزارة الأوقاف لشئون الدعوة : إنك تتعمد ذكر الآيات التى تتحدث عن النصارى . قلت : أليست قرآنا يُتلى إلى يوم القيامة ؟ وذكرنى هذا الموقف بموقف أهل العناد من صاحب الرسالة وقد طلبوا منه أن يأتى بقرآن غير هذا القرآن ، فحزن الرسول لذلك ، فأنزل الله : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياتى إنه لا يفلح المجرمون** ﴾ .

وقال الله تعالى لرسوله الكريم : ﴿ **فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل** ﴾ .

وأخيرا قال لى السيد المحقق بعبقريته الفذة وفهمه العميق وبصيرته النافذة : عليك أن تصعد المنبر ، ولكى تريحنا ونريحك اجعل موضوع خطبتك : قل هو الله أحد ، ثم انزل وصل بالمصلين .. وقلت له : لو كان ذلك كذلك ، لوجهتم إلىّ نفس التهمة وهى إثارة الفتنة الطائفية ، ولقلتم فى مذكرة الاتهام : إنه يقرأ سورة الإخلاص ويقصد بها التعريض بالنصارى المثلثين .. وإذن لا جدوى من هذا التوجيه ، فاللغة بيننا هى لغة الذئب الذى قال للحمل : عكرت علىّ الماء وماذا يصنع أهل الحق بقوم لبسوا جلد النمر ، وقلبوا ظهر المجن ، ولكن لابد أن تسير القافلة والذئاب تعوى . وهل يضر السحاب نبح الكلاب . إن كلمة الحق أقوى من كيد الكائدين والله أشد بأسا وأشد تنكيلا .

عمر بن الخطاب

لم أكن يوما أتوقع أن يصل بهم الإسفاف إلى هذا الحد ، ففى سلسلة الاستدعاءات ذهبت إلى المحقق نفسه ، وإذا التهمة الموجهة هذه المرة يُقال فيها : إنك تتحدث كثيرا عن عمر بن الخطاب . قلت : وأى شىء فى هذا ؟ وقد قال عبدالله بن عباس : أكثروا من ذكر عمر ، فإنكم إذا ذكرتموه ذكرتم العدل ، وإذا ذكرتم العدل فقد ذكرتم الله ، فالله هو المقسط الحكم

العدل . ألم يقل فيه رسول الله ﷺ : « **لو كان فيكم محدثون لكان عمر ؟** » ، فالمقصود بالمحدثين أهل الإلهام . ألم يقل عنه رسول الله ﷺ : « **لو كان نبى بعدى لكان عمر** » ألم يقل له : « **أنت سراج أهل الجنة يا عمر وليبكين الإسلام على موتك ؟** » ثم ألم يقل عنه : « **إن عمر رجل ضرب الله الحق على قلبه ولسانه ؟** » . فأى شىء فى الإكثار من ذكر عمر ؟ . قال المحقق الحصيف الأريب : إنك تقصد بتلك التعريض بالحكام . قلت: إذن فلا داعى إلى أن أذكر شيئا عن عدالة الإسلام ، ولنضرب صفحا عن ذكر حياة رسول الله وأصحابه فإن فى ذكرهم تعريضا بالحكام كما تزعمون . ولماذا تفهمون هذا الفهم ولو كان فيه تعريض أو تصريح أليس الأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر من مبادىء الإسلام ؟ وما وظيفة العالم إذا لم يكن ناصحا ومرشدا ؟ ألم يقل رسول الله ﷺ : « **الدين النصيحه قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ؟** » ، ألم يقل : اثنان إذا صلحا صلحت الأمة ، وإذا فسدا فسدت الأمة ؛ العلماء والأمراء ؟ . إن العالم يجب أن يكون كما قال الله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ وكما قال جلّ شأنه : ﴿ **الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله . وكفى بالله حسيبا** ﴾ .

وتاريخ الإسلام ملىء بمواقف العلماء من الأمراء . قال عمر بن عبدالعزيز ذات يوم للحسن البصرى : عظنا يا تقى الدين وأوجز فقال له الحسن : « يا أمير المؤمنين : صم عن الدنيا وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة » .

وهكذا وقف أهل الدعوة موقف الناصحين الأمناء يوجهون وينصحون لايبتغون من وراء ذلك كرسيا زائلا أو منصبا فانيا ، إنما كانوا كما قال الله تعالى : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه** ﴾ .. هؤلاء هم أصحاب الرسالات ، لم يبيعوا آخرتهم بدنياهم ، ولم يبيعوها بدنيا غيرهم ، لم يسعوا ولم يلهثوا وراء الشهرة والكراسى المزورة ، إنما باتوا على الطوى وقالوا : « نحن فى سعادة ، لو علمت بها الملوك ، لجالدتنا عليها بالسيوف » .. ويوم يتردد العالم على باب الأمير ، فإنه متهم فى دينه ، ويوم يصير هواه تبعا لهوى الحكام يحل ويحرم إرضاء لأهوائهم ، فإنه قد وقع فريسة للشيطان بل صار أستاذا له . قال تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه . فمثله كمثل ، الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾ .

لا تخضعن لمخلوق على طمع — فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة — إلا بإذن الذى سوّاك من طين
فلا تصاحب غنيا تستعزّ به — وكن عفيفا وعَظّم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه — فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك — كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وعيـد وإنـــذار

فى يوم من أيام شهر رمضان ، والحر لاهب ، والصيف قائظ ، والأنفاس لاهثة ، والظمأ شديد ، ذهبت إلى الوزارة للتحقيق معى ، وكان هذه المرة أمام رجل يشغل منصبا سموه : « مدير مكتب الأمن » وكان يعمل من قبل فى سلاح الطيران وخرج منه برتبة اللواء ، ولم يكن تحقيقا بمعنى الكلمة ، إنما كان وعيدا وإنذارا وتهديدا . استعرض الرجل فيه عضلاته أكثر من عقله وتصورته أمامى سرابا بقيعة لايثبت أمام الحقيقة ولا يصمد للأحداث . وبعدما أفرغ كل ما فى جعبته من فحيح وسموم ، قلت له : إننى سأتركك وبين أصابعك قلم وأمامك أوراق ، فاقض ما أنت قاض ، واكتب ما تشاء فإنك لن تغير من المقادير شيئا ، لقد هددنى بالاعتقال والسجون وتخيّل نفسه قادرا على كل شىء ، وخلع على نفسه ثوب الأسد المصور وهو فى الحقيقة فأر صغير ، وكان مثله كمثل البعوض التى قالت للنخلة : أيها النخلة استمسكى فإننى راحلة عنك قالت النخلة : والله ماشعرت بك إذ وقعت علىّ ، فكيف أشعر بك وأنت راحلة عنى .

لقد كنت أستمع إلى تهديداته فأستحضر قوله تعالى : ﴿ **الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** ﴾ ولما هممت بالانصراف إذا به ينتفض ويربت بيده على كتفى ويقول : هل ستذكر هذا الكلام للمصلين ؟ قلت له : إذا وفقنى الله فسوف أعرضه كما حدث ، وإذا به ينقلب من مهدد إلى متوسل ويقول : أرجوك ألا تذكر شيئا من هذا واعتبر كأن شيئا لم يكن . ثم أراد أن يلقننى الكذب فقال : فإذا سألك سائل : لماذا جئت إلى هنا ؟ فقل : جئت لأتسلم جدول الخطب والدروس فى رمضان .. وهكذا كما جاء إخوة يوسف أباهم عشاء يبكون قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب . فمتى كنت أذهب لأتسلم الجدول ؟ ومتى كنت أذهب لأتلقى التوجيهات الخاصة بالخطب ؟ إن الخطبة يجب أن تكون مُوجِّهة (بكسر الجيم المشددة) فإذا صارت موجَّهة (بفتح الجيم) أضحت لا تسمن من شبع ولا تغنى من جوع .

وعـد وإغـراء

لما لم يجد الوعيد ولم ينفع التهديد لجئوا إلى أسلوب الإغراء ، ولكن أى إغراء ؟! لقد فوجئت بالسيد وكيل الوزارة يجلس بجانبى وقد تغيرت لهجته من محقق حازم إلى أخ ملأت قلبه الشفقة والرحمة بى فقال فى عبارة معسولة شممت منها رائحة الخديعة التى تزكم العقول قبل الأنوف . قال لى هامسا : إنك مطلوب بالاسم للسفر إلى ليبيا ثم أضاف مازحا : (وبينى وبينك فيها قرشين كويسين) فإذا كان الختم معك فاختم بالموافقة وسوف نقوم بتجهيزات السفر ونيسر إجراءاته وأنت مستريح . ورددت على الفور : لست فى حاجة إلى مال يأتى من وراء المتاجرة بالعلم ، ولو كان معى الختم ما وافقت فقال مستنكرا : أترفض السفر إلى ليبيا ؟ ولى أحد أقربائى قد بذلت فى سبيل سفره قصارى جهدى ومع ذلك لم أستطع أن أيسر له السفر ، وهذه فرصة إن لم تغتنمها ندمت على فواتها ، فقلت : إننى مستعد أن أتنازل لقريبك هذا عن سفرى ، إن أمكن ذلك ، وأنا بهذا غير متألم ، بل أكون قرير العين مطمئن النفس ، فقال : عجبا لك ، أليس معك أولاد ؟ قد يكونون فى حاجة إلى هذا السفر ، فقلت له : إن الله تعالى قد كتب لنا الأرزاق ، ونحن أجنة فى بطون أمهاتنا . وتذكرت قول رسول الله ﷺ : **« لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا »** . وقوله عليه الصلاة والسلام : **« إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب »** .

إن الروح والرزق لا يملكهما إلا الله **﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾** .. وألح الرجل فى العرض ، وصممت على الرفض ، والظاهر – والله أعلم – أنه كان مضغوطا عليه ليقنعنى بالسفر حتى يستريحوا من وجودى فى مصر داعيا إلى الله ولم يقتنع الرجل بالرفض ، فقال : لن أرسل بردك إلى المسئولين لأننى سأعطيك فرصة أخرى ، وانصرفت وانتهت المقابلة .

عـود على بـدء

وفى لقاء آخر أعاد الرجل علىّ العرض ، وذكر لى أن الراتب الذى سأتقاضاه فى ليبيا يعدل راتبى هنا عشرين مرة ، فقلت له : اسمع هذه القصة : سألوا الحسن البصرى – رضى الله عنه – عن سر زهده فى الدنيا فقال : أربعة أشياء : علمت أن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأن قلبى ، وعلمت أن عملى لا يقوم به سواى فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع علىّ فاستحييت أن يرانى على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرنى فأعددت الزاد للقاء الله .

لا تعجلنّ فليس الرزق بالعجل   الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا   لكنه خلق الإنسان من عجل

إن شر ما يُبتلى به الإنسان أن يصاب بعقدة الخوف من المستقبل فيعيش فى قلق ، ويحيا فى فزع ، فيصير كما يقول القائل :

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعش كئيبا   كاسفا باله قليل الرجاء

إن الرسول ﷺ أقام مملكة السعادة فى النفس عندما قال : **« وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس »** .

نعم :

النفس تجزع أن تكون فقيرة   والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن   أبت فجميع ما فى الأرض لا يكفيها

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يقرءون القرآن بتدبر ، فيقفون عند عجائبه ، ويحركون به القلوب ، أصبحوا وهمهم الآخرة ، فجمع الله عليهم شملهم ، وجعل غناهم فى قلوبهم ، وأتتهم الدنيا وهى راغمة . كانوا إذا قرءوا قوله تعالى : **﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾** كانوا إذا قرأوها ظلوا يبكون ، ويسأل كل منهم نفسه : من أى الفريقين أنا ؟ أمن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أم من الذين اجترحوا السيئات ؟ لذا سميت هذه الآية : بكاءة المؤمنين . لقد علموا أن من أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بين الناس ، ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس . ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته . لقد عرفوا حقيقة الدنيا فعاشوا فى قوله تعالى : **﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾** نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، كلما مرَّ أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ، فإذا مرَّ بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه .

لقـاء غاضـب

ما أشد غضب هؤلاء الذين هاجت عقارب البغضاء فى صدورهم فصدوا عن سبيل الله بعدما باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم ما أشد غضبهم على أهل الحق وما أكثر أذاهم للذين

يؤدون الدعوة إلى الله على أنها رسالة يبتغون بها وجه الله مصداقا لقوله جل شأنه :

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

ومصداقا لقوله تبارك وتعالى : **﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله وكفى بالله حسيبا ﴾ .**

لم يجد الوعد والإغراء بالمال عادوا إلى عادتهم وسيرتهم الأولى فكشروا عن أنياب الغضب وأوعدوا وهددوا ، وذات يوم صائف شديد القيظ كأن شمسه أشرقت من بين الرمال لا من بين السحب ذهبت إلى ديوان الوزارة للتحقيق بناء على استدعاء وصلنى وكان على رأس الدعوة شيخ فصيح اللسان ولكن قلبه لم يكن كفصاحة لسانه بل كان يخشى على كرسيه ومررت عليه فى الوزارة قبل أن أدخل على السيد المحقق وهو وكيل الوزارة مررت على الشيخ بصفته ممثلا للدعوة وعرضت عليه أن يحضر هذا التحقيق ليكون حكما بينى وبين هذا الإنسان الذى لا يعرف للعلم كرامة ولا للعلماء احترامًا ولكن الشيخ اعتذر عن الحضور بلباقة وذلك حتى يجامل الوكيل حرصًا على كرسيه وهو الذى كثيرا ما سمعناه يصرخ على المنابر ويصيح كالأسد الهصور مناديا بأعلى صوته قائلا « إن الفضيلة تذبح .. إن الإسلام يحارب .. إن الباطل يعربد فى عرصات الدنيا » الكلام سهل والبلاغة مواتية والبيان والبديع .. والفصاحة والمعانى .. كلها بين يديه .. ولكن إذا نزل أحدهم ميدان التجربة اصفر وجهه وجلا ، وفر من الميدان فراره من الأسد ، وهذا ماحذر منه صاحب الرسالة العصماء صلوات ربى وسلامه عليه فى قوله : **« أخوف ما أخاف على أمتى منافق عليم اللسان يجادل بالقرآن » .**

مهما يكن من شىء فقد دخلت على المحقق وقد أحضر معه شيخين من شيوخ الأوقاف لهما مكانة فى إدارة الدعوة وكان السؤال هذه المرة .

لماذا تهاجم الإعلام ؟

وقلت إن الإسلام لا يعرف الهجوم لأن الهجوم من صفة الباطل لكن الإسلام يعرف الدعوة إلى الحق وتصحيح المفاهيم المنحرفة ، ولقد انحرف الإعلام عن سبيل الهدى ، واتبع غير سبيل المؤمنين ، فبدلا من أن يكون عامل بناء صار معول هدم ، وهو سلاح له خطره ، حتى قال أحدهم أعطنى شاشة أغير بها شعبا ، وكان كارل ماركس يقول : لأنسين الناس الله بالمسرح ولو كان فى عصره الإعلام المرئى لكان أشد خطرا وأبعد أثرا فى الفساد والإفساد .

فأى شىء فى الدفاع عن الحق أو عندما يرفع اهل الباطل أصواتهم تستمع وتنصت فإذا ما انبرى لهم أهل الحق يؤذون ويستجوبون ؟!

أمن العدل انهم يردون الـ ... ماء صفوا وأن يكدر وردى
أمن الحق أنهم يطلقون الـ ... أسد منهم وأن تقيد أسدى؟!

وما أن فرغت من الإجابة حتى رأيت السيد المحقق يثور ويفور ويتوهج ويتأجج كأنه لديغ نهشته الثعابين أو لدغته العقارب فقلت له : أرجو أن تغير أسلوبك فى التفاهم فلست عبدًا لك ، ولا لغيرك إنما عبوديتى لله وحده ، لا شريك له ولا أسمح لك أن تضرب على المكتب بيديك ، لأننى لست متهما وأنت البرىء ، ولست منحرفا وأنت المستقيم ، فأنا على حق ؛ لذلك فإننى لا أخشاك ، وسوف أتركك عما قليل ، فاقض ما أنت قاض فالحكم لله العلى الكبير !

ونزلت هذه الكلمات عليه كأنها الصواعق خاصة وأن المكان كان به عدد غير قليل من العاملين بالوزارة فرجع إلى صوابه ، بعدما علم أنه سيقابل بكل ما يقول، برد حاسم ، وكعادة الباطل يرجع فى الشدة إلى الاستشارة كما حدث من فرعون عندما قال لمن حوله : فماذا تأمرون ؟ ومتى كان يستشير أو يأتمر ؟! وهو الذى قال : ما أريكم إلا ما أرى وقال : أنا ربكم الأعلى وقال : ما علمت لكم من إله غيرى ، ولكنه لما رأى العصا أمامه شعر بهزة عنيفة فى عنفوانه وبتحطيم وخزى داخل نفسه المستكبرة فرجع يستشير .

هكذا نظر السيد المحقق إلى الشيخين اللذين استدعاهما لحضور هذا اللقاء الغاضب وقال لأحدهما : ما رأى فضيلتكم فى هذا الكلام الذى سمعته ؟ وكان يظن أن الرجل سيجامله ويؤيده ويصفه بالحكمة والحزم لكن الرجل بحق كان على مستوى المسئولية أمام الله فقال له : ما كان ينبغى أن يأخذ التحقيق دور الخصومة بينك وبين هذا الإمام الذى يدعو إلى الله على بصيرة !!

فبهت وخفت صوته وخبأ جبروته فتوجه بالسؤال إلى الشيخ الثانى يستشيره الرأى فقال له الشيخ : ومن الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إذا لم يكن الدعاة إلى الله هكذا ؟!

ثم قال له إن الرجل لم يتجاوز حدود الرسالة ثم ساق له الحديث النبوى الشريف :

« لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

واستطرد قائلا : لو وضعنا الأمور فى نصابها وسمينا الأشياء بأسمائها لقدمنا لهذا الإمام الشكر جزاء ما حمل عنا هذا العبء فى الدعوة ؛ فإن الخير يجب أن يقابل بالخير ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان !!

ثم قام الشيخان وعانقانى ودعوا الله لى بالتوفيق والسداد وشعر ذلك المحقق بانطفاء فى قلبه وكأنه يجلس على الأشواك والحصى، تظله سحابة دكناء ونجم محترق !!

لقـاء عاصـف

فى يوم من أيام شهر أغسطس والشمس تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، وقد سال منها لعاب كالمهل يشوى الوجوه ، توجهت للتحقيق بدعوة من وزير الأوقاف وكان شيخا معمما ولما ذهبت إليه قيل لى : إنه قد سافر إلى مدينة الاسكندرية قلت سبحان الله قوم تهب عليهم نسمات البحر تحمل فى ثناياها قطرات الندى معطرة بأعراف الزهر وقوم يلفحهم قيظ الهواجر من فيح جهنم لكن وكيل الوزارة أرسل إلى من يقول لى : إن السيد الوزير قد كلفه بأن يحقق معى ودخلت للتحقيق وقد أحضر حوله بطانة تؤيده فيما يقول وتؤمن على كلامه .

وكانت التهمة الموجهة هذه المرة : إننى رددت على الذين أرادوا أن يعدلوا قوانين الله فى أحكام الأسرة والمتعلقه بالزواج والطلاق ولما بدأت أتحدث وأرد دخل فى الحديث شخص غريب على التحقيق وسألته ما شأنك ؟ فقال وكيل الوزارة ألا تدرى من هذا ؟! إنه المسئول عن الأمن فى الوزارة فقلت :إن المسألة علمية لا تتعلق بالأمن إنما تتعلق بأحكام الله ولاشأن له بذلك وكانت العاصفة كرماد اشتدت به الريح وأوعد وهدد كعادته ، وانصرفت من عنده وأنا أعلم انه قد بيت شرا مستطيرا ولكن الله غالب على أمره .

عبدالحميد كشك

المجلد السادس

من كتاب

قصة أيامى

عبدالحميد كشك

بسم الله الرحمن الرحيم

استدعاء بسبب القذافى

كان الخلاف محتدما بين حكومتى مصر وليبيا ، وكان بالطبع خلافا سياسيا وقد حدث أن حاكم ليبيا تعرض للإسلام فى أمور كان لابد من الرد عليها ودفع به ذلك الجموح أو جنوح إلى أن ينكر الاستدلال بالسنة النبوية الشريفة . ولقد سمعته بأذنى رأسى عن طريق الإذعة يقول هذا الكلام الذى فيه استهانة بسنة خير الأنام ، بل لقد قال كلاما لا يليق بصاحب الرسالة العصماء .. وكان لابد أن يقول المنبر كلمته ؛ ليرد الحق إلى نصابه ، ويفضح الباطل . ولو كره المجرمون .

وألقيت خطبة بيّنت فيها مكانة السنة من القرآن الكريم ، وأنها بمثابة المذكرة التفسيرية لآيات الكتاب ، كما أنها تأتى مؤكدة لما فيه من معان ، كما تأتى مفصلة لما فيه من مجمل ... وكان ذلك كله بتوفيق من الله وفضله لكن الأمر الذى لم أكن أتوقعه أن يصلنى استدعاء كالعادة ، وذهبت لأقف على حقيقة هذا الموضوع فكان الاستجواب خاصا بمهاجمة القذافى ! لماذا تهاجم العقيد ؟ فقلت : وأى شيء فى هذا ؟ إنه ليس هجوما كما تدعون وإنما هو دفاع عن الحق . لقد كان الأولى بهذا السؤال أن يوجه إلى إعلامكم بمختلف قنواته

مقروءاً أو مرئياً أو مسموعا أو معروضا .. قالوا : ولكن تلك قنوات شرعية . قلت : بل على قنوات قانونية ، أما القنوات الشرعية فهى المنبر الذى ينطق بلسان الإسلام .

وعجبت : أحرام على بلابله الدوح   حلال للطير من كل جنس ؟

أو كما يقول القائل :

إذا قلت يا ليلى استللتم سيوفكم   وإن قلتم يا هند استجبتم ندائى

أ إذا قال غيرى ترددون قوله بشتى اللغات ، فإذا نطق الإسلام ونطقه الحق وقوله الصدق يوضع فى قفص الاتهام ويُكبَّل بالقيود والأغلال : ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكَّرون ؟ أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ».

لكننى علمت أنها سياسة الذئب مع الحمل ، ورددت قول شاعر النيل حافظ إبراهيم :

أمن العدل أنهم يردون الـ   ماء صفواً وأن يكدر وردى ؟!

أمن الحق أنهم يطلقون الـ   أسد منهم وأن تُقيَّد أسدى ؟!

عــالم يخشى الله

ذلكم هو الشهيد الشيخ « محمد حسين الذهبى » تولى وزارة الأوقاف وفوجئت بعد توليه الوزارة بأنه يطلبنى للالتقاء به فى الوزارة وذهبت إلى هناك وفى نفسى أفكار وأفكار : إن الرجل لم يمض على توليه إلا وقت قليل ؛ فهل استطاع المغرضون أن يعكروا ليصطادوا وأن يسعوا بالوقيعة بينى وبينه ؟ لكننى لما التقيت به رأيت فيه الشهامة والرجولة وكرم الأخلاق ، فما أن علم الرجل بقدومى عليه حتى قام إلى باب غرفة المكتب واستقبلنى بحفاوة تدل على أن العلم رحم بين أهله ، وأن الإيمان هو خير مؤلف للقلوب . قال تعالى : **﴿ وألّف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾** .

وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث فيما بيننا ، وقصّ علىّ أنه ما جاء فى إليه إلا لأنه ذهب إلى المسجد يوم الجمعة ليلقانى هناك لكن لشدة الزحام وضيق المكان لم يجد مكانا يصلى فيه ، فصلّى على درج السلم . وكان اللقاء طيبا مثمرا ، فقد كان يدور حول منهج الدعوة إلى الله ، وبيان الخطوط الأساسية لهذا المنهج ، وأهم الصفات التى يجب أن يتحلى بها الداعية .

والأمر الذى جعلنى أشهد لهذا الرجل بالشهامة أن جرس الهاتف دقّ فى مكتبه وكان المتحدث من مجلس الوزراء ، وفهمت من الحديث أنه يقول : إن مجلس الوزراء قد اجتمع

فعليك بالحضور ، وردّ الرجل بصرامة لا تنقصها الصراحة وقال : إننى فى مقابلة مع « الشيخ كشك » ولا أستطيع أن أحضر حتى تتم تلك المقابلة ، ورأيت من الواجب أن أستأذن .. ولما هممت بالانصراف وقف الرجل مودعا واستغرق فى الوداع وقتا وصلنا فيه من الحديث ما كان قد انقطع ، وكأنه لا يريد لهذا اللقاء أن ينقضى لولا الضرورة . وسألنى الرجل الدعاء فدعوت الله له أن يكثر من أمثاله ، فأمثاله قليل ، فالرجولة عملة نادرة والرجال قليل .

جامعــة المنيــا

فوجئت بالسادات يهاجمنى فى أجهزة الإعلام ويقول فى كلماته وباللغة العامية « والأخطر من كده إنهم استدعوا الشيخ كشك ولما لم يحضر قاموا بالمظاهرات » ثم ختم هذا الكلام بكلمة تتقاطر سما وحينا كأنها فحيح الأفاعى . قال : « وانتم عارفين الشيخ كشك بيعمل إيه » وليته بيّن ماذا أعمل . إن عملى – ولله تعالى مزيد الحمد – كان لله ، وفى الله ، ومع الله ، وبالله . **﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت ﴾** . ليته وضّح مدى عملى ، لكنه ترك العبارة هكذا مبهمة ، لتذهب فيها النفس كل مذهب ، ولكن بحمد الله كنت أؤدى عملى والشمس طالعة ، وعلى مرأى ومسمع من الناس . فماذا كنت أعمل ؟! إن الذين يحاولون أن يثيروا التراب على السماء فسوف يثيرونه على أنفسهم ، وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا ، لقد أثارت تلك الكلمة التى قالها مخاوف الناس علىّ . وظنوا أننى لا محالة سأعتقل عما قريب ، وأردت أن أبعد تلك الوساوس عن صدور الناس ، فكان ذلك يوم الجمعة فقد خصصت الخطبة يومها على الثبات على المبدأ . وعشت فيها بين نبيين كريمين ، عشت فيها مع خليل الرحمن إبراهيم عندما أشعلوا له النار ، واندلعت ألسنتها تهتك حجاب الليل ، وجاءه الأمين جبريل وقال له : ألك حاجة إلىّ يا خليل الرحمن ؟ فقال : وكيف أحتاج إليك وأنسى الذى أرسلك ؟ أنا فى حاجة إلى الله وحده . قال له جبريل : إذن فاسأله . قال الخليل : حسبى بسؤالى علمه بحالى . حسبى الله ونعم الوكيل .. وكان الخليل يردد هذه الكلمة عندما ألقى فى النار ، فهى أمان الخائف .. ثم بعد ذلك استشهدت بموقف رسول الله ﷺ عندما طلب منه عمه أبوطالب أن يدع هؤلاء القوم وشأنهم فاغرورقت عيناه بالدمع ، وقال كلمته التى سارت بها الركبان ما تعاقب الملوان واختلف الجديدان . قال : يا عمى . والله لو وضعوا الشمس فى

يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه . فقال له عمه أبوطالب : يا بن أخى قل ما شئت فوالله لا أسلمك إليهم أبدا ثم أنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسَّد فى التراب دفينا
ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

استدعاء من وزارة الداخليـة

استدعانى النبوى إسماعيل وزير الداخلية ، وذهبت إلى مبنى الوزارة وأخذ يذكر لى ما حدث فى جامعة المنيا ، وهو الموضوع الذى ذكره السادات فى خطابه وأخبرنى بأن الجامعة أرادت أن تقيم حفلا ساهرا يقوم فيه بعض المطربين بالغناء ، ولكن الطلبة المتدينين رفضوا إقامة هذا الحفل وقاموا بطبع إعلانات كتبوا فيها أن الشيخ كشك سيحضر إلى الجامعة لإلقاء محاضرة دينية . ثم أضاف الوزير قائلا : ونظرا لما لك من رصيد فى قلوب الناس فقد اجتمعت حشود غفيرة وتوافدت الكتل البشرية من جميع محافظات الصعيد على مبنى الجامعة ، فقام بعض الطلبة وأعلن أن الشيخ كشك كان فى طريقه إلينا لإلقاء محاضرته ، ولكن رجال الأمن منعوه فانفجر الموقف وطافت المظاهرات بشوارع المدينة ، ورفعت التقريرات إلى رئيس الجمهورية بما حدث ، فقلت له : ولكنى لم أعلم بشىء من هذا ؟ فلم توجه إلىَّ دعوة ، ولم أسافر ، ولم أمنع ، فكيف تُكتب على هذه التقريرات دون أى علم منى بما حدث ؟ والله تعالى يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ . فقال لى النبوى إسماعيل : « إننى من جهتى سأقوم بتصحيح ما حدث لدى رئيس الجمهورية » .. وعلمت أنه كلام لا مضمون له إلا أنه يقصد به تهدئة الخواطر ، وانصرفت وأنا أردد هذه الكلمات : « حسبى الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » فقد استقر فى يقينى أن هناك شراً يُبيَّت إذ كيف يحدث هذا الذى كُتبت عنه التقريرات دون أن يعلم صاحب الشأن شيئا عنه ؟ إن هذا لشىء يُراد . لقد بلغ من المأساة أن يقول السادات عنى ما ليس له به علم . أليس من الخطأ الجسيم أن يقول الإنسان ما لا يعلم ؟ وأن يُعلِّم قبل أن يتعلم ، ولا يخاف أن يأثم وإذا أثم لا يندم . سبحانك هذا بهتان عظيم!! وكم فى السجن من مظلومين وكم فى هذه الأرض من ظالمين وسبحان من سيقول للمظلوم يوم القيامة : أيها المظلوم تقدم ، ويقول للظالم : أيها الظالم لا تتكلم ، « هذا يوم لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون » . سبحانك ربى يا صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، يا من تقول للطغاة يوم حساب : « هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون » .

فيا بن آدم :

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

الليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر :

غدا توفى النفوس ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

دعـوة من وزير الإعـلام

فى يوم من أيام شهر رمضان حمل البريد إلىَّ خطابا كُتب عليه « عاجل وهام » فوضعته فى مكتبتى بالمسجد وذلك لاشتغالى بشئون المسلمين الذين جاءوا يستفتون فى مسائل تتعلق بالأحكام الشرعية ، وأنسانى الله أن أفتح هذا الخطاب لأعرف ما فيه ، وكان لله تعالى فى ذلك حكمة بالغة ، إذ بعد أيام من استلام الخطاب تذكرته ولما قُرىء علىَّ عرفت أن فيه دعوة موجهة من وزير الإعلام إلى الدعاة الإسلاميين لحضور اجتماع مع رئيس الجمهورية فى استراحته بمدينة الإسماعيلية وأراد الله أن أفتح الخطاب بعد فوات الموعد ، وكأن الحق جل جلاله أراد أن يكفينى مؤنة التفكير فى قبول الذهاب أو الرفض فهو سبحانه وتعالى يعلم أننى لا أحب التردد على هؤلاء ، ولا مجالستهم « إذا رأيتم العالم يغشى بيوت الأمراء فاتهموه فى دينه » . وكان عبدالله بن عمر يقول : « لا تجعلوا ظهورنا جسورا إلى جهنم » . وكان الإمام ابن الجوزى رضى الله عنه يقول : « إنى لأظل طول الليل أتقلب فى فراشى أبحث عن كلمة أرضى بها السلطان ولا أغضب بها الله فلا أجد » .

لقد أراد الله خيرا عندما أنسانى أن أفتح ذلك الخطاب وشغلنى بأمر المسلمين ، فقد عُقِد الاجتماع بين بعض الدعاة وأنور السادات وكان ذلك ليلة القدر عام ١٣٩٩ من الهجرة - ١٩٧٩ ميلادية . وقد حدث صدام بين السادات وبين الأستاذ عمر التلمسانى قال فيه الأستاذ عمر للسادات : « لو كان بينى وبين أحد الناس خصومة لرفعتها إليك ، أما والخصومة بينى وبينك فإننى أشكوك إلى الله فقال له السادات : اسحب شكواك يا عمر ، فقال له : لا أسحبها لأننى أشكوك إلى عادل لا يُظلم عنده أحد .

وكان لهذه الكلمة وقع عظيم فى قلوب أهل الحق لأنها كلمة حق عند سلطان جائر ، فإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه فقد يُودَّع منهم .. قال ﷺ : « **لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، وإلا ليسلطن الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم**

فلا يستجاب لهم » وقال : « اثنان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسدا فسدت الأمة : العلماء والأمراء » .

فعلى العالم أن يكون ناصحا أمينا . فالدين النصيحة . قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم . وعلى العالم أن يكون قدوة طيبة زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة شجاعا فى الحق ، مخلصا لله قلبه ، متجردا عن الهوى ، عالما بشئون المسلمين ، بصيرا بزمانه . وعلى الأمير أن يستجيب لأهل الحق ، ففى نصحهم خير للرعية والراعى ، فليس عنده ما يطمعون فيه ، وليس لديهم ما يخافونه عليه ، التقى هشام بن عبدالملك وهو خليفة المسلمين بالعالم العارف سالم بن عبدالله فى بيت الله الحرام فقال الخليفة : يا سالم سلنى ماشئت . قال له سالم : أستحى أن أسأل غير الله فى بيته . فلما خرجا من المسجد الحرام ، قال الخليفة للعالم : ها نحن قد خرجنا من المسجد فسلنى ما تشاء . قال العالم الزاهد : أسألك من شئون الدنيا أم من شئون الآخرة ؟ قال : أما شئون الآخرة فلا أملك منها شيئا . فسلنى من أمور الدنيا ماشئت . قال العالم الزاهد : إذا كنت لم أسألها ممن يملكها وهو الله ، فكيف أسألها ممن لا يملكها ؟ ثم انصرف .

ولقد كان لعمر بن عبدالعزيز مستشار خاص هو عمر بن مهاجر قال له أمير المؤمنين : إذا رأيتنى ضللت الطريق ، فخذ بمجامع ثوبى وهزنى وقل لى : اتق الله يا عمر فإنك ستموت .. هكذا تكون علاقة العالم بالأمير . علاقة نصح وإرشاد ، وتواص بالحق ، وتواص بالصبر ، فإذا ما حلّ النفاق محل النصيحة فكبر على هذا المجتمع أربع تكبيرات لوفاته . قال ﷺ : « إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض أولى بكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض أولى بكم من ظهرها » .

لقى أعرابى هارون الرشيد يطوف بالبيت فقال الأعرابى : يا هارون اتق الله . قال هارون : أيها الأعرابى أتناديني باسمى وأنا خليفة المسلمين : قال الأعرابى : إذا كنت أنادى الله جل جلاله باسمه فأقول : يا الله . فكيف تغضب إذا ناديتك باسمك وأنت عبد من عباد الله ؟

دعـوة من شيخ الأزهـر

وجه شيخ الأزهر دعوة إلى رجال الدعوة الإسلامية للبحث فى طرق الدعوة ، ووضع منهج للدعوة . وكنت واحدا من الذين وُجّهت إليهم الدعوة . وكان مكان اللقاء فى إدارة الأزهر . وانعقد الاجتماع بعد صلاة الظهر . وحضره كثير من الشخصيات التى تعمل بالأزهر والأوقاف ،

كما حضره رؤساء الجمعيات الدينية وأدار شيخ الأزهر الندوة بعد أن ألقى كلمة الافتتاح ، وأدلى كل صاحب رأى برأيه ، وجاء دورى فى الحديث فقررت تلك الخطوط العريضة التى لابد من مراعاتها فى منهج الدعوة :

• ذكرت أولا أنه لابد من صدق النية فى إصلاح مسار الدعوة ، فإن النية إذا صدقت آتت ثمرة طيبة فأضحت كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . إما إن تعددت اللقاءات وكثرت الندوات ، ولا نية ولا هدف ، فلن يكون هناك ثمرة لتلك اللقاءات وتصير كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف .

• وذكرت ثانيا أنه لابد من توحيد الكلمة ونبذ الخلافات ، ولنعمل بتلك القاعدة الذهبية التى تقول : « نعمل فيما اتفقنا عليه ، وهو كثير جدا ، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه وهو قليل جدا . فكيف نترك العمل فيما اتفقنا عليه وهو كثير من أجل ما اختلفنا فيه وهو قليل .. لابد من توحيد الكلمة على كلمة التوحيد ولنتخذ من منهج الأنبياء فى الدعوة سبيلا ، فقد كان سابقهم يمهد للاحقهم ولاحقهم يكمل لسابقهم . فكانوا كما ذكر أمير الأنبياء وإمام المرسلين : كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويقولون : هلّا وضعت تلك اللبنة . فأنا تلكم اللبنة وأنا خاتم النبيين » . لقد عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول « لا إله إلا الله » . فصلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله يا من بلّغت الرسالة وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ومحوت الظلمة ، وكشفت الغمة وجاهدت فى الله حق جهاده حتى أتاك اليقين فجزاك الله عنا خير ما جازى به نبيا عن أمته ورسولا عن قومه .

• وذكرت ثالثا أنه لابد أن ينكر كل منا ذاته فى سبيل الدعوة إلى الله وأن يتجرد لهذا الهدف السامى لتكون هجرته إلى الله ورسوله لا يبتغى من وراء ذلك مغنما ولا منصبا مصداقا لقوله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾ .

• وذكرت رابعا أنه لابد من تنسيق تام بين المؤسسات التربوية حتى لا يقع بينها انفصام شكلى فيهدم بعضها ما تبنيه الأخرى كما قال القائل :

متى يبلغ البنيان يوما تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟!

وعنيت بتلك المؤسسات الأسرة والمسجد والمدرسة والإعلام بأجهزته مقروءاً ومسموعا ومرئيا ومعروضا . فإن هذه المؤسسات إذا تم التنسيق بينها آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ، وذلك إذا قامت على بناء النفوس بناءً أساسه القيم الأخلاقية والمثل العليا .. واسألوا التاريخ عن مسجد رسول الله الذى تخرج فيه أساتذة الأخلاق وأساطين الفكر وجهابذة الإصلاح .. اسألوا التاريخ عن المصلح العظيم أبى بكر ، والزعيم الملهم عمر ، والحيىّ الكريم عثمان ، والعبقرى الفذ على ، والمفتى الخبير ابن عمر والمحدث العظيم أبى هريرة والقائد الجبار خالد ، والزاهد الورع أبى ذر ، والفيلسوف البارع سلمان الفارسى .

ماذا قال لى شيخ الأزهر ؟

بعد أن انتهى الاجتماع وهممت بالانصراف ، أخذ شيخ الأزهر بيدى إلى مكتبه وقال لى : لماذا أغضبت الرئيس منك ؟ قلت له : لا أدرى وأريد أن توضح الأمر لى ، فقال : لماذا لم تذهب إلى الاجتماع الذى دعاك إليه فى الإسماعيلية فى رمضان ؟ فقلت له : لأن الله أراد ألا أحضر . وشرحت له : كيف نسيت أن أفتح الخطاب حتى نسيت الموعد المضروب واستشهدت بذلك الحديث القدسى الجليل : « عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد . فإن سلّمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد » .

ثم سألت الشيخ : وما الذى أعلم فضيلتكم أنه غاضب منى ؟ قال : لقد كنت أجلس عن يمينه وقد سأل وزير الإعلام وقال له : ألم يحضر ؟ فقال له الوزير : نعم لم يحضر . فهزّ الرئيس رأسه غضبا . قلت له : يا فضيلة الشيخ ولماذا لم تحاول أن تقول كلمة تطفىء بها غضب القلوب ؟ فقال : إنك تستطيع أن تقدم الآن اعتذار عما حدث . فقلت له : وهل أخطأت حتى أعتذر ؟ فقال : ألا تعلم أننا نعيش فى ظل الرئيس ورعايته ؟ فقلت له بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : إن وليّى الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين . وألقيت السلام وانصرفت وأنا أردد آية الكرسى التى اشتملت على الجلال والكمال والجمال ووصف الله تعالى بالحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ووصفه بالعلىّ العظيم . فهذا هو الذى نعيش فى رعايته وعنايته وخيره ورزقه . يرحم الله شيخ الأزهر فقد لحق بالدار الآخرة وعلم أن ما عند الله خير وأبقى . ولكن أذلّ الحرص أعناق الرجال .

تالله لو عاش الفتى فى دهره ... ألفا من الأعوام مالك أمره
متلذذا فيها بكل نفيسة ... متنعما فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة ... كلا ولا ترد الهموم بباله

ما كان هذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره

قال عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه لتقى الدين الحسن البصرى : يا حسن عظنى وأوجز . قال : يا أمير المؤمنين صم عن الدنيا وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة . وقد قيل للحسن رضى الله عنه : يا تقى الدين ما سر زهدك فى الدنيا ؟ فقال : زهدت فى الدنيا لأربعة أسباب : علمت أن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأنّ قلبى . وعلمت أن عملى لا يقوم به سواى فاشتغلت به . وعلمت أن الله مطلع علىّ فاستحييت أن يرانى على معصية . وعلمت أن الموت ينتظرنى فأعددت الزاد للقاء الله تعالى .

يا ابن آدم :

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذى سوّاك من طين
فلا تصاحب غنيا تستعزبه ... وكن عفيفا وعظّم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

استمع أخى إلى تلك النصائح النبوية :

عليك بالإياس مما فى أيدى الناس وأدّ صلاتك وأنت مودع وإيّاك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وإيّاك وما يُعتذر منه واعلم يا أخى أنه من أصبح حزينا على الدنيا فقد أصبح ساخطا على ربه ، ومن شكا مصيبة نزلت به فكأنما يشكو الله عزّ وجلّ ومن قعد إلى غنى لينال من ماله فقد ذهب ثلثا دينه .

دنياك ساعات سراع الزوال ... وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا غافلا ... وتشترى دنيا المنى والضلال

لدنيا ساعة فاجعلها طاعة . النفس طماعة عودها القناعة

فتن ومحن

فى سنة ١٩٨١ تلبدت السماء بالغيوم وغابت الشمس واكفهرّ الأفق وذلك عندما وقع صدام بين المسلمين والنصارى على أرض مسجد النذير فى حى الزاوية الحمراء فى ١٧ يونيو ١٩٨١ وسالت دماء وتحركت عواصف الفتن وأنذر الجو بأوخم العواقب .

كنت فى تلك الأيام فى إجازة سنوية ، ولما ترامت إلى سمعى تلك الأنباء قلت إن هذا لشيء يُراد، وسألت ربى اللطف فيما جرت به المقادير فقد كانت كل الأحداث تشير إلى أن هناك أمورا خطيرة ستقع ، واستأنفت الخطابة يوم الجمعة ٢٦ يونيو ١٩٨١ ، وكنا على مشارف شهر رمضان ، ودعوت المسلمين إلى اليقظة التامة ، وأن يكونوا على مستوى المسئولية ، وألا يُستدرجوا إلى معارك جانبية يكون وراءها شر مستطير ، فإن معظم النار من مستصغر الشرر ، وذكرت أن هناك قوما يعكرون ليصطادوا ، وذكَّرتهم بأحداث حصلت فى التاريخ ، استطاع اليهود أن يثيروها وينفخوا فى نارها .

وتحركت الأحداث .. وبعد أن انقضى رمضان فوجئت بتحقيقات موجهة إلىَّ لم يسبق لها مثيل . فقد كان التحقيق يدور حول خطبة واحدة ، ولكنه هذه المرة ، دار حول عشر خطب مرة واحدة وقضيت الساعات الطوال بين سؤال وجواب . وكان من أغرب الأسئلة : لماذا لم تذهب إلى مكان الفتنة لتلقى كلمة بين المتصارعين ولقد كنت ساعتها فى إجازة قضيتها فى بلدى ، فماذا كنت أصنع ولم تصلنى أخبار المعركة إلا بعد أن هدأت ؟ ولما استأنفت الخطابة ، وجَّهت المسلمين إلى ما يرضى الله ورسوله بعيدا عن كل غرض دنيوى دنىء .. ولكنى شممت رائحة الشر تفسد الهواء النقى وتعكر الماء النمير .

وبعد انتهاء هذا التحقيق بأيام قلائل جاءنى استدعاء من وزارة الداخلية سئلت فيه عن أمر لم يخطر لى على بال : قال لى المحقق : هل ذهبت منذ أيام إلى أسوان ، وألقيت محاضرة دينية بها ؟ قلت : إن كان ذلك قد حدث فقد علمته ، إننى لم أذهب إلى هناك وبالتالى لم أحاضر . ثم سئلت : ما هو المنهج الذى تسير عليه فى دعوتك ؟ وأجبت : إننى أستمد منهجى من كتاب الله وسنة رسوله ، ففيهما المنهج الكامل الذى ينتظم أصول العقائد وشعائر العبادات ، وشرائع المعاملات ، ومناهج السلوك ، ومبادىء الأحكام ، وقواعد النظام . قال تعالى : **﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾** . وقال ﷺ : « **كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم** » ثم تلا قوله تعالى : **﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم ﴾** وقال صلوات ربى وسلامه عليه : **لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى** » .

وانتهى التحقيق ثم انصرفت .. وبعد أيام استدعانى النبوى إسماعيل ليقرأ علىَّ شكوى قُدِّمت ضدى ، وبعد أن انتهى من قراءتها على مسامعى سألنى : هل وقَّع عليها كاتبها ؟ قال : نعم .. قلت : فما اسم صاحبها ؟ فذكر لى اسم أحد كبار المشايخ . قلت : إن كان ذلك كذلك ، فليس فيما كتبه تهمة توجه إلىَّ إلا كما يقول القائل :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

ثم قلت : إن ما احتوته تلك الشكوى إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن صاحبها قد هاجت عقارب البغضاء فى صدره ، وتحركت ثعابين الحقد فى قلبه ، وأسأل الله له الشفاء من الحسد فهو الداء العضال ...

وانتهى التحقيق وانصرفت ، ولكنى كنت أتوقع أن الأمر ليس أمر شكوى تُقدَّم من حاقد أو تهمة يختلقها حاقد . لقد كنت : أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له أوار، فقد بدأت الصحف الموالية للحكومة تُصعِّد من نبرة التهديد بالاعتقال والوعيد للمستمسكين بالدين ، وسلَّمت الأمر لصاحب الأمر مرددا قوله تعالى : **﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾** .. فنحن عبيده ، والوجود ملكه ، والقضاء حكمه ، وكل الكائنات طوع إرادته .. لقد تنزه عن الشريك ذاته وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة وموجود لا من علة . كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له . عز كل ذليل ، وغنى كل فقير وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ، واحد بلا عدد وقائم بلا عمد ، ودائم بلا أمد ، علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر لايشغله سائل ، ولا ينقصه نائل ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه . **﴿ وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ، وانتظروا إنا منتظرون ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾** .

دع الأقدار تفعل ما تشاء   وطب نفسا إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالى   فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلا على الأهوال جلدا   وشيمتك السماحة والوفاء
يُغطى بالسماحة كل عيب   وكم عيب يغطيه الوفاء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع   فأنت ومالك الدنيا سواء
ومن نزلت بساحته المنايا   فلا أرض تقيه ولا سماء
وأرض الله واسعة ولكن   إذا نزل القضا ضاق الفضاء

سبحانك ربى أدعوك إذا ما احتدمت المحن ، فأجد فى رحابك السكينة والطمأنينة :

يا رب حبك فى دمى وكيانى   نور أغرُّ يذوب فى وجدانى
أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى   أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ولقاؤك حق والساعة حق والجنة حق والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق .. اللهم لك خاصمت ، وبك حاكمت وعليك توكلت وإليك أنبت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى ولا إله إلا أنت .

يا من يجيب دعا المضطر فى الظلم   يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
إن كان أهل التقى فازوا بما عملوا   فمن يجود على العاصين بالكرم

أدعوك بما دعاك به نبيك محمد ﷺ يوم الطائف ، وقد تكالبت عليه قوى الشر من كل ناحية ، فما وهن وما استكان وما ضعف فقد سالت منه الدماء الزاكية عند ما رماه الصبية والسفهاء بالحجارة ، أخذ يردد تلك الكلمات التى تكاد السماوات يتفطرن منها وتنشق الأرض لهولها وتخر الجبال هدا لجلالها : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى : إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

جل جلال الله إذ يقول : **﴿ وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم . قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يُطعم ولايُطعَم. قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾** .

إلهنا ما أعظمك :

ما مسنى قدر بكره أو رضا   إلا اهتديت به إليك طريقا
أمضى القضاء على الرضا منى به   إنى عرفتك فى البلاء رفيقا

الخطبـة رقم ٤٢٥

فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر أغسطس ١٩٨١ صعدت المنبر وكنت أشعر وأنا أصعد درجه بسخونة الأحداث وارتفاع درجة حرارتها ، فقد كان كل شىء ينذر بوقوع أشياء جسيمة وخطيرة ورأيتنى فى مقدمة الخطبة أصرخ بأعلى صوتى قائلا : « اتق الله أيها الظالم ، فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر . إذا غرتك قوتك فانظر إلى قوة العزيز الجبار من فوقك . اتق الله فالبر لايبلى . اتق الله فالذنب لا يُنسى . اتق الله فالديان لايموت . اعمل ما شئت كما تدين تُدان .

يا نائم الليل مسرورا بأوله   إن الحوادث قد يأتين أسحارا

وظننت أردد كلمات فيها الوعيد للظالمين ، وكأنى كنت ألقى خطبة الوداع : **﴿ولاتحسبنّ الله غافلا عما يعمل الظالمون . إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب . فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبنّ الله مخلف وعده رسله . إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران ، وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكّر أولوا الألباب ﴾** .

لقد تحدثت فى هذه الخطبة عن العدالة الاجتماعية فى الإسلام . واستشهدت على ذلك بعصر الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز الرجل الذى كان يخاف الله مخافة من يعتقد أن النار لم تخلق إلا له وحده ، وكان يقول : لو أن مناديا نادى يوم القيامة كل الناس يدخلون الجنة إلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الواحد » ولقد ذكرت أن الزكاة جمعت فى عصر عمر بن عبدالعزيز فلم يجد فقيراً أو مسكينا يأخذها ، وكأن أرحام الدولة عقمت أن تلد مسكينا واحدا فأصدر قرارا إسلاميا يفيض رحمة وأمنا وطمأنينة وسكينة ويشع نورا وبهاء وسنا

وضياء قال فيه : « أيما شاب أراد الزواج فزواجه فى بيت مال المسلمين » فزوج الشباب وبقى من المال شيء كثير وأصدر قراره الثانى الذى يقضى بأداء الدين عن المدينين فأدىَّ الديون من بيت مال المسلمين ، وبقى من المال شيء كثير .. فأصدر قراره الثالث : « إيما عبد كاتبه سيده فأداء ذلك فى بيت مال المسلمين » فأعتق العبيد ، وبقى من المال شيء كثير .. ذلكم هو عمر بن عبدالعزيز الذى سأل عامله على مصر : كيف تركت الناس ؟ قال : يا أمير المؤمنين تركت الناس وغنيهم موفور وفقيرهم مجبور وظالمهم مقهور ومظلومهم منصور .. لقد وسع عدلك جميع الناس ذلكم هو عمر الذى كان فى عصره يرعى الذئب الغنم ، وسئل فى ذلك ، فقال : أخلصت ما بينى وبين ربى ، فأخلص الله ما بين الذئب والغنم .. وما علم الرعاة بموته إلا عندما رأوا الذئب يأكل الغنم .

حمّلت أمرا عظيما فاصطبرت له   وقمت فيه بأمر الله يا عمر

إن الإسلام بعدالته قد وسع الناس أجمعين ، وبرحمته ألّف بين قلوب المؤمنين ، ولو عدنا إلى ينابيعه الصافية ونهلنا من منهله العذب المورود ، ما كان بيننا جائع ولا عريان ولا مغبون ولا مهضوم ، ولأقفرت الجفون من المدامع ولاطمأنت الجنوب فى المضاجع ، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع ، كما يمحو نور الصبح مداد الظلام ، إنه الإسلام الذى يقول بلسان حاله ومقاله : « أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء ، وامسحوا دموع الأشقياء وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

والله لو أكرمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولو طبقنا أحكامه لرفرفت راية الحبيب محمد على كل بلد ، ولو اتبعنا هدى الله ما رأيت فى الطريق سائلا ولا فى البيوت عاطلا ولا فى السجون قاتلا . ألم يقل نبى الرحمة : « **من كان لنا عاملا وليس له مسكن . فليتخذ له مسكنا . ومن كان لنا عاملا وليس له دابة فليتخذ له دابة . ومن كان لنا عاملا وليس له زوجة فليتخذ له زوجة** » .. أهناك عدالة أرحب أفقا وأشمل رحمة من تلك العدالة . لسنا فى حاجة إلى أن نجرب الشرق أو الغرب والله ينادى علينا ويقول : ﴿ **فأين تذهبون . إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾ ألم يقل نبى الإسلام : « **من كان أخوه يعمل تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فإذا كلفتموهم فأعينوهم** » .

وختمت الخطبة وصليت الجمعة ، وألقيت الدرس بعد الصلاة وانصرفت .. ولم أكن أدرى أن هذه آخر خطبة وأن هناك نيات بيّتها الحاكم ، وأن الرياح قد تأتى بما لا تشتهى السفن ولكن الإيمان يهون دونه كل شيء ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا** ﴾ . ولن يصح إلا الصحيح ﴿ **فأما الزبد**

فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض ﴾ . « إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » اقرءوا إن شئتم : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد** ﴾ .

صدقت ربنا وبلّغ رسولك ، فالحرام لايدوم وإذا دام لا ينفع والظلم لا يدوم ، وإذا دام دمّر .

وكم من جبال قد علت شرفاتها   رجال فزالوا والجبال جبال

والناس لو تحولوا إلى كناسين ليثيروا التراب على السماء فلسوف يثيرونه على أنفسهم وستبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسّامة المحيا .

إن الجواهر فى التراب جواهر   والأسد فى قفص الحديد أسود

فلا أمان للدهر ولو صفا ، ولا أمان للمال ولو كثر ، ولا أمان للسلطان ولو قرب منك ، ولا حيلة فى الرزق ولا شفاعة فى الموت ، ولا راد لقضاء الله ، ولا معقب لحكمه ، ولا راحة إلا بعد لقاء الله .

يا بارىء الكون فى عز وتمكين   وكل شيء جرى بالكاف والنون
يا من لطفت بحالى قبل تكوينى   لا تجعل النار يوم الحشر تكوينى

ليلة القبض

﴿ **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا اصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ .

﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾

﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ .

﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** ﴾ .

﴿ **آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ .

صدق الله وبلغ رسوله ونحن على ذلك من الشاهدين أشدكم بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل .

يبتلى المرء على قدر دينه

مايصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها وصبر عليها إلا كفر الله بها من خطاياه .

﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾

﴿ يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾

﴿ ولئن صبرتم فهو خير للصابرين ﴾

﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ .

﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾

﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾

﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكنكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ .

ما أعدل حكم الله وما أسرع حسابه وما أحكم قضاءه وهل أهلك هؤلاء إلا لما قالت لهم رسلهم **﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن** نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

صليت العشاء يوم الأربعاء الثانى من شهر سبتمبر ١٩٨١ واستمعت إلى أسئلة المصلين وكنت كعادتى آخر من ينصرف من المسجد وذهبت إلى بيتى وأخذت أدرس العلم وأملى بعض الموضوعات فى كتاب قمت بتأليفه وقد جعلت يوم الأربعاء موعداً للإملاء وبعد أن انصرف أخى وصديقى عبدالرحمن لزينى الذى كان يقوم بالكتابة ذهبت لأنام وكان بجانبى طفل (مصطفى) الذى بلغ الثالثة من عمره وأخذ كعادته يمطرنى بوابل من الأسئلة حتى

قلت له يا (مصطفى) لقد حان الوقت لننام فقد أوشكت دقات الساعة أن تعلن الثانية . قبل الفجر وما أن قرأت أذكار النوم . اللهم أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت .. ما أن فرغت من قراءة هذا الدعاء وقرأت قوله تعالى : **﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ماآذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾** .

ما أن فرغت من قراءة هذه الآثار الكريمة والآيات المباركة حتى سمعنا صوت أقدام تكاد تدك سلم البيت دكا حتى كأن أصواتها أصوات جند يقتحمون موقعا حصينا وعلمت منذ الوهلة الأولى أنه بلاء قد وقع سألت الله أن يلهمنى الصبر عليه وسرعان ما سمعت بالباب طرقات عنيفة تكاد تصخ الآذان صخاً وفتحت الباب وإذا هجوم عنيف بعدد كبير من الجند وقد دخلوا البيت وأخذ كل موقعه فى أرض المعركة دخلوا على سبعة أطفال فأفزعوهم وأقلقوهم وكانت ساعات رهيبة كأنها الشدائد التى تذهل فيها كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها .

كأن الشمس قد كورت والنجوم قد انكدرت والجبال قد سيرت وكأن السماء قد انفطرت والكواكب قد انتثرت ، والبحار قد فجرت والقبور قد بعثرت !!

وكأنه قد نفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض لذلك علمنا الرسول أن نستعيذ بالله من كل طارق يطرق بليل إلا طارقا يطرق بخير وهذا دعاء يعرف قيمته من ابتلى بأحداث الليالى ورأيتنى أتشبث بلطف الله ممن وجد الله فماذا فقد ؟ ومن كان الله معه فمن عليه ؟

وإذا بليت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربك إنـــه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد أوقرب

ولقد أمرت بأن أرتدى ثيابى للذهاب معهم فعجلت بذلك حتى لا أترك لأهلى لحظة للبكاء والحزن العميق ، وأخذونى بينهم ، وذكرت ساعتها ساعة رحيل الإنسان من الدنيا إلى الآخرة وقد ترك كل شىء وراء ظهره **﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ﴾** ذكرت ساعة ترفرف الروح على نعش الميت وتنادى يا أهلى يا أبنائى لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بنا ويرحم الله أمير المؤمنين على بن أبى طالب وهو يقول للدنيا : « يا دنيا غرى غيرى إلىّ تعرضت أم إلىّ تشوقت هيهات هيهات !! لقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها فعمرك قصير وخطرك حقير آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة

الطريق !! ويرحمه الله عندما وقف بين سكان المقابر يقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم السابقون وإنا إن شاء الله بكم لا حقون أنتم فرطنا إلى الجنة ، ونحن لكم تبع ونسأل الله لنا ولكم العافية يأهل المقابر إن بيوتكم قد سكنت وأموالكم قد قسمت ونساءكم قد تزوجت بغيركم هذا خبر ماعندنا فما خبر ما عندكم ثم انصت قليلا وقال لمن حوله : لو شاء الله لهم أن يتكلموا لقالوا إن خير الزاد التقوى !

ما أشبه هذه الساعة التى خطفت فيها من بين أطفالى السبعة وجذبت بعنف من قوم غلاظ شداد لو وزعت قسوة قلب واحد منهم على أهل الأرض ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب إنسان ممن يسكنون تلك المعمورة لقد أتونا بغته دون ما مقدمات ، ولو أنهم ارسلوا إلى بالحضور إليهم ما امتنعت لحظة فكثيرا ما أرسلوا وذهبت وما تأخرت إن الذى كان له أسوأ الوقع فى قلبى توديع هؤلاء الأطفال الذين باتوا يشكون لربهم ظلم العباد وقد أخبر صاحب القلب الرحيم والخلق العظيم محمد صلوات ربى وسلامه عليه فقال : « **من روع مؤمنا فليس منا** » وقال : « **إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا** » وقد فتح الله أبواب النار لتدخلها امرأة بسبب هرة حبستها لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعا . وفتح الله أبواب الجنة لرجل كان عاصيا ، لكنه نزل بئراً فشرب منها فوجد كلباً يلهث الثرى فقال لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ فى فملأ له خفه ماءاً وسقاه فشكر الله له صنيعه فغفر له فأدخله الجنة ، فهل من مذكر ؟ فهل من معتبر ؟ ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ .

والليالى من الزمان حبالى   مثقلات يلدن كل عجيبا

إن خروج الإنسان من بين أهله بغتة ودون مقدمات فى ساعة متأخرة من الليل وقد هدأت العيون ونامت الطيور فى أوكارها وهجعت الجفون وأغلقت الملوك أبوابها ولم يبق سوى باب الله إن هذه الساعة تدفع الإنسان دفعا أن يستعد فى كل لحظة وحين للقاء الواحد الديان .

تزود من التقوى فإنك لا تدرى   اذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً   وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها   وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

وكم من صغار يرتجى طول عمرهم   وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة   وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

إلـى أيـن

حملت فى سيارة بين الحرس المسلح وكأننى مجرم حرب أو هارب من وجه العدالة وأخذت أقرأ « يس » فقال لى الحرس لا تحسبن علينا فنحن تنفذ الأوامر ووجدت ألا أنشغل عن قرءة القرآن بالرد عليهم فقد أسلمت كيانى كله لمن بيده الأمر وأنا لا أدرى من هؤلاء الذين أجدنى بينهم كما لا أدرى إلى أين يذهبون بى ولماذا ؟ وما المصير ؟ ووضعت كل الاحتمالات بين يدى وتذكرت قوله جل جلاله : ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم** ﴾ وتذكرت قول القائل :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً   على أى جنب كان فى الله مصرعى!!

إن اليقين فى الله يريح النفس ويطمئن القلب والإيمان سكينة إذا تمكنت من شغاف القلوب تكاد تجعل المستحيل ممكنا والملح الأجاج عذباً فراتاً سلسبيلا وما قدر لفكيك أن تمضغاه فلابد أن تمضغاه فامضغه بعزة والمؤمن القوى هو الذى يفوض الأمر لله عند الشدائد .

كن عن همومك معرضا   وكل الأمور الى القضا
وانعم بطول سلامة   تسليك عما قد مضى
فلربما اتسع المضيق   وربما ضاق الفضا
ولرب أمر مسخط   لك فى عواقبه رضا
الله يفعل مايشاء   فلا تكن متعرضا

وقفت بنا السيارة أمام مكان علمت فيما بعد أنه قسم الوايلى وجلست وحدى فى مكان شديد الحرارة أغلقت أبوابه ونوافذه وتصبب الجبين عرقاً غزيرا وفتح الباب بعد ساعة ليدخل علىّ أفراد عرفت بعضهم ولم أتشرف بمعرفه الآخرين .

وكان من بينهم فضيلة الأخ « عبدالمتعال الجابرى » والحاج « حسن أحمد عيسى عاشور » وأفراد آخرون اختلفت أعمارهم كان معظمهم من الشباب الذى ضبط متلبساً بصلاة الفجر وتحركت الساعات وصلينا الفجر وأحضرت لنا سيارة ذهبت بنا إلى مكان كنا نحن أول داخليه لقد تجاذبنا أطراف الحديث فيما بيننا ما الذى جمع بين هذه الأفراد قوم متدينون وآخرون سياسيون شباب وشيب ولكن كانت نهاية المطاف إن الأمر لله وحده ، وغداً تتبين الحقائق وينجلى الغموض ، فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما

طال فلابد من دخول القبر ﴿ **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾ نعم إن سفينه نوح هى النجاه وسيظل الإسلام كما كان ومازال سفينة النجاة ﴿ **وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم وهى تجرى بهم فى موج كالجبال** ﴾ فلمن كانت العاقبه ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبه للمتقين** ﴾ .

﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** ﴾ .

فكم زالت رياض من رباها ... وكم بادت نخيل فى البوادى
ولكن نخلة الإسلام تنمو ... على مر العواصف والعوادى
ومجدك فى حمى الإسلام باق ... بقاء الشمس والسبع الشداد

﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ .

ثـم إلى أيـن ؟!

وتوقفت بنا السيارة أمام مؤسسة السجون فى طرة وأمام سجن الاستقبال وتحت حراسة مشددة وجنود مدججين بالسلاح كأنهم يستعدون لغزو معركة فاصلة على أرض فلسطين فى هذا الجو الرهيب وتلك الأصوات التى ارتفعت تهتك حجاب السكون أمرنا بالنزول واحداً واحداً حتى يفتشونا تفتيشاً دقيقاً حتى يدخل أحدنا إلى الزنزانه وليس معه أى شىء إلا ثيابه التى تستره فالقلم ممنوع ، والورق ممنوع ، وكل شىء ممنوع ، وبعد أن تم التفتيش تحت الزجر والنهر والردع وزعنا على الزنازين وكان فى كل زنزانة عشرة ودخلت الزنزانة رقم ١١ على ٢ .

وأغلق علينا باب الزنزانة وقد صرف لكل واحد منا بطانية للنوم عليها والغطاء بها وما أن جلسنا وتعارفنا حتى أخذ النعاس يغالبنا ، فقد كانت الليلة التى أخذنا فيها من ديارنا ، وانتزعنا فيها ، انتزاعاً من بين أحضان أبنائنا ، كانت ليلة عصيبة على الأنفس والأبدان ولم ندر إلا وقد غشانا النعاس ، وكان رحمة من الله وأمنا ذكرنى ذلك بقوله جل شأنه : ﴿ **إذ يغشيكم النعاس أمنة منه** ﴾ .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا** ﴾ .

واستيقظنا على وقع أقدام الحراس تذرع المكان جيئة وذهابا كما كان لأصواتهم وقع ثقيل على الآذان ومرعب ومفزع للنفوس ، وكأننا أسرى حرب فى أيدى الأعداء وما أن استيقظنا حتى أخذ كل منا يسأل الآخر لماذا جىء بنا إلى هذا المكان ؟! فمن قائل : إنه بسبب أحداث الزاوية الحمراء وما سمى بالفتنة الطائفية !!

ومن سائل : لماذا جىء بالشيوعيين معنا ؟

ومن قائل : ولماذا جىء بالسياسيين والنصارى ؟

إنها أنماط من البشر يموج بعضها فى بعض لا يكاد يجمع بينها قاسم مشترك أعظم، لقد اعتقل فى هذه الليلة على حد قول المسئولين (١٥٣٦) اختلفت مذاهبهم ومشاربهم وتناقضت أفكارهم واتجاهاتهم ولكن غدا سيظهر ما كان مستورا وتتضح الأمور ولم تغرب الشمس فى هذا اليوم يوم الخميس الثالث من سبتمبر حتى كانت المجارى قد طفحت فأغرقت البطاطين وكان موقفا عصيبا فباب الزنزانة قد أغلق والأرض قد غطتها المياه النجسة وماء الشرب قد انقطع وقد جاءوا لنا بطعام تأباه النفوس النظيفة كما وصفه الأخ الأستاذ « سليمان الشيمى » الذى كان يعمل مدرسا للعقيدة فى معهد شبين الكوم الأزهرى وهو رجل عوضه الله عن نور بصره ذكاء قلبه وصف الشيخ سليمان طعام السجن فقال :

اما الجبن فهو قطعة من جبال العصور الوسطى ، لا يعرف حقيقته إلا علماء طبقات الأرض ، وأما الفجل فإنه خشب مبلول ورءوسه تصلح أن تكون أرجلا للطبالى .

واما الفول فإنه يصلح لفض المظاهرات السلمية ، وأما البصارة فهى طعام الأثيم تغلى فى البطون كغلى الحميم ، وأما اللحوم فما أكل منها إنسان صحيح إلا أصيب بنزله معوية حادة .

لقد جاءوا لنا بخبز هو إلى قطع الأسمنت أقرب وجبن انطبق عليه وصف الشيخ وعسل أسود حامض تشمئز النفوس من رائحته وطعمه ولكن فمن اضطر فى مخمصية فإنه لابد أن يكره على الأكل .

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا ... فلا يسع المضطر إلا ركوبها

لقد كان اليوم يوما عبوسا قمطريرا وكانت الليلة ليلاء ، وكان شرها مستطيرا ولكنا كنا نستعذب كل هذا العذاب ابتغاء مرضاة الله إذ كان هدفنا ساميا طاهرا زاكيا فكان سجننا كسجن يوسف الصديق الذى قال : ﴿ **رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه** ﴾

فلم يرض أن ينام على الحرير فوق السرير في معصية الله ورضى أن ينام على الحصير راضيا بطاعة الله ، وقال ما قال في السجن عندما خرج وفرج الله كربه قال للسجن : وداعًا يا مقبرة الأحياء يا مشمت الأعداء ، يا محزن الأصدقاء ، يا مفرق الأحباء نعم .. إن أصحاب المبادىء السامية والقيم الأخلاقية ، والمثل العليا ، يجدون في الليمونة المالحة شرابا حلوا لذيذا.

ومن تكن العلياء همة نفسه — فكل الذى يلقاه فيها محبب
وما أنا ممن تأسر الخمر لبه — ويملك سمعيه اليراع المثقب
نفى النوم عن عينيه نفس أبية — لها بين أطراف الأسنة مطلب
إذا أنا لم أعط المكارم حقها — فلا عزنى خال ولا ضمنى أب

لقد تعلمنا الثبات على المبدأ من أستاذ الإنسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ، عندما قال في ثبات الجبال وسمو النجوم : **« والله لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه » . .**

إن مواقفه ﷺ تزاحم الشمس في الجلاء وتناطح الجوزاء ، وترتفع بالنفوس من غياهب الظلمات وفلول الدجى وحضيض الغبراء إلى بلاذخ العلياء ، ترتفع بها من كثافة المادة ، إلى لطافة الروح ومن مدارج الثمال ، إلى مسابح الأفلاك في أبراجها .

إنه الصامد الثابت ، إذا ادلهمت الخطوب واحتدمت المحن .

أليس هو الذى قال يوم الطائف لربه : إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ؟! أليس هو الذى وقف يوم حنين يعلنها عالية مجلجلة مدوية في جموع المشركين : أنا النبى لا كذب أنا ابن عبدالمطلب سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يا داعيا للواحد الديان — يا هازما للبغى والطغيان
يا رافعا صوت العدالة عاليا — ومؤذنا في الناس بالقرآن

صلى عليك الله يا علم الهدى ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم

ولست أبالى حين أقتل مسلما — على أى جنب كان في الله مصرعى

إن أصحاب المبادىء ليس أمامهم هدف إلا رضا الله ، وليس لديهم غاية إلا رفع راية الحق ، ولسان حال كل منهم يقول :

فليتك تحلو والحياة مريرة — وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر — وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين — وكل الذى فوق التراب تراب

الخطاب المشئوم

علمت أن المصلين في مسجد عين الحياة قاموا بمظاهرات بعد صلاة الجمعة لما علموا أننى قد تم إلقاء القبض علىّ كما قام المصلون في مسجد النور بنفس المظاهرات احتجاجاً على اعتقال عدد من الدعاة إلى الله وكان الناس ينتظرون الخطاب الذى سيلقيه السادات يوم السبت الخامس من سبتمبر وقد سمى بعض أصحاب الأقلام وحملة المقامق والمباخر : سموا الخامس من سبتمبر بثورة ثالثة فتكون الثورة الأولى يوم الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ، والثانيه يوم ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ، والثالثة يوم ٥ سبتمبر سنة ١٩٨١، وهكذا يفعل المنافقون بالمجتمعات، إنهم موجودون في كل زمان ، وإنهم عالة على المجتمع في السراء ، وسوس ينخر في عظام الأمة في الضراء . هل يسمى يوم الظلم ثورة ، ثورة على من ؟ ثورة على المظلومين ؟ أم ثورة على المبادىء والقيم ؟ إن كان ذلك كذلك فإنها ثورة ظالمة والظلم مرتعه وخيم ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾ .

إن عبدالناصر كان ظالماً ولكن السادات قنن هذا الظلم وسن له القوانين الجائرة .

لقد أجرى استفتاء على القرارات التى اتخذها ضدنا وأدخلنا بمقتضاها السجون حتى صارت مهزلة استفتاء في مصر تضحك الثكالى ، وصارت هناك نكته تتردد على ألسنة الناس في الانتخابات والاستفتاءات تقول هذه النكتة: إن الرئيس الأمريكى كارتر طلب من السادات أن يرسل له النبوى إسماعيل ليجرى الانتخابات بينه وبين ريجان ، وذهب النبوى وأجرى الانتخابات على ما يرام واتصل به السادات وسأله قائلا : يا نبوى ، من الذى فاز في الانتخابات أكارتر أم ريجان ؟ فقال النبوى : لا هذا ولا ذاك . قال السادات إذن فمن ؟ قال له: سيادتكم يا فندم ؟ أيستفتى على الظلم وتكون نتيجة الاستفتاء كالعادة : خمس تسعات ؟!! إن هذا لشىء عجاب !!

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنـــه ضحك كالبكـــا

تباركت ربنا وتعاليت يا من قلت وقولك الحق :

﴿ ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين ﴾ .

يرحم الله أمير الشعراء إذ يقول :

يا له من ببغـــــاء	عقلـــه فى أذنيــه
أثــر البهتــان فيــه	وانطلى الـزور عليــه
ملأ الجو صراخــــاً	بحيـــاة قاتليــه

ووقف السادات يخطب فى الخامس من سبتمبر وقد فقد صوابه ، وطاش لبه ، وكأنه أصيب بالسعار فأنشب أنيابه ومخالبه فأوعد وهدد وأرغى وأزبد وحمل على الجماعات الدينية . وخص الإخوان المسلمين بنصيب الأسد كما سفه كبار الدعاة الإسلاميين ، فرمى هذا بالجنون وذاك بالبلاهة ، وذلك بأنه ، مرمى كالكلب ، وبقى أن يقول : ما علمت لكم من إله غيرى أو أن يقول : أنا ربكم الأعلى . كما خصنى فى بيان من بياناته بتهمة كاذبة خاطئة ، ذكر فيها أن الرئيس السودانى جعفر النميرى قد شكانى إليه ، وأننى أهاجمه ، وماذا يحدث لو صح هذا ؟ أهناك أحد فوق مستوى التوجيه ؟ أليس من عادة الأمراء والصالحين أن يسألوا العلماء المخلصين النصح ؟ ألم يقل أحد الناس لعمر بن الخطاب اتق الله يا أمير المؤمنين ؟ فنهره أحد الجالسين فقال الفاروق : لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إن لم نقبلها . ألم يقل عمر ذات يوم: رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى ؟ ألم يقل لأهله اتقوا الله يا آل عمر فإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم ؟ ألم يقل الله تعالى لنبيه ومصطفاه **﴿ يا أيها النبى اتق الله ﴾** ألم يقل خليفته أبوبكر بعدما بويع بالخلافة أيها الناس لقد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوموني أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم . الصدق أمانة والكذب خيانة ، القوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له .

﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ .

إن تعجب فاعجب لأمر هؤلاء الذين يتأججون ناراً إذا قيل لهم اتقوا الله فى الرعية **﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾** جل جلال الله إذ يقول : **﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾** لقد كان لخطاب السادات فى الخامس من سبتمبر أسوأ الأثر على قلوب الناس فقد أوعد بأنه لن يرحم . ونسى خلقه ، نسى أن من لا يرحم لا يُرحم ، ونسى أن الرحمة لا تنزع إلا من شقى . ونسى ما رواه أبوبكر عن سيد الخلق عن الأمين جبريل عن رب العزة أنه قال : إن أردتم رحمتى فارحموا خلقى .

نسى قول الصادق المعصوم : الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

وقوله : اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه .

صدق رب العزة إذ يقول « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً » .

يـوم التحقـيق

مرت بنا الأيام ثقيلة متباطئة كأنها سلسلة من الجبال تمشى الهوينا فالعيش فى السجون نكد ، والناس قد ذبلوا وصاروا أشباحاً خاصة كبار السن الذين أصبحوا لا يستطيعون أن يقوموا شدائد الحبس ، والذين قد أصيبوا بأمراض مزمنة ، وأصبح الطعام لا يلائم حالتهم الصحية ، فمريض الضغط لا يجد إلا جبناً قد قطع من جبال الملح . ومريض السكر لا يجد إلا عسلا أسود حامضاً تزكم رائحته الأنوف ، ولولا أن تداركنا الحق بلطف بره لكنا نحن نرى أجساماً هامدة !!

أعلنوا أن التحقيقات قد بدأت وبين آونة وأخرى كانوا ينادون على الأسماء التى سيحقق معها ، وكان موعدى مع التحقيق يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر سبتمبر

ففى صبيحة هذا اليوم جيء بقافلة من السيارات وفى موكب مسلح تتقدمه الدراجات البخارية التى تمرق مروق السهم من الرمية وقد انطلقت الصفارات تفسح الطريق لسيارتنا التى حشرنا فيها حشراً ، وأخذ الموكب يتهادى شيئاً فشيئاً لا يخضع لقواعد المرور لأنه فوق القوانين كلها حتى استقر بنا المقام أمام المبنى الذى سيحقق معنا فيه ، ودخلت على المحقق ووجه أسئلته ، وكان أكثرها يدور حول الخطب ، ومن الأسئلة التى مازلت أذكرها هذا السؤال الخالد : لماذا تهاجم نيللى ؟ وكأن نيللى هذه قد أصبحت ذاتها مصونة لا تمس !! ومن أرادها بسوء قصمه الله وكأنها كنانة الله فى أرضه أو مبعوثة العناية الإلهية ، وشمس الهداية الربانية لسيدة المصونة ، والجوهرة المكنونة !!

قلت : إنما كنت أطالب بتأخير فوازيرها حتى تصلى القيام ، فقد صرفت الناس عن صلاة القيام فى رمضان ثم قلت : لقد صارت كالهلال نصوم لفوازيرها ونفطر لفوازيرها ، وتوالت الأسئلة :

ماذا كنت تقصد بقولك على الذين يتمثلون بعمر أن يحذو حذوه ؟

قلت : وأى شيء فى هذا ؟ ثم أى تهمة فى تلك الكلمة ؟ أليس الدين كما أخبر الصادق المعصوم : النصيحة ؟ قالوا : لمن ؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

وسئلت لماذا تهاجم عيد الأم ؟

قلت : لأنه بدعة وفدت علينا من باريس فليس فى الإسلام ما يسمى عيداً إلا عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، فحرام علينا أن نظهر البر بالأم يوماً واحداً ، ونعقها ثلاثمائة وأربعة وستين يوماً .

قيل : لماذا تهاجم الكرة ؟ قلت لأنها تحولت إلى رياضة مذمومة وأصبح ضررها كالخمر والميسر ؟ توقع العداوة والبغضاء بين الناس وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

وسئلت : لماذا تهاجم الإعلام ؟

قلت : لأنه أصبح يهدم ولا يبنى ويبدد ولا يصون ويورث ضعف الوازع الدينى والتفسخ الأخلاقى ، والإنحلال الاجتماعى ، والناس على دين إعلامهم . وقد قيل أعطنى شاشة أغير بها شعباً ، فهل شل هذا الإعلام الذى يدور حول فيلم أو مسرحية ، أو مسلسل ، أو فوازير وقد سرت السموم الناقعات فى خلاياه ، هل مثل هذا يبنى النفوس القوية المتصفة بالصدق المتحلية بالأمانة لقد استطاع الإعلام أن ينسى الناس أن شهر رمضان شهر القرآن والصيام والبر والنصر والقدر والقيام ، وبدر . وهكذا كانت الأسئلة . وهكذا أجبت وتم التحقيق وعدت إلى السجن أنتظر ما سوف تتمخض عنه القضايا . وكان الإيمان

دائما يضع نصب عيوننا قوله تعالى : ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ .

مصـــرع الســـادات

لا تركنن إلى القصور الفاخرة — واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل — يارب إن العيش عيش الآخرة

تباركت ربنا وتعاليت الوجود ملكك والقضاء حكمتك أنت مالك الملك وملك الملوك أنت الواحد فى ذاتك لا قسيم لك ، الواحد فى صفاتك لا شبيه لك ، الواحد فى أفعالك لا شريك لك .

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة — لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضى — فتفنى جميعا والمهيمن باق

أنزلت يا إلهى على نبيك كتابا فيه نبأ من قبلنا وخبر ما بعدنا وحكم ما بيننا . هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أذله الله . ولقد قص الله تعالى علينا فى هذا الكتاب قصص الذين تجبروا وتكبروا ونسوا أن للكون إلها يدبر أحكامه فيفعل ما يشاء ، كما نسوا أن فى السماء مملكة قد كُتب عليها ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ كان من هؤلاء الجبابرة رجل غرّه ملكه فنادى وقال : ﴿ **أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾ . وغرّه سلطانه فقال : ﴿ **يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين** ﴾ . وغرّه جبروته فقال : ﴿ **ما أريكم إلا ماأرى** ﴾ .

وقص علينا قصة رجل غرّه ماله فنصحه قومه خمس نصائح :

قالوا له : ﴿ **لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين – وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة**
– ولا تنس نصيبك من الدنيا .
– وأحسن كما أحسن الله إليك .
– ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ .

فمــاذا قال ؟

لقد غرّه المال فأنساه ذكر الله قال إنما أوتيته على علم عندى فقال له صاحب العزة والجبروت : ﴿ **أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ . لقد سيطر عليه سلطان المال وطغى عليه رنين الذهب وبريق الفضة ﴿ **فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يُلقاها إلا الصابرون** ﴾ .

وَنسى قارون أو تناسى أن الدنيا إذا حلت أوحلت وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت جفت ، وكم من قبور تبنى وما تبنا ، وكم من مريض عدنا وما عدنا ، وكم من ملك رفعت له علامات فلما علامات !!

قال تعالى : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** ﴾ .

صدقت يا ربنا وبلّغ رسولك الذى قال : « **إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم . إن الله يُمل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته** . أقرءوا إن شئتم : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ .

ويشاء ربك أن يعقب على هاتين القصتين فى سورة القصص قصة الفرعونية الحاكمة والقارونية الكانزة بقوله : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** ﴾ . كما شاء ربك أن يختم السورة نفسها بقوله : ﴿ **ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون** ﴾ .

وعــــد بالزيــــارة

دع المقادير تجرى فى أعنتها ... ولا تبيتنّ إلا خالى البـــال
ما بين غمضة عين وانتباهتها ... يغير الله من حال إلى حال

وعدتنا إدارة السجن بمناسبة قرب عيد الأضحى المبارك بفتح باب الزيارات حيث يزور الأهل ، ولكنهم جعلوها زيارة سلكية . أى يحول بيننا وبينهم حاجز سلكى يشوه جو الزيارة بحيث يكون بين الزائر والمزور حائل سلكى لا يسمع كل منهم الآخر إلا إذا تكلم بصوت مرتفع فما ظنك بأصوات العشرات ترتفع فى وقت واحد ، وهو وقت الزيارة وكل منهم ينادى على الآخر يسأله عن حاله وحال بلدة وذويه .. الحق أن هذه الزيارة

التى وُعدنا بها كان لها أسوأ الأثر فى النفوس ، حتى أننى أذكر عندما التقيت بالدكتور عبدالله رشوان ، وكان معتقلا معنا قلت له : هل ستزور إن شاء الله ؟ فقال : لا ، إنها زيارة لا تليق إلا بالقردة ولسنا قردة .. وعقدت كل زنزانة جلسة فى تلك الليلة ليناقشوا تلك الزيارة هل يقبلونها ؟ وعقدنا جلسة فى زنزانتنا ، واختلفت الآراء بيننا . فمنا من قبل الزيارة وقال : « شىء أحسن من لا شىء » ومنا من رفضها وقال : إن ضررها أكثر من نفعها إذ أنها ستثير الأحزان ولن نتمكن من إجراء أى حديث مع الأهل حيث اللقاء غير مباشر . وسئلت الرأى ، فقلت : أنا لا أقبل ولا أرفض ولكن أفوض الأمر إلى الله وحده ، ودعوت الله قائلا : اللهم رضّنا بقضائك وبارك لنا فى قدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت .

وجاء الليل وقد أغلقت أبواب الزنازين ، والزيارات ستبدأ صبيحة الغد والقلوب واجفة وقد برّح بها الشوق للأهل والأبناء ولكن لا يعلم ما فى غد إلا الله وحده .. وقبيل الفجر جاء من يوقظنى ويكاد يصاب بالجنون من شدة الفرح ويقول : لم لقد قتل السادات ولكنى لم أعره التفاتا فقد ظننت أن هذا نوع من الشائعات التى يُقصد بها تغيير الجو الكئيب . ولكنى صحوت على المعتقل كله يهتف بصوت واحد : لا إله إلا الله . وكادت جدران السجن تهتز من هدير الحناجر التى تهلل وتكبر حتى اضطُر مأمور السجن أن يذيع نبأ موجزا قال فيه : لقد توفى الرئيس السادات وأعلنت حالة الطوارىء من أسوان إلى الإسكندرية وازدادت الأصوات حماسة ، فقد أصبح الخبر يقينا لا مراء فيه وسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . سبحان من يقول : ﴿ **إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يُرجعون** ﴾ ومن يقول : ﴿ **وإنا لنحن نحيى ، ونميت ونحن الوارثون** ﴾ .

ومن يقول : ﴿ **إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير** ﴾ .

كيـف بلغنا نبأ موتـه ؟

كنا ممنوعين من سماع الإذاعة وقراءة الصحف بحيث صرنا ممنوعين من الاتصال بالعالم الخارجى لا ندرى عنه شيئاً كما يقول القائل :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلا نحن بالأموات فيها ولا الأحياء
إذا جاءنا السجان يوماً لحاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

وكان معنا أخ اشتهر بإذاعة الانباء عن طريق الأخوة الذين يتم اعتقالهم ويحملون أحدث الأخبار من الخارج ورأت إدارة السجن أن ينتقل هذا الأخ الذى يذيع الأنباء بحيث يعزل فى الزنازين الأرضية حتى لا يتمكن من إذاعة الانباء وشاء ربك أن يكون نقله خيراً فيوم مات السادات جيء ببعض المعتقلين ليلاً حيث وضعوا فى الزنازين الأرضية بجانب هذا الأخ فسألهم هل من جديد حدث فأخبروه بأن السادات قد قتل وإذا بهذا الأخ يصيح بأعلى صوته وكان جهورياً صاح قائلاً : بيان هام وظل ينادى حتى استيقظ الجميع وانتظروا إذاعة هذا البيان فقال : أيها الاخوة لقد قتل السادات اليوم والله على ما أقول وكيل وشهيد وكأن هذه الكلمة كانت شرارة كهربائية فقام الجميع مكبرين مهللين حيث اهتزت جنبات السجن وكأن زلزلا يرج الأرض رجاً ويبس الجبال بساً ولم تجد إدارة السجن مفراً من تأكيد الخبر وفى الصباح أمرت إدارة السجن بانتداب بعض الإخوة الذين سمعوا نشرة الأخبار فى المذياع وأبلغوها المعتقلين .

وهكذا كانت المأساة بل سفاهة حاكم استبد برأيه حتى جاء اليوم الذى قال فيه ﴿ ما يبدل القول لدى ﴾ وقال فيه « لن أرحم » وبلغ من نفاق المنافقين أن بعضهم أراد أن يلقبه بسادس الخلفاء الراشدين كما نسبوا فاروقاً من قبله لآل البيت الطيبين الطاهرين عن طريق الحسين بن على رضى الله عنهم أجمعين والتاريخ حافل بمفتريات الطغاة لقد قال النمرود بن كنعان من قبل : أنا أحيى وأميت وقال فرعون : أنا ربكم الأعلى وقال : ما علمت لكم من إله غيرى ، وقال : ما أريكم إلا ما أرى . وقال قارون : إنما أوتيته على علم عندى . قال تعالى : فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

ان قوى الشر مهما تحالفت وإن الطغاة مهما مكروا أو دبروا فمثلهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون .

لقد قتل السادات بين رجال جيشه وفى حصنه المنيع وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله . فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقد خاب من افترى قتل يوم الزينة بعدما جمع الناس لميقات يوم معلوم وعلى مرأى ومسمع من العالم أجمع وعن طريق أجهزة الإعلام .

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾

﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ .

إن يد الله تعمل فى الخفاء فذروها تعمل بطريقتها الخاصة فليس لأحد ان يستعجلها أو يقترح عليها اقرأ قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا إلى ثمود اخاهم صالحاً أن أعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون . قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون . قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل انتم قوم تفتنون . وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآيه لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ قف عند قوله تعالى : ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ وعند قوله تعالى : ﴿ **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون** ﴾ وعند قوله تعالى : ﴿ **وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون** ﴾ وعن قوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿ **وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾ قف عند هذه الآيات تجد يد الله تعمل فى الخفاء وتجد ان قلوب بنى آدم جميعا بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد تصرفها كيف يشاء ﴿ **ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** » هل أغنت قوته عنه شيئاً ؟ إن الله تعالى لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الارض وقد قال سبحانه : ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا** ﴾ .

فيا ابن آدم إذا اغرتك قوتك فلماذا استحكمت فيك شهوتك وإذا غرك غناك فارزق عباد الله يوماً .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم ترجع عقباه إلى الندم

تنام عينك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

ماذا بعد قتل السادات

لقد ألغوا الزيارة التى وعدونا بها فقد حدثت أحداث جسام فقد رحلنا إلى سجن أبى زعبل ومرت بنا الذكريات الأليمة عبر السنين الخاليات فهذا هو السجن الذى كنا فيه من قبل سنة ١٩٦٧ وقد ساءت حاله حتى أصبح لا يطاق حيث أسراب الذباب نهاراً وجحافل البعوض ليلاً بالإضافة إلى ما تحتويه دورات المياه من سوء دونه أى سوء أضف إلى ذلك سوء التغذية والتهوية وما حل بنا من إرهاب شديد فقد كان ينادى على بعض الأسماء فى منتصف

الليل ليذهب بهم إلى سجن الاستقبال حيث دارت رحى العذاب بعنف ولقد عشنا فى هذا الجو الكئيب من التاسع والعشرين من اكتوبر إلى السابع والعشرين من نوفمبر حيث ذهب بنا إلى مستشفى ليمان طرة ولقد كان الله لطيفاً بنا حيث لم نمكث فى هذا المستشفى أكثر من يوم ولست أدرى لماذا سمّوه مستشفى فليس فيه ماء ولا غذاء ولا هواء ولا دواء ولكننا لا نقف كثيرا عند الأسماء !!

أسماء مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

ولقد ذهب بنا من هذا المستشفى إلى سجن ملحق طرة حيث غادره السياسيون الذين تم الافراج عنهم فى محفل مهيب . ومكثنا بالملحق يوماً حيث ذهب بنا إلى عنبر المعتقلين بالقصر العينى حيث تنفسنا الصعداء فكانت الزيارة لا تنقطع من الأهل والأحباء والأبناء والأصدقاء وتم الإفراج عنا بعد ذلك فى اليوم السابع والعشرين من يناير ١٩٨٢ خرجت من السجن إلى البيت ولكن لم يصرح لى بالعودة إلى المسجد وظللت رهين البيت حتى كتابة هذه السطور فى يوم الأحد التاسع والعشرين من شهر شوال ١٤٠٦ السادس من شهر يوليو ١٩٨٦ .

مجال التأليف والكتابة

فى سنة ١٩٦٩ رأيت أن يتعاون اللسان مع القلم وأن يكون بجانب المسمع مكتبة حتى يسيرا فى طريق تثبيت العلم فألفت كثيرا من الكتب خرج منها إلى النور خمسة وأربعون كتاباً وإليك أسماؤها .

١ - طريق النجاة .
٢ - البطولة فى ظل العقيدة .
٣ - رياض الجنة .
٤ - نفحات من الدراسات الإسلامية .
٥ - بناء النفوس .
٦ - أصحاب النفوس المطمئنة .
٧ - حياة الإنسان .
٨ - مع التوحيد والاخلاق .
٩ - اليوم الحق .
١٠ - صور من عظمة الإسلام .
١١ - إرشاد العباد .
١٢ - أضواء من الشريعه الغراء .
١٣ - البعث والجزاء .
١٤ - شفاء القلوب .
١٥ - حقائق وحديث عن الروح .
١٦ - حديث من القلب .
١٧ - الصلاة رأس العبادات .
١٨ - الإسلام واصول التربية .

١٩ - الوصايا العشر فى القرآن الكريم .
٢٠ - ورثه الفردوس .
٢١ - الهدى والنور .
٢٢ - جدد السفينة .
٢٣ - أعد الزاد .
٢٤ - الفتوحات الربانية .
٢٥ - رحلة إلى الدارة الاخرة .
٢٦ - صم عن الدنيا وأفطر على الموت .
٢٧ - الصراع بين النفس والمال .
٢٨ - اخلص العمل فإن الناقد بصير .
٢٩ - صاحب الرساله العصماء .
٣٠ - سياحة مباركة .
٣١ - فضل القرآن يوم الحشر .
٣٢ - مصارع الظالمين .
٣٣ - الصلح مع الله .
٣٤ - الناس بخير ما تناصحوا .
٣٥ - الوقوف بين يدى الله تعالى .
٣٦ - على مائدة الإسلام .
٣٧ - غذاء الروح .
٣٨ - هالات من نور .
٣٩ - ساعة صفاء مع النفس .
٤٠ - فى رحاب السكينة .
٤١ - الإسلام شجرة طيبة .
٤٢ - إذا ذكر الله نزلت الطمأنينة .
٤٣ - رسائل رحمانية النفحات .
٤٤ - من جوار الخلق إلى رحاب الحق .
٤٥ - منطق الحق المبين .

وسوف أشير إشارة موجزة إلى ما اشتملت عليه بعض هذه الكتب من موضوعات .

طريق النجاة

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

القرآن العظيم وأثره فى النصر .
من قضايا القرآن الكريم .
أضواء من السنة على طريق الهدى .
العقيدة والتضحية .
الطريق الأقوم .
القرآن : طريق العصمه من خطوات الشيطان .
دروس خالدة .
عواقب الإعراض عن ذكر الله .
توجيهات ربانية .
مسالك الشيطان مع الأنسان .
نتائج الإعراض عن ذكر الله : النتيجة الأولى .
النتيجة الثانية .
توجيهات نبوية .
وقفة اعتبار وعظة .
نتائج الإعراض عن ذكر الله النتيجة الثالثه .
من صور يوم القيامة .
نتائج الإعراض عن ذكر الله النتيجة الرابعة .
حرص الرسول ﷺ على أمته .

البطولة فى ظل العقيدة .

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

الحروب الصليبية .
كيف بدأت تلك الحروب ؟
نهضة مباركة .
طريق النجاة .
فجر جديد .

الرباط فى سبيل الله .
العزة فى الجهاد .
عماد الدين والجيوش الغازية .
بعد وفاة عماد الدين .
نور الدين ومدينة الرها .
الحملة الصليبية الثانية .
ذكر الله فى الجهاد .
أهداف البطولة والعقيدة .
صلاح الدين الأيوبى .
شهادات من الأعداء .
الجهاد المقدس .
صلاح الدين ومبدأ الشورى .
مع سير الأحداث .
حول بيت المقدس .
منزلة المسجد الأقصى .
إن الدين عند الله الإسلام .
صلاح الدين وموقعة حطين .
صلاح الدين وبيت المقدس .
نهاية صلاح الدين .
خواطر وذكريات .
الحملتان الصليبيتان : الرابعه والخامسة .
حصار دمياط .
الحروب الصليبية السادسة .
عودة بيت المقدس إلى أيدى المسلمين .
ملك فرنسا والحملة الصليبية السابعة .
موقعة دمياط .
نهاية الحرب الصليبية السابعة .
التقاء بين الاستعمار والصهيونية .
اقتراحات لجنه بانرمان
ما هى الصهيونية ؟
مؤتمر بال .

الصهيونية حركة سياسية عنصرية
خطوات تنفيذ المخطط الاستعمارى الصهيونى .
هل هناك حملات بعد ما ذكرنا .
الحروب الصليبية وأثرها فى أوروبا .
الحضارة الإسلامية فى أوربا .
أثر الحروب الصليبية فى انحطاط العالم الإسلامى .

رياض الجنة

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

رحلة مع القرآن العظيم .
أقوال الأئمة فيه .
أقوال المستشرقين فيه .
الحث على مدارسة القرآن .
فضل تعلم القرآن .
آراء المنصفين من علماء الغرب فى القرآن الكريم .
الترغيب فى تلاوة القرآن .
دعوى باطلة .
اعرف للقرآن حقه .
حاجة العالم إلى الإسلام .
الرشوة المقنعة .
من المفلس ؟
حرمة الدماء فى الإسلام
حرمة المال فى الإسلام .
الإسلام : شريعة العدل والرحمة .
حق الرعية على الراعى فى الإسلام .
الإسلام شريعه الأخلاق .
محمد نبى الرحمة ﷺ .
شرعة الحق فى الإسلام .
الرسول رحمة مهداة .
المساواة فى الإسلام
العدالة فى الإسلام .

محمد : جعل من العبيد سادة .
زيد بن حارثة
بلال بن رباح
سلمان الفارسى
أهميه الدعوة .
ذكر الله تبارك وتعالى .
حقيقه الذكر . ما هو الذكر؟
فضل الإكثار من ذكر الله
فضل مجالس الذكر
أدب الذكر .
فضل من قال لا إله إلا الله .
فضل التسبيح والتحميد .
الترهيب من عدم ذكر الله .
فضل الاستغفار .
الذكر المضاعف وجوامعه . .
ما يقوله من اغتاب أخاه المسلم
أذكار النوم
المؤمنون الصادقون

بناء النفوس

وقد اشتمل هذا الكتاب على الموضوعات التالية :

العقيدة وأثرها فى التربية .
التربية فى مكة
كل مولود يولد على الفطرة
العقيده الصحيحة
العقيدة ومراقبة الله تعالى
الداء والدواء
الإيمان والإخلاص
إنما الأعمال بالنيات
الإخلاص فى الجهاد

النفاق
كلمة عن الوفاء
الرياء وأثره فى النفوس
الإيمان وبناء النفوس
سورة النحل ووحدانية الله تعالى
عالم الحيوان
عالم النبات
نعم الله على خلقه
العلم الحديث ووحدانية الله تعالى
خطرات فى الحب الإلهى
وقفه تأمل
ولا يظلم ربك أحدا
فضل الله على عباده
عسل النحل وفوائده
إلهى ! ما أعظمك
العقاد والرد على المبشرين
الإيجاد والعدم
هذا خلق الله
عالم الطير
لمحة قرآنية
الحكمة الإلهية العليا
صاحب اللواء المعقود
قواعد البناء القوية
العدل ونتائجه والظلم وعواقبه
صلة الرحم
الظلم ظلمات يوم القيامة
الوفاء بالعهود فى الإسلام
مشيئة وحكمة وتوجيه

رحمة الإسلام

الشذوذ الجنسى
ما عقوبة من أتى هذا العمل ؟
ما رأى الفقهاء ؟
الاستمناء
آراء الفقهاء فيها
ما العلاج ؟
ماذا يقول العلم ؟
الزهرى
الزهرى والجهاز العصبى
السيلان
إصابة المرأة
القرحة الرخوية
القرحة الأكالة
ماذا يقول العلم عن الشذوذ الجنسى ؟
أكلة الربا – ما هو الربا ؟
ما حكمه ؟ . حرمة الربا بطريق السنة
قوة الإيمان بالله .
فضل الجهاد فى سبيل الله .

نفحات من الدراسات الإسلامية

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

القرآن قانون الله السماوى لعباده
صراع بين الحق والباطل
دروس فى العقيدة
فضل لا إله إلا الله
وصايا نبوية
سنة الله فى عباده
عظة وعبرة .
منطق العدالة الإلهية
عود على بدء

وجه الحقيقة فى قوله تعالى : ﴿ **لتفسدن فى الأرض مرتين** ﴾ رأى جديد فى تفسير الآيات القرآنية من أول قوله تعالى : ﴿ **وقضينا إلى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين** ﴾ .

بشرى للمؤمنين
المسجد الأقصى
عمر فى بيت المقدس
محمد ﷺ أستاذ الإنسانية الأعظم
نظرة الإسلام إلى الأموال العامة
مع أمير المؤمنين عمر إلى بيت المقدس
موقف هرقل من الهزائم
محمد نبى الرحمة
معركة القادسية
من أخلاق الإسلام
أين طريق النصر ؟
عوامل النصر

ورثة الفردوس

ويشتمل على الموضوعات التالية :

قد افلح المؤمنون
المؤمنون
صفات المؤمنين
فضل المساجد
فضل تنظيف المساجد
فضل السعى إلى المساجد
فضل الصلاة فى المساجد
على كل عضو صلاة
كثرة الخطى إلى المساجد
أبواب الخير كثيرة
كيف تمحو خطاياك وترفع درجاتك ؟
فضل المشى فى الظلم إلى المساجد
فضل الخروج لأداء الصلاة

دعاء مأثور
أحب الأشياء إلى الله وأبغضها إليه
فضل الجلوس فى المساجد
الشهادة بالإيمان
مجالس مباركة
أوتاد المساجد
للمساجد آداب
تخطى رقاب الناس
المرور بين يدى المصلى
دفع المار بين يدى المصلى
الصلاة
الصلاة مطهرة من الذنوب
خطبة للنبى ﷺ
الله تعالى يسأل الملائكه عن عباده
أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة
مكانة الصلاة فى القرآن
عناية الإسلام بالصلاة
أقوال العلماء فى تارك الصلاة
الحد الشرعى لتارك الصلاة
موقف جليل
المحافظة على أدائها فى وقتها
رؤيا نبوية كريمة
شروط الصلاة
شروط صحتها
متى تكون الصلاة مقبولة ؟
الصلاة المفروضة
النوافل
فضل النوافل
صلاة التطوع فى البيت
أقسام صلاة التطوع

السنن الراتبة
سنة الفجر
عناية الشرع بأدائها
ما ورد من الدعاء بعد أدائهما
سنة الظهر
ما عددها
سنة المغرب
سنة العشاء
سنن غير مؤكدة
ركعتان أو أربع قبل العصر
ركعتان قبل المغرب
ركعتان قبل العشاء
صلاة الوتر
عدد ركعاته
النوم على طهارة
قيام الليل
منازل الناس ثلاث
احياء الليل بتلاوة القرآن
وقت قيام الليل
عدد ركعات قيام الليل
الطريقه الفاضلة

مع التوحيد والأخلاق

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

الرسالة الخالدة
هذا خلق الله
لا مجال للصدفة فى هذا الكون
الكون يتحدث عن وحدانية الله
آيات ناطقه بالحكمة والقدرة
آية أخرى
آية الله فى الماء

آية الله فى نظام الفلك
الشمس والأرض والقمر والنجوم
عناية الله بالكوكب الأرضى
حقيقة علمية
من عناية الله بعباده
لحم الخنزير
الإيمان طمأنينة وأمان
الدواء الناجح
تأملات وتنبيهات
إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق
مقارنة بين عصرين
كان رسول الله قرآنيا
تحذير وإرشاد
فضل تلاوة القرآن
نفحات مباركة
من أقوال الرسول عن القرآن
الذين يحبهم الله
الإحسان
التوبة والطهارة
حقيقة التوبة
ويحب المتطهرين
نظرة فى الآية الكريمة
ماذا يقول الطب الحديث
آلام الحيض
عرضة الحائض للأمراض
أذى وضع المرأة أثناء الحيض
الأذى الذى يصيب الرجل
الناحية النفسية فى المنع
أحكام شرعية
دم النفاس
ما يحرم عن حائض والنفساء .

دم الاستحاضة
احكام تتعلق بالغسل
مسائل تتعلق بالغسل
ما هى الأغسال المستحبة ؟
اتباع رسول الله ﷺ
الأســوة الحسنة
رجاء الله واليوم الآخر
ذكر الله تعالى .
آداب الذكر
أنواع الذكر
الصلاة على رسول الله ﷺ
كيفية الصلاة على رسول الله ﷺ
بركات الصلاة على رسول الله ﷺ
من أبخل الناس ؟
الصلاة على المختار يوم الجمعة وليلتها
هؤلاء أحبهم الله
التقوى .
يحب الصابرين
من أقوال الرسول ﷺ فى الصبر
المقاتلون فى سبيل الله .

أصحاب النفوس المطمئنة

ويشتمل على الموضوعات التالية :

حديث الغزالى عن الموت
سكرات الموت
الأعضاء عند سكرات الموت
رؤية المطيع لملك الموت
رؤية الملكين الحافظين
الميت يعرف أين مقعده

الموت حق على جميع العباد
وفاة النبى ﷺ
موقف الصحابة بعد وفاة الرسول
كيف غسل رسول الله ﷺ
لنا فى موت رسول الله عبرة
البقاء لله وحده
أبوحازم وسليمان بن عبدالملك
حسن الظن بالله
عثمان بن عفان يبكى
اصطلحوا مع الله
كلمات طيبة
من يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله
الخوف من الله
ما يرقق القلوب
نبذة عن وفاة أبى بكر الصديق رضى الله عنه
وفاة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه
كيف استشهد عمر ؟
شهادة النبى ﷺ لعمر
شهادة على بن أبى طالب لعمر
وفاة عثمان بن عفان
سخاؤه وجوده
خصائص عثمان
وفاة على كرم الله وجهه
كيف توفى رضى الله عنه ؟
فصل فى كلام الصالحين وهم على فراش الموت
عبدالملك بن مروان
معاذ بن جبل وسلمان الفارسى
بلال بن رباح
عبدالله بن المبارك
إبراهيم النخعى

ابن المنكدر
عامر بن عبدالقيس
ابن المبارك
أبوالقاسم الجنيد
العارف بالله الكتانى
يوسف بن أسباط
الإمام الشافعى
أحمد بن خضرون
تذكرة لأولى الألباب
يا ابن آدم
فى زيارة القبور
الحديث عن الموت وحقيقته - إلى النفخ فى الصور

ساعة صفاء مع النفس

الصدق هو الأساس فى بناء النفس المطمئنة
الصدق مع النفس
صدق النية وأثره فى تيسير الأمور
الصدق منجاة
الصدق أول الطريق إلى الجنة
إن تصدق الله يصدقك
صدق السلوك
الصدق من أمهات الفضائل
الصدق والصدقة
جامعة العبادات الإسلامية
مدرسة الصوم
الصيام بين الإيمان والتقوى
الروح والنور وليلة القدر
آية الدعاء بين آيات الصيام
صيام التطوع بعد رمضان

الإسلام شجرة طيبة

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

اعرف للقرآن حقه
من حق القرآن على كل مسلم
نصائح لأهل القرآن ومستمعيه
شهادات الأجانب من علماء الغرب للقرآن الكريم .
أنوار القرآن من وبركات الأوقات
نفحات ربانية
ذلك الفضل من الله
سيد الأيام
منحة إلهية لأمة خير البرية
يوم المزيد
فيه ساعة إجابة
لا تيأسوا من روح الله .

الصراع بين النفس والمال

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

(الغنى فى القناعة)

صدق الله العظيم إذ يقول « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » .

عندما نطالع آيات الله ونتصفح كلماته فى كتابه ونتعهد تلاوته نطالع دروسا ونفوسا نعم : ما أجمل القرآن إذا عرض دروس على النفوس و ستحتص العواقب واستنتج العبر به الكلام الوحيد الذى نلتمس فيه حكمة البالغة والعبرة الخالدة التى لا نجد لها تفسيرا أعظم من كلام رسول الله ﷺ فاستمع إليه ﷺ وهو يقول فى هذا المجال الذى نحن بصدده « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس »

مـن حـوار الخلـق
إلى رحـاب الحـق

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

البعث حق
منهج القرآن فى إثبات البعث
الجنة والنار
تكذيب الجاحدين
أطوار خلق الإنسان
المجادلة فى البعث
قوم أحياهم الله بعد موتهم
أصحاب موسى عليه السلام
دحض شبهة باطلة
قصة العزير
إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام
البعث فى القرآن الكريم
عالم الأرحام
منح إلهية للطائعين
دلالة احياء الأرض على البعث
النموذج الثانى فى الاستدلال على البعث
كلمة العلم فى إثبات البعث
عود على بدء
شبه المنكرين ودحضها
النفخ فى الصور
عجب الذنب
حديث عن الصور
ما هو الحشر ؟
أول من تنشق عنه الأرض ؟
أرض المحشر .

إلى أين تصير الأرواح ؟
كلمة عن تلاق الأرواح
أعمال الأحياء والأموات
المثابرة
الناس على مراتب فى لقاء ربهم
السؤال فى البرزخ
الأحاديث الدالة على حقيقه نعيم القبر وعذابه
عبر بالغة
الأسباب المنجية من عذاب القبر
عظمة الاستعداد للموت
أدب الذكر
استحباب الاجتماع فى مجالس الذكر
فضل من قال لا إله إلا الله مخلصا
فضل التسبيح والتحميد والتهليل
فضل الاستغفار
ذكر كفارة المجلس

دعـوة أسـأل الله قبولهـا

كنت دائماً أدعو الله قائلا : اللهم إنى أسألك علما نافعاً ورزقا واسعاً وشفاء من كل داء وكثيرا ما سألت الله أن يوفقنى لتفسير كتابه حتى أتوج أعمالى بهذا العمل الجليل وقد وفقنى الله تعالى فعكفت على كتابة التفسير تفسيرا توخيت فيه اليسر والوضوح والتركيز والعناية بالابحاث العلمية وقد وصلت فى تفسير حتى كتابه هذه السطور أول ذى القعدة ١٤٠٦ السابع من يوليو ١٩٨٦ وصلت إلى قوله جل شأنه فى سورة التوبة :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾

وقد كان من بشير اليمن أن يختتم هذا الكتاب (قصة أيامى) بهذه الخاتمة سعيدة « الفوز العظيم » إنها أمنية كل مسلم وهدف كل مؤمن ورجاء كل مخلص منهم جعلنا من

الذين فازوا بهذا الشرف الرفيع والذين وصفتهم بقولك الكريم : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ .

يـا إلهـى

رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يا مالك النفس قاصيها ودانيها

فليس للنفس آمال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها

فنظرة منك يا سؤلى ويا أملى ... خير إلىَّ من الدنيا وما فيها

سيدى إبا القاسم يا رسول الله

انت الذى من نورك البدر اكتسى ... والشمس مشرقة من نور بهاك

انت الذى لما رفعت الى السما ... بك قد سمت وتزينت لسراك

انت الذى ناداك ربك مرحبا ... ولقد دعاك لقربه وحباك

وخفضت دين الشرك يا علم الهدى ... ورفعت دينك فاستقام هناك

ماذا يقول المادحون وما عسى ... ان تجمع الكتاب من معناك

صلى عليك الله يا علم الهدى ... ما اشتاق مشتاق إلى مثواك

خاتمـــة

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة .

وبعـد ..

فهذا كتاب قصة أيامى حاولت جهد طاقتى أن أضع فيه تجارنى فى مجال الدعوة فى مدة استغرقت ثلث قرن من الزمان شرفنى الله تعالى فيها بالدعوة إليه ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين** ﴾ وقد سألت ربى جلت قدرته أن يكون هذا الكتاب سراجا يستضىء به السارى فى سبيل الله فإنه جهد متواضع لكنه نابع من تجارنى فى مدرسة الدهر وأساتذتها الأيام والليالى .

ولقد خلصت من هذه التجارب إلى أن الدنيا ما هى إلا مزرعة للآخرة فعلى العاقل أن يغتنم خمسا قبل خمس شبابه قبل هرمه وصحته قبل سقمه وغناه قبل فقره وفراغه قبل شغله وحياته قبل موته . فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل .

غدا توفى النفوس ما كسبت **ويحصد الزارعـــون ما زرعـــوا**

إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهـم **وإن أساءوا فبئس ما صنعـوا**

الحمد لله اوله وآخره وصلى الله على سيدنا محمد

المؤلـف

عبدالحميد كشك

فهرس

مقدمة ٥

قصة أيامي ٧

المولد والنشأة ٧

صعود المنابر ٩

مرض الوالد ١٢

وفاة الوالد ١٣

الواقع المر ١٣

بين المسكن والمعهد ١٥

مجيء الأم إلى القاهرة ١٥

على أبواب الامتحان ١٧

مفاجأة ١٨

إن الفرج مع الضيق ١٨

أمام اللجنة ١٩

مع الشيخ أحمد الكومي ٢١

البحث عن صديق ٢٢

العام الجديد ٢٣

هل من صديق ٢٤

وجاءت السنة الثالثة ٢٨

في مساجد الجمعية الشرعية ٢٩

إخوان كرام ٣١

دعوة مستجابة ٣٢

أمنية تحققت ٣٤

عام حاسم ٣٥

شدة أعقبها تيسير ٣٦

في يوم الامتحان ٣٨

المجتمع الممزق ١٥٩
عوامل النصر ١٦١
مقاول الهدم ١٦٣
مجتمع مفكك العرى ١٦٦
نفاق رخيص ١٦٩
الإيمان قوة والنفاق ضعف ١٧٢
ذات ليلة ١٧٣
سيف الحياء ١٧٣
موقف نبيل ١٧٤
دعوة غريبة ١٧٥
اقتربت الساعة ١٧٦
يوم النكسة ١٧٧
مع البهائيين فى أبى زعبل ١٨٠
حقيقة البهائية ١٨٣
ماذا قال الباب فى دعوته ١٨٦
مخالفات الباب ١٨٧
نماذج من تفسيرهم ١٨٨
نموذج آخر ١٩٠
لا جهاد فى البهائية ١٩٧
عقائد البهائيين ١٩٩
أيام يقدسها البهائيون ٢٠١
فتح باب الزيارة ٢٠٧
شيء عجيب ٢٠٨
موقف حرج ٢١٠
يوم الإفراج ٢١١
وفود الناس تأتى للتهنئة ٢١٢
واقعة عجيبة ٢١٣
فرس الغنى وبقرة الفقير ٢١٤
العودة إلى المسجد ٢١٤

قاهر الجبابرة ٢١٦
موقف حرج ٢١٨
مصارع الظالمين ٢١٩
الأحقاد تتحرك ٢٢٢
عقارب البغضاء ٢٢٤
عمر بن الخطاب ٢٢٥
وعيد وإنذار ٢٢٧
وعد وإغراء ٢٢٨
لقاء غاضب ٢٢٩
لقاء عاصف ٢٣٢
عالم يخشى الله ٢٣٤
جامعة المنيا ٢٣٥
استدعاء من وزارة الداخلية ٢٣٦
دعوة من وزير الإعلام ٢٣٧
دعوة من شيخ الأزهر ٢٣٨
ماذا قال لى شيخ الأزهر ٢٤٠
فتن ومحن ٢٤١
الخطبة رقم ٤٢٥ .... ٢٤٥
ليلة القبض ٢٤٧
إلى أين ٢٥١
ثم إلى أين ٢٥٢
الخطاب المشئوم ٢٥٥
يوم التحقيق ٢٥٧
مصرع السادات ٢٥٩
وعد بالزيارة ٢٦٠
كيف أبلغنا نبأ موته ٢٦١
ماذا بعد قتل السادات ٢٦٣
مجال التأليف والكتابة ٢٦٥
طريق النجاة ٢٦٧

رياض الجنــة ٢٦٩
بناء النفوس ٢٧٠
شفـاء القلوب ٢٧٢
صور من عظمة الإسلام ٢٧٢
نفحات من الدراسات الإسلامية ٢٧٤
ورثة الفـردوس ٢٧٥
مع التوحيد والأخـلاق ٢٧٧
أصحاب النفوس المطمئنـة ٢٧٩
الصراع بين النفس والمـال ٢٨٢
من حوار الخلق إلى رحاب الحلق ٢٨٣
فى رحاب السـكينـة ٢٨٤
منطق الحق المبين ٢٨٥
أعد الـزاد ٢٨٥
دعوة أسأل الله قبولها ٢٨٦
خاتمــة ٢٨٩